

العلاقات بين مصر واليونان

في القرن التاسع عشر

تأليف

الدكتور محمد محمود السروجي

مدرس التاريخ الحديث والمعاصر
كلية الآداب - جامعة الإسكندرية

١٩٦١

مطبعة المنيرة

الطبعة الأولى - ١٩٦١ - ٣٢٤٠٠٠

العلاء قا بين مرشد النبيا

في القرن التاسع عشر

جامعة الاسكندرية

مكتبة الطالب

دم ١٠٤٠٨ ط

كلية الآداب
تأليف

الدكتور محمد محمود السروجي

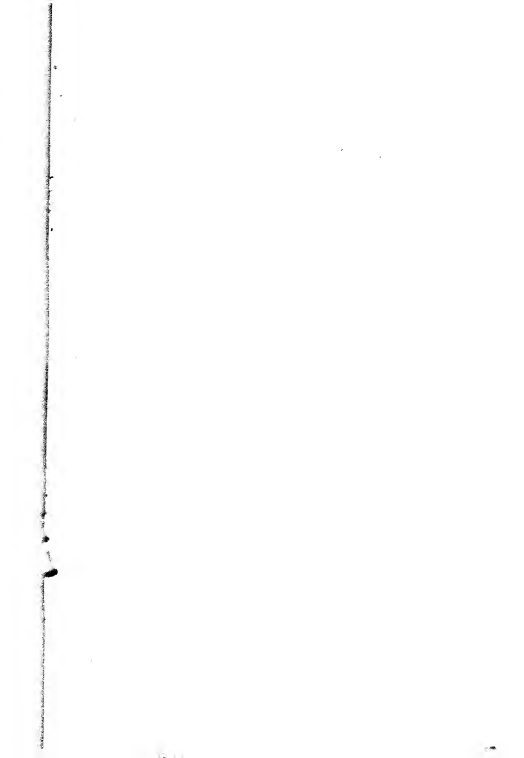
مدرس التاريخ الحديث والمعاصر
كلية الآداب - جامعة الاسكندرية

م	ر	تعدد
٦	١	٢٢٩

١٩٦١

مطبعة المصري

اسكندرية - خلف شيكوريل ت ٢٧٤٠٦



جامعة الاسكندرية

مكتبة الطالب

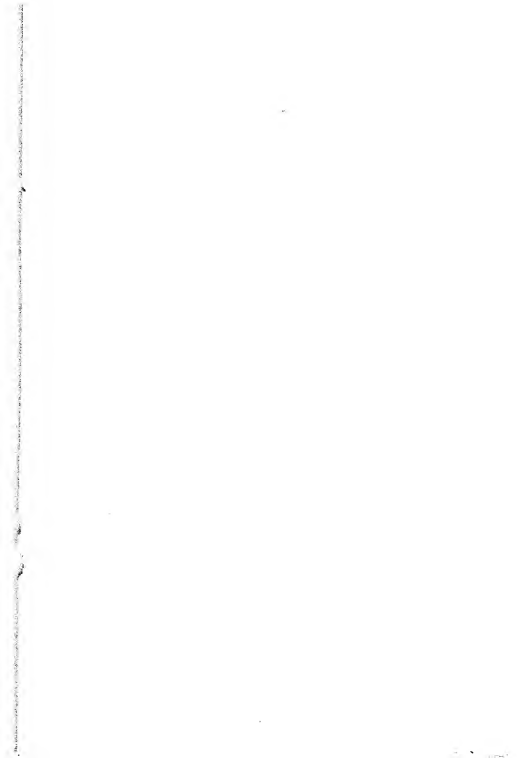
رقم ١٠٤٨ ط

كلية الاداب

العماد

الى ذكرى استاذى الجليل الدكتور محمد مصطفى صفوت

علامة تقدير واجهول وعرفانه بالجليل منه ابنة وتلميذ .



فهرس

صفحة

٣	تقديم الكتاب :	بقلم الأستاذ الكبير محمد شفيق غربال
٦	مقدمة المؤلف	
٩	تمهيد	
<u>الفصل الأول :</u>		
	الحملة الانجليزية على الحبشة وموقف	
١٤	مصر منها	
١٥	تدخل مصر	
١٧	الشك في نوايا انجلترا	
٢١	نتائج الحملة فيما يختص بمصر	
<u>الفصل الثاني :</u>		
	التوسع المصرى فى السودان وأثره فى	
٢٤	العلاقات المصرية الحبشية	
٢٧	بعثة السير سامويل بيكر العسكرية	
٢٨	تضارب الآراء حول أهداف الحملة	

(ب)

صفحة

٣٤ توسع مصر على سواحل البحر الأحمر

٣٥ ضم بوغوص (سنهيب)

٣٦ ضم زيلع

٣٧ فتح اقليم هرر

تعيين غوردون حكامدارا لمديرية خط

٣٨ الاستواء .

٣٩ بعثة ماكيلوب العسكرية

٤١ موقف غوردون من الحملة

٤١ تدخل انجلترا ونهاية الحملة

٤٥ الفصل الثالث : النزاع بشأن الحدود

٤٥ حق مصر في امتلاك بوغوص

٤٩ تحريض الحبشة على العدوان

٥٣ الاحتكام إلى السلاح

٥٥ الفصل الرابع : حملة أرندروب

٥٦ تكوين الحملة

(ج)

٩٢	خط سير الحملة	
٦٨	تخرج موقف القوات الزاحفة	
٧٣	معركة جندت	<u>الفصل الخامس :</u>
٨١	نتائج الحملة	
٨٦	حملة أوسا أو منسنجر	<u>الفصل السادس :</u>
٨٩	خط سير الحملة	
٩١	معركة أوسا	
٩٤	أسباب فشل الحملة	
٩٦	حملة راتب باشا	<u>الفصل السابع :</u>
٩٩	اعداد الحملة	
١٠٤	العقبات في طريق الحملة	
١٠٨	خط سير الحملة	
١١٩	دراسة مقارنة لحالة الجيشين المصرى والحبشى	<u>الفصل الثامن :</u>
١١٩	هيئة القيادة وأركان حرب	
١٢٥	تقرير الجنرال استون	

- ١٢٩ الجندى المصرى فى الميزان
١٣١ امكانيات الجيش الحبشى
١٣٤ الجندى الحبشى فى الميزان

١٣٧ الفصل التاسع : معركة قرع

- ١٣٩ وصف ميدان المعركة
١٤٢ معركة قرع
١٥٠ أسباب فشل الحملة

١٥٧ الفصل العاشر : نتائج الحملة

- ١٦٣ بذور الثورة العرابية
١٦٦ ما أشبه الليلة بالبارحة

١٧٣ الفصل الحادى عشر: المفاوضات

- ١٧٤ الرغبة فى الصلح
١٧٥ عودة الأمير حسن
١٧٧ التهيد للانسحاب
١٧٩ بدء المفاوضات
١٨٢ التدخل الانجليزى الفرنسى وأثره

ص	الفصل الثاني عشر :	التسوية النهائية
١٨٩		
١٩٠		الثورة العرابية والاحتلال الانجليزى
١٩٢		الثورة المهديّة
١٩٦		سياسة انجلترا ازاء السودان
٢٠٠		معاهدة عدوة
		المطامع الدولية فى ممتلكات مصر
٢٠٣		بأعلى النيل وشرق أفريقيا
٢١٢		استعادة فتح السودان
		الاتفاق بين بريطانيا والحباشة فى ١٥
٢١٥		مايو سنة ١٩٠٢ بشأن الحدود
٢٢١		المراجع

الخرائط

- (١) خريطة تبين خط سير حملة أرنديروب ٦١
- (٢) خريطة توضح معركة جندت ومواقع القوات المحاربة ٧٤
- (٣) خريطة تبين خط سير حملة منسنجر من تاجورة ٨٨
حتى بحيرة أوسة
- (٤) خريطة توضح خط سير حملة راتب باشا من مصوع إلى قرع ١٠٩
- (٥) خريطة توضح ميدان القتال بموقع قرع ٢٤٤

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

تقديم الكتاب

بقلم الأستاذ الكبير محمد شفيق غربال

استخرج الدكتور محمد محمود السروجي من رسالته القيمة في تاريخ الجيش المصري بحثا في العلاقات بين مصر والحبشة في القرن التاسع عشر ، وفيما صاحب تلك العلاقات من اشتبك حربي امتدت آثاره إلى الازمات الاجتماعية التي كانت الحركة العراقية من مظاهرها العظمية . واتخذ الدكتور السروجي من بحثه هذا موضوعا للكتاب الذي يقدمه اليوم للوطنين عموما وللطلاب الجامعيين خصوصا - ودعاني الدكتور السروجي لأن يكون لي نصيب في الكتاب ، بعد أن كان لي نصيب في مناقشة الرسالة الكبرى التي كانت موضوع الكتاب وموضوعات أخرى كثيرة ، وأني إذا ما ذكرت تلك المناقشة ذكرت مترحما زميلا شارك فيها ، هو الدكتور محمد مصطفى صفوت تلميذي ثم زميلي الذي فقدته كليته وهي أحوج ما تكون إلى علمه وخلقه . وصفوت هو صاحب الفضل على صاحب الكتاب ، كان أستاذه ومرشده

وصديقه . والأسطر التي أخطأ لهذا التقديم كان هو أولى بذلك
منى ، فلتسكن أيضا عرفانا بفضله واكراما لذكراه .

ولا نعرف جارا أحق بأن يحسن إلى جاره وأن يحسن جاره
إليه كأمة الحبشة بالنسبة إلى مصر أو مصر بالنسبة للحبشة . لنا
بالجزيرة العربية كما لهم صلات ، ونهلنا كما نهلوا من المنابع الإسلامية
والمسيحية . وبنيت نصرانيتهم كما بنيت النصرانية المصرية على قواعد
وطنية ، وبلادهم مداخل ومخارج لحياتنا التجارية وكذلك بلادنا
لهم . يلتقون بنا في أكثر من مكان . يلتقون بنا في وادي النيل
وفي البحر الأحمر وفي بيت المقدس ، فلم كانت أزمات إمتد
إليهم أذانا وامتد إلينا أذاهم ؟

ندرس في كتاب الدكتور السروجي حلقة من حلقات
الاصطدام في حرب وقعت بلا داع من شرف أو مال يقتضى
وقوعها - بل على العكس - كان كل شيء إذ ذاك يدعو إلى تجنبها ،
يدعو إلى تجنبها تربص الدول الأوروبية لنا ولهم ، ويدعو إلى
تجنبها حاجتنا وحاجتهم إلى تخليص مجتمعنا ومجتمعهم من شوائب
ومفاسد ، يدعو إلى تجنبها حاجتنا وحاجتهم إلى عدم تبديد ما لدينا
من المال القليل في التخريب والفساد في الأرض .

ووقعت الحرب ، ولم نحسن من أمرها شيئا . قيادة مختلطة يكاد

أعضاؤها لا يجدون لغة يستطيعون التفاهم بها . وخطط مضطربة ،
وسوء تدبير في أثر سوء تدبير - ولا يخرج من الحرب مرفوع
الرأس الا الجند من المصريين ومن الأحباش . قاموا بواجبهم
على خير ما يشرف الجندى - وكانت طعنة الهزيمة أقسى من طعنة
الرمح الحبشى . وأحدثت جراحا معنوية ثم تلثم . وكان من أمرها
فيما بعد ما كان .

ويدرس الدكتور السروجى الحرب دراسة كاملة - أسبابها
وأطوارها ونتائجها . ورجع الى المصادر الصحيحة رجوعا حسنا
واستخدمها استخدام إنصاف وتعقل وأناة . وأدرك ما كان من
عواقبها ادراكا حسنا . فجاء هذا الكتاب داعيا الى التبصر فيما كان
من سوء الجوار كي نحل محله ما يجب أن يكون من حسن الجوار .
وجاء بذلك جديرا بأن يمكن جيراننا من الاطلاع عليه ليروا فيها
مبلغ استعدادنا لعرض مأساة الحرب الحبشية المصرية بروح
الانصاف وبروح الأمل ، بالانصاف الذى يبين أن الحق لم يكن
كاه فى جانب واحد ، وبالأمل فى أن الفصل الجديد من التاريخ
الافريقى سنلتقى فيه أحبابا متفاهمين متعاونين .

نوفمبر ١٩٦٠

محمد شفيق غربال

مقدمة المؤلف

يتناول هذا الكتاب تاريخ العلاقات بين مصر وأثيوبيا في القرن التاسع عشر بصفة عامة ، وفي النصف الثاني منه على وجه الخصوص . ويعتبر هذا الموضوع من أدق الموضوعات التاريخية بحثا ، ومن أكثرها تعقيدا ، لاسيما إذا كان الهدف من ورائه الوصول الى الحقيقة المجردة من بين آلاف الوثائق المتضاربة ، من عربية وتركية وانجليزية وفرنسية وأمريكية ونمساوية ، مما أتيح لي الاطلاع عليه ودراسته . ولهذا يمكنني القول بأن هذا البحث يعتمد أساسا على تلك الوثائق . أما عن الكتب العربية والأجنبية فتأتى فى المرتبة الثانية من الأهمية .

ومع أن الكتب والمراجع الأوربية التى تعرضت لبعض نقاط هذا البحث قليلة العدد ، إلا أنها - رغم ذلك - تفتقر إلى روح البحث العلمى المنزه عن الهوى . بل إنها تعتمد فى أوقات كثيرة إلى تشويه الحقائق وصبغها بصبغة معينة لمأرب فى نفوس مؤلفيها .

وتواجه الباحث فى معالجته لهذا الموضوع صعوبات عديدة ، أهمها إلزام موقف الحياد التام إزاء مسائل هامة تمس بلاده فى الصميم ؛ وفى نفس الوقت تتعلق بتاريخ بلد شقيق يربطه بنا أصدق روابط الود والإخاء .

ورغم هذه الصعوبة فقد حاولت في هذا الكتاب أن أقدم للقارئ دراسة علمية صادقة لهذه الفترة من تاريخ العلاقات بين البلدين، بعيدة كل البعد عن التحيز معتمدا في ذلك على أوثق المصادر وأصدقها بعد دراسة وتمحيص .

وقد حرصت كل الحرص على نقل الوثائق التاريخية التي وردت في سياق هذا البحث كما هي بكل ما فيها من أخطاء لغوية ونحوية تحقيقا للأمانة العلمية .

ولما كانت الجمهورية العربية المتحدة تهتم اذتماما خاصا بشئون افريقيا ، باعتبارها عضوا هاما في الأسرة الافريقية ، ومن أولى الدول التي حملت مشعل الثورة والحرب على الاستعمار في تلك القارة . ولما كان من سياستها العمل على إقامة علاقاتها الخارجية مع شقيقاتها الافريقيات على أسس وطيدة من المساواة والتعاون المثمر لمصلحة المجموع ، فمن الأهمية بمكان أن نكون على علم بتاريخينا الحديث في تلك القارة التي نعيش فيها ، بكل ما فيه من فشل ونجاح وأن نستفيد من خبرتنا وتجاربنا الماضية للمساهمة في بناء المجتمع الافريقي الجديد الذي يناضل في سبيل الحرية والاستقلال .

ولا يسعني في هذا المقام إلا أن أشيد بالتوجيه السديد الذي لقيته من استاذي الكبير المغفور له الأستاذ الدكتور محمد مصطفى

صفوت ، تغده الله برحمته ، ومن أستاذى الجليلين محمد شفيق غربال
والدكتور احمد عزت عبد الكريم .

وفى الختام أرجو أن أكون قد وفقت فى عرضى لهذا الموضوع ،
والله ولى التوفيق .

الاسكندرية فى نوفمبر ١٩٦٠

محمد محمود السروحي

تمهيد

ظهرت في العشرينات من القرن التاسع عشر دولة كبرى في وادى النيل تضم مصر والسودان في وحدة واحدة ، تمتد حدودها من البحر الأبيض المتوسط شمالا إلى منطقة أعالي النيل جنوبا . ونظراً لدخول معظم سواحل البحر الأحمر القرية في حدود الدولة الجديدة ، أن أصبحت تربطها بالحبشة حدود مشتركة .

وكان طبعاً أن تنظر الحبشة بعين القلق إلى تقدم النفوذ المصرى نحو الجنوب ، وخصوصاً في عهد الخديو اسماعيل ، حيث اتسعت رقعة الخديوية المصرية اتساعاً كبيراً ، وأحاطت بالممتلكات الحبشية من كل جانب .

لم تنظر الحبشة إذن بعين الارتياح إلى توحيد أجزاء السودان في ظل الوحدة الجديدة ، ولا لما تقوم به مصر من تأمين حدودها وتعزيز قواتها ، تدعيها الحركة الإصلاح والعمران ، وتمكيناً لها من إدارة شئوننا على أسس إدارية صحيحة .

كان من الضروري أن تتأثر العلاقات بين البلدين نتيجة لهذه الأوضاع الجديدة . ولهذا يمكننا القول بأن العلاقات المصرية الحبشية في القرن الماضى قد اتسمت في بعض الأحيان بالرغبة في التعايش السلمى وفي قبول الأمر الواقع . وفي أحيان أخرى غلب عليها طابع غير ودى .

وإذا حاولنا أن نلقى شيئا من الضوء على العلاقات بين الدولتين في القرن التاسع عشر ، وأن نجد تفسيراً للازمات التي مرت بها ، فلن يعيننا البحث فتجاوز الدولتين واشتراكهما في الحدود يعتبر من أهم الأسباب - أن لم يكن السبب الأساسي - في تعكير صفو العلاقات بينهما .

فادعاء الحبشة ملكية بعض مناطق الحدود التي في حوزة مصر وخوفها من وجود دولة فتية على حدودها تهدد استقلالها وكيانها السياسي ، أدى إلى توتر العلاقات بين البلدين وإلى سيادة القلق والاضطراب الحدود المصرية الحبشية ، بسبب تعدى القبائل الحبشية عليها وارتكابها أعمال السلب والنهب بتشجيع من السلطات الحبشية المسئولة ، لخلق المتاعب للهيئة المصرية الحاكمة ولزعزعة الثقة بمركز مصر الحربي في تلك المناطق .

ولم يكن مرد هذا الاضطراب في تلك المناطق إلى قلة مالدي مصر من قوات حربية ، بقدر ما هو راجع إلى طبيعة تلك البلاد وطبيعة السكان أنفسهم . فاذا نظرنا إلى مناطق الحدود هذه نجد بها قبائل رحل ، تقطن على جانبيها ، وتنتقل من جانب إلى آخر دون نظر إلى خط الحدود الذي لم يكن معترفاً به ، لا من قبل تلك القبائل ولا من السلطات الحبشية المسئولة .

وكان انتقال هذه القبائل من جهة إلى أخرى ماثراً لكثير من المتاعب للإدارة المصرية في السودان . فقد جبلت هذه القبائل على

عدم الخضوع والطاعة إلا بقدر ما يحقق لها هذا الخضوع من مصالح . فإذا ما اشتدت قبضة الحكومة المصرية على القبائل الخاضعة لحكمها ، لا تجد هذه القبائل غضاضة في عبور الحدود والالتجاء إلى الاراضى الحبشية ومناوأة السلطات المصرية ، والقيام بأعمال السلب والنهب ، سعياً وراء الكسب ، واستجابة لرغبتها في الحرب والقتال ، وازهاراً لولائها واخلاصها لملك الحبشة .

كذلك كان من أسباب عدم الاستقرار في منطقة الحدود تشجيع كلا الطرفين المصرى والحبشى للقارين من كلا الجانبين ، وبسط حمايته عليهم ، وامدادهم بكل ما يحتاجون اليه من مؤن وسلاح . ولم يكن هذا الاجراء - بطبيعة الحال - مما يشجع على استتباب الأمن أو إقرار الأوضاع في تلك المنطقة .

هذا بالإضافة إلى خوف الحبشة من أطماع محمد على ، لاسيما بعد أن أشاعت الجرائد الاوربية بعزمه على ضم الحبشة إلى ممتلكاته ووقوف الحكومة الانجليزية في وجهه ، بل إن هذه المخاوف لم تنته بعقد معاهدة لندن سنة ١٨٤٠ ولا بصدر فرمان سنة ١٨٤١ .
فبينما تضع المعاهدة وكذلك الفرمان حداً لتوسع محمد على في القارة الاسيوية ، نجد أنهما لم يقفا في طريق توسعه في السودان والمناطق المحيطة به . وهذا يفسر لنا استمرار الاضطرابات على الحدود السودانية الحبشية حتى أواخر أيام محمد على .

وقد حاولت الحكومة المصرية جاهدة في عهد محمد على

الوصول إلى اتفاق مع الحبشة بشأن الحدود، وذلك لايجاد نوع من الاستقرار والهدوء في تلك المناطق ، ولكن جميع تلك الجهود قد باءت بالفشل لعدم اعتراف الحبشة بشرعية امتلاك مصر لبعض مناطق الحدود مثل القضايف والقلابات (دار القلابات) وفازوغلى .

واستمر الوضع على الحدود دون أن يطرأ عليه أى تغيير في عهدى عباس الأول وسعيد ، فلم تنقطع أعمال السلب والنهب ولم ينقطع أيضا تحذير كل من الطرفين المصرى والحبشى للآخر وتهديده باستخدام القوة إذا لم توقف تلك الأعمال .

وفي عهد اسماعيل حاولت مصر أن تؤمن حدودها الجنوبية من ناحية الحبشة بوسيلتين : الأولى: تحصين تلك الحدود وإيجاد عدد كاف من الجنود بها ، بحيث تصبح مهاجمة الحدود المصرية من الأمور العسيرة التى تكلف المعتدين ثمنا باهظا . والثانية استمالة أكبر عدد من القبائل الحبشية الضاربة على حدود الحبشة وتشجيعها على الالتجاء إلى الممتلكات المصرية ، والتمتع بالحماية اللازمة ، مع منحها من الامتيازات ما يرغبها فى البقاء تحت طاعة الحكومة المصرية .

ورغم الأخذ بهاتين الطريقتين ، فقد أخفقت مصر فى تحقيق ما تصبو اليه ، فتحصين الحدود السودانية الحبشية يستلزم استخدام عدد كبير من الضباط والجنود ، فى نفس الوقت الذى كانت مصر

في أشد الحاجة إلى الجنود للقيام بفتوحاتها العديدة في مختلف أنحاء السودان. ولهذا استمرت الحدود السودانية الحبشية مكشوفة إلى حد كبير ، ولا يوجد بها من الجنود ما يخيف الأحباش .

أما فيما يتعلق بالسياسة التي سارت عليها مصر في استمالة القبائل الحبشية إلى جانبها واخضاعها لسلطتها ، فلم تكن منزهة عن الخطأ ، فمعظم هذه القبائل كانت غير مخلصه لمصر . بل كان بعضها عيوناً للأحباش تنقل اليهم كل حركاتها وسكناتها ، وكان البعض الآخر لا يهتم من أمر مصر سوى السير في ركابها واستنزاف أكبر قدر من أموالها . بينما كان البعض يدين بالولاء لمصر طالما كان يشعر بقوتها وبقدرتها على الانتصار على الأحباش . فلما تطرق إلى هؤلاء الشك انصرفوا عنها راجعين .

لكل ما ذكرنا نجد أن العلاقات بين مصر والحبشة لم تتحسن في عهد اسماعيل ، بل على العكس من ذلك ، فقد جد من الأمور ما زادها سوءاً . وخير مثل لذلك الحملة الانجليزية على الحبشة وموقف مصر منها .

الفصل الأول

الحملة الانجليزية على الحبشة وموقف مصر منها

من أهم الأسباب التي أدت إلى سوء العلاقات بين مصر والحبشة ، وكانت من العوامل الهامة في قيام النزاع المسلح بين الدولتين في النهاية هي الحرب الانجليزية الحبشية . ولهذا ستعرض لتلك الحرب بشيء من الإيجاز لما لها من صلة وثيقة بموضوع دراستنا ، وكذلك لبيان الدور الفعال الذي قامت به مصر في مساعدتها لانجلترا في تلك الحملة ، وللسياسة التي اتبعتها مصر ازاءها ؛ ولوجود بعض التشابه بينها وبين الحملة المصرية على الحبشة .

ويرجع السبب في قيام تلك الحرب إلى رغبة الملك ثيودورس Theodorus ملك الحبشة في إنشاء سفارتين بالحبشة إحداها انجليزية والأخرى فرنسية ، وانصراف كل من الدولتين عن تلبية تلك الرغبة ، مما أدى إلى إغضب الملك وإثارته ، وإلى التعبير عن هذا الغضب بالقبض على الرعايا الأوروبيين المقيمين بالحبشة سواء منهم المشتغلين بالتجارة أو من رجال الدين وإيداعهم السجن ومن بين هؤلاء القنصل الانجليزي كاميرون D. Cameron .

تدخل مصر :

أنار هذا المسلك الشاذ من قبل الملك حكومتى إنجلترا وفرنسا،
ولكنهما آثرتا التريث والالتجاء إلى الطرق الودية لإنهاء الأزمة
والسعى لإطلاق سراح هؤلاء المعتقلين . فلما أعييت الحيل لإنجلترا
لجأت إلى والى مصر اسماعيل لاستخدام نفوذه فى التوسط بين
الطرفين المتنازعين عسى أن ينجح فى إقناع الملك ثيودورس بالعدول
عن موقفه . وقد استجاب اسماعيل لرغبة إنجلترا ، فأرسل إلى
الملك كتابا (أكتوبر ١٨٦٧) ينصحه فيه بأطلاق سراح الرعايا
الأوروبيين حقنا للدماء ويحذره فى نهايته من مغبة عمله هذا ،
ويهدده بأنه إذا لم يطلق سراح المعتقلين بالحسنى ، فستسلط عليه
الحكومة الإنجليزية جنوداً لا قبل له عليها ، وسيمر هؤلاء الجنود
بالأراضى المصرية ، وبأنه (أى اسماعيل) لن يستطيع الوقوف فى
طريقها . فالأفضل إذن إنهاء تلك المشكلة بالطرق الودية ^(١) .

ويبدو أن الخديو اسماعيل لم يكن يهمنه أن يقوم بدور
الوسيط الفعلى فى هذا النزاع بقدر ما كان يهمنه تبرير موقفه بإزاء
مرور القوات الإنجليزية عبر الأراضى المصرية فى حالة رفض
ملك الحبشة إنهاء المشكلة بالطرق الودية ، لأنه كان يعلم مقدما
بفشل كل المساعى الودية التى بذلتها إنجلترا فى هذا الشأن .

(١) المحفوظات التاريخية بالقصر الجمهورى دفتر ٢٤ عابدين من الجناح العالى
الى امبراطور الحبشة وثيقة رقم ٤٦٤ فى ٢ جمادى آخر سنة ١٢٨٤ • أكتوبر
١٨٦٧ •

ورغم أن الخديو اسماعيل لم يكن يريد التورط في مساعدة الحملة الانجليزية ، إلا أنه كان مضطراً إلى ذلك لعدة عوامل تتلخص في الاستجابة لأمر الباب العالي ^(١) ، وإرضاء الحكومة الانجليزية ، والعمل على هزيمة الحبشة انتقاماً منها لكثرة إغاراتها على حدود مصر الجنوبية ، وتنازع تلك الهجمات منذ أواخر ولاية سعيد . بل لقد بلغت تلك الاغارات من الكثرة إلى حد أن اقترح موسى حدى باشا حكامدار السودان على الخديو اسماعيل إخلاء القرى الواقعة على الحدود المصرية الحبشية ، لكي تبقى الحدود بعيدة عن بعضها مسافة سبعة أيام ، وتصبح هذه المنطقة مجردة من العمار وخالية من المؤن ^(٢) . ولكن هذا الاقتراح لم يجد قبولا لدى والى مصر ، وفضل تعزيز نقط الحراسة بتلك المناطق بعدد آخر من الجنود بدلا من اخلائها ^(٣) .

وحينما أيقنت الحكومة الانجليزية بأن تلك الازمة لن تحل إلا باستخدام القوة ، وندست من الوصول الى حل ودى ، كلفت حكومة الهند بتجهيز جيش كبير تحت قيادة الجنرال روبرت

(١) المحفوظات التاريخية بالقصر الجمهورى دفتر ٢٤ عابدين من الجتاب العالي الى الباب العالي . وثيقة رقم ٤٤٤ فى ٢ جماد آخر ١٢٨٤ « أكتوبر ١٨٦٧ .

(٢) المحفوظات التاريخية بالقصر الجمهورى محفظة ٥٩ « معية تركى » من موسى حدى حكامدار السودان الى صاحب السعادة المهردار . وثيقة رقم ٣٥٥ فى ٢٨ رجب سنة ١٢٧٩ « يناير سنة ١٨٦٣ » .

(٣) المحفوظات التاريخية بالقصر الجمهورى وثيقة ٥٥٨ « معية تركى » أمر كريم الى حكامدار السودان رقم ١٠ ص ٢٩ فى ٢٣ شوال سنة ١٢٨٣ « فبراير سنة ١٨٦٧ » .

نايپير Robert napier في سبتمبر ١٨٦٧^(١) ، ويتألف من ١٤٦٨٣ جنديا يقبعه ٢٨٠١٦ من الخدمة ومعه ٢٦٠٩٣ من حيوانات النقل والخيول و٤٤ فيلا .^(٢) ونزلت تلك الحملة بميناء زولا على ساحل البحر الأحمر .

لكل تلك الاسباب التي أشرنا اليها أصدر الخديو اسماعيل أمره الى عبد القادر باشا محافظ مصوع بامداد الجيش الانجليزي بكل ما يحتاج اليه . وبناء على هذا الأمر وضع المحافظ بعض سناجق الباشبوزق (ضباط غير نظاميين) في ميناء زولا لتقديم التسهيلات اللازمة للحملة ، وجعل جمالي بك قومندان فرقاطة شير جهاد باشبوغا (رئيسا) للبواخر المصرية الست التي خصصت لمساعدة الانجليز بالبحر الأحمر وهي : كفتيت والتاكة وشندي واسوان والطور وشير جهاد ،^(٣) .

وقامت تلك السفن بنقل كل ما يلزم القوات الانجليزية المحاربة من مؤن من ميناء السويس . وزيادة في المساعدة سمحت الحكومة المصرية لبعض التجار من المصريين الوطنيين بمرافقة الحملة والتعاون معها .

الشك في نوايا إنجلترا :

ورغم تقديم مصر المساعدات اللازمة للحملة . إلا أنها -

(١) Buckle, The Life of B. Disraeli, vol. II P 302.

(٢) اسماعيل سرهنك : حقائق الأخبار عن دول البحار ج ٢ ص ٢٩٩ .

(٣) حقائق الأخبار ج ٢ ص ٢٩٩ .

في نفس الوقت - كانت تخشى من مطامع انجلترا في المناطق المحيطة بحدود مصر الجنوبية والمناخية لحدود الحبشة . ولهذا كان حكام تلك الجهات من المصريين يقومون بمراقبة تحركات القوات الانجليزية بعين يقظة ساهرة ، ويرسلون بتقارير متوالية إلى وإلى مصر بكل ما يدور في تلك الجهات . ويبدون في بعض الأوقات شكوكهم من مسلك تلك القوات في بعض الأمور .

ومن هذه التقارير التي تصور لنا هذا الشك ، تقرير بعث به راجب باشا ناظر الداخلية إلى مهردار الخديو - استناداً إلى ما وصله من معلومات - يذكر فيه أن القوات الانجليزية بدأت في بناء منشآت لها على شاطئ زولا في منطقة الخليج الواقع على بعد ثلاثين ميلاً قبلي مصوع لحفظ المهمات ولإقامة الحيوانات ، وأن عبد القادر باشا محافظ مصوع عندما أراد أن يرافق محافظ عدن والقنصل الانجليزي في مرورهما على مينائي مصوع وزولا التمس منه ألا يصحبهما بحجة المحافظة على مبادئ الحياد التي تسير عليها مصر إزاء الحرب الناشبة بين انجلترا والحبشة .

ويعمل راجب باشا ناظر الداخلية في رسالته ، مسلك الانجليز هذا بقوله : « إن رغبتهم في عدم ذهاب محافظ مصوع إلى زله (زولا) حفظاً لمبادئ الحياد ، بينما يسمح لهم بالممرور من مصوع ومن جميع حدودنا ، يشعرون بأنهم يريدون أن يعدوا زله (زولا) كأنها غير تابعة للخديوية مصر ^(١) » .

(١) المحفوظات التاريخية بالقصر الجمهوري محطة ٤٢ ممية بركي . من راجب باشا ناظر الداخلية إلى حضرة صاحب السعادة المهردار . وثيقة رقم ١١٧ مرفق ١ بتاريخ ٢٤ جمادى الثانية سنة ١٢٨٤ هـ أكتوبر سنة ١٨٦٧ م .

وفي حقيقة الأمر فإن تصرف هذين المسؤولين الانجليزين
يشير الشك ، فدعواهما بالمحافظة على الحياد لا تستقيم مع موقف
مصر من الحملة الانجليزية منذ البداية ، فلم يكن موقفها موقف
حياد بأي حال من الأحوال . وهذا مادعا ناظر الداخلية أن يقترح
على والى مصر بأن يتوجه عبد القادر باشا إلى شاطئ زلة (زولا)
وفي معيته عشر أو خمسة عشر قواصاً وترجمانية ومعاون بحجة زيارة
محافظ عدن والقنصل (الانجليزى) والنظر فى الوسائل المؤدية
لتسهيل مايلزمهم . وبعد المقابلة يقول لهما : إننى آسف لأنى لم أجد
هنا أحداً منا ليساعدكم فى مايلزمكم ، فإنى عملاً بتقاليد الضيافة
أعين بعض الأشخاص لتلبية طلباتكم أولاً بأول . وبعد أن يستبقى
هناك أحد المأمورين وأحد الترجمة وبعض القواصين من الذين
فى معيته ويتم المرغوب على هذا الوجه ، يوعز الباشا المشار اليه
إلى المأمور الذى استبقاه سرا بأن يوافيه بمايقع هناك من حركات
أولاً فأول ، ^(١)

كذلك خشيت الحكومة المصرية من اتصال المسؤولين الانجليز
بكبار المشايخ والعربان المقيمين بتلك المناطق ، ولكنها فى نفس الوقت
لم تكن تستطيع منع هذا الاتصال . ولهذا عملت على استمالة هؤلاء إلى
جانها بمختلف السبل . ولما كان القائمون على أمر الحملة من الانجليز

(١) المحفوظات التاريخية بالقصر الجمهورى بحفظه ٤٢ «معية تركى» من راغب
باشا ناظر الداخلية إلى حضرة صاحب السعادة المهر دار . وثيقة رقم ١١٧ مرفق
١ بتاريخ ٢٤ جمادى الثانية سنة ١٢٨٤ «أكتوبر سنة ١٨٦٧» .

يغدقون على هؤلاء المشايخ أموالاً وهدايا كثيرة تأميناً لظهورهم
وكسبا لصدقاتهم فقد عملت الحكومة المصرية من جانبها على منح
هؤلاء ضعف ما منحه لهم الانجليز لتضمن بذلك ولاءهم وإخلاصهم^(١)

ويبدو أن أزمة الثقة كانت موجودة لدى الطرفين المصرى
والانجليزى، فلم تكن مصر وحدها التى تشك فى تصرفات الانجليز
فى تلك المناطق، بل ان السلطات العسكرية الانجليزية أيضاً كانت
تخشى جانب مصر، وتراقب ما يجرى داخل الحدود المصرية عن
طريق عيونها المنبئين فى تلك الجهات. ونستدل على ذلك بما كتبه
حكمदार السودان إلى مهردار الخديو يخبره بوجود أحد الانجليز
بمنطقة الحدود المصرية يقوم بشراء الجمال والبنادق من السكان
لإرسالها إلى ميناء مصوع. ويعلق الحكمदार على هذا النبأ بقوله
« انه يغلب على الظن أن هذا الرجل مكلف سرّاً بجمع الأسلحة
النارية من الأهالى والعربان التابعين لنا والموجودين فى حدود
الجبشة خوفاً من اتفاقهم مع الاحباش حسب ظنهم الفاسد ..
وقد كتب وكيل الحكمدارية الى المديرين مكاتبات غير رسمية
يكلفهم بالتنبيه على الأهالى ومشايخ العربان بصفة سرية بالألا يبيع
أحد السلاح الموجود عنده^(٢)، ولم تكن الحكومة الانجليزية
بطبيعة الحال فى حاجة الى مثل تلك الأسلحة والبنادق القديمة

(١) المصدر السابق .

(٢) المحفوظات التاريخية بالقصر الجمهورى سجل عابدين رقم ٤١ من الجناح
العالى إلى الفيوكتخدا كامل بك» وثيقة رقم ٦٣٥ فى ٣ محرم سنة ١٢٨٥ .

لاستخدامها في الحرب الى جانب أحدث الأسلحة التي كان يتزود بها الجيش الانجليزي في ذلك الوقت .

بعد أن أتمت الحملة استعدادها زحفت نحو مجدله ، واستطاعت بعد قتال شديد الانتصار على القوات الحبشية والاستيلاء عليها . وعند ما وجد تيودورس أن فراره من يد الانجليز أصبح مستحيلا ، وضع حداً لحياته . وقد تلقى الشعب الانجليزي وعلى رأسه دزيريلي نبأ الانتصار في صباح ٢٦ أبريل سنة ١٨٦٨ بفرح وسرور عظيمين وذلك لتعلق الحملة بهيبة الحكومة الانجليزية وكرامتها الى حد بعيد . وبعد أن حققت الحملة أغراضها انسحبت من الأراضي الحبشية في نفس السنة ، وهذا يصح ما أعلنه دزيريلي في نوفمبر سنة ١٨٦٧ عند إرساله الحملة بأمر الحكومة الانجليزية مقدمة على حرب لا لضم أراض جديدة ، ولا لتأمين المصالح التجارية الانجليزية ولكن لأسباب أخلاقية عالية ، ولأسباب أخلاقية فقط .

"Not to obtain territory, not to secure commercial advantages, but for high moral Causes and for high moral causes alone(1)".

نتائج الحملة فيما يختص بمصر:

ولهذا تعتبر الحرب الانجليزية الحبشية حرباً فريدة في نوعها خلال القرن التاسع عشر ، حيث طغت فيه سياسة الامبرياليزم

على تصرفات الدول الأوروبية الكبرى وكل ما وجة للحملة من نقد يدور حول كثرة الأموال التي انفقت عليها وتجاوزها لمقدار الاثنين مليون جنيه انجليزى التى قدرت لها فى أول الأمر بحوالى سبعة ملايين جنيه . مما حدا بالحكومة الانجليزية الى موازنة هذا هذا العجز فى الميزانية برفع ضريبة الدخل على الإيراد^(١) .

ولكن المسائل المادية لم تكن تدخل فى اعتبار دزيريلى ، وخصوصاً إذا كان الأمر يتعلق بـ **كرامة** حكومته . بل ان الحكومة الانجليزية لم تكن تأمل فى الحصول على هذا النصر السريع ، فربما بعد كل ما بذل من جهود تفشل الحملة نتيجة لسوء الأحوال المناخية من ناحية ولقدرة الأحباش الفائقة على المقاومة والقتال فى أشد المناطق الجبلية وعورة من ناحية أخرى^(٢) .

ومع أن الحملة الانجليزية على الحبشة قد انتهت فى صالح انجلترا إلا أنها قد أضرت بمصالح مصر ضرراً بليغاً ، فقد أشعلت عوامل العداوة والبغضاء التى يكنها ملك الحبشة الجديد يوحنا لمصر ، وحملها كل ما أصاب بلاده من هزيمة واندحار . فلولا سماحها للقوات الانجليزية بعبور أراضيها وتقديمها المساعدات اللازمة لها ، لما استطاعت تلك القوات أن تصل إلى قلب الأراضى الحبشية فى يسر وسهولة وأن تنزل بالأحباش هزيمة سريعة .

(١) المصدر السابق ص ٣٨٣—٣٨٥ .

(٢) المصدر السابق .

كذلك نجد أن إنجلترا لم تعترف بمأسدته اليها مصر من جميل، بل على عكس ذلك، قامت ببيع بعض أسلحة الحملة ومعداتنا إلى الحبشة بثمن بخس. كما فضل عدد قليل من ضباطها البقاء في الحبشة والدخول في خدمة يوحنا كستشارين ومدربين للجيش الحبشى. فتسليح الاحباش بهذه المعدات الإنجليزية الحديثة لم يكن في صالح مصر البته. بل كان من الأسباب الهامة التي شجعت يوحنا على المضى في تحديه للإدارة المصرية وعدم الميل إلى حل المشاكل المتعلقة بين البلدين بالطرق الودية.

الفصل الثاني

التوسع المصري في السودان وأثره في العلاقات المصرية الحبشية

انتهى النزاع بين محمد علي والسلطان العثماني بتسوية عام ١٨٤١ التي منحت مصر وراثياً علاوة على حكم السودان وملحقاته مدى الحياة . وإذا كان محمد علي قد عجز عن الاحتفاظ بفتوحاته في شبه الجزيرة العربية والشام وكريت إلا أنه نجح في الاحتفاظ بالسودان كمكافأة على ما قامت به مصر من جهود في تلك البلاد . كما أن صدور فرمان ١٨٤١ الخاص بالسودان أباح لمصر التوسع جنوباً وضم ما تراه ضرورياً ولازماً لصون مصالحها في مياه النيل . وسيبدو هذا واضحاً جلياً في النصف الثاني من القرن التاسع عشر .

وبمقتضى هذا فرمان أصبح والى مصر يحكم مصر والسودان كوحدة واحدة ويدير شئونهما بما يتفق مع مصلحة المصريين والسودانيين في ظل السيادة العثمانية غير المباشرة ، وفي حدود ما نصت عليه الفرمانات . ولم تكن المناطق التي ورد ذكرها في فرمان (النوبة ودارفور وكردفان وسنار) هي وحدها التي

خضعت للسيادة العثمانية ، بل لقد خضعت لها مناطق أخرى في السودان الشرقي تمتد من سواكن شمالا الى باب المندب جنوبا بما في ذلك ميناء مصوع والحبشة . ولكنها كانت خاضعة لوالى جده في ذلك الوقت ، وكان محمد على يتوق الى وضع تلك المناطق تحت حكمه . وقد أفاح في أخريات أيام حياته في ضم سواكن ومصوع إلى حكمه ، ولكن سرعان ما خرجت هذه المناطق من قبضة مصر بعد وفاته .

وكان هدف محمد على من الاستيلاء على هذين المينامين وما يحيط بهما ، أن يتخذهما كنقطتي ارتكاز لعملياته التوسيعية على سواحل البحر الأحمر الغربية وشرق أفريقيا . ويبدو ذلك من اهتمام محمد على بوضع حاكم خاص لإدارة هاتين المنطقتين وإرسال تجريدة حربية صغيرة لكشف المناطق الساحلية الممتدة على طول الساحل الغربي للبحر الأحمر حتى باب المندب كما وضعت دراسات خاصة عن المناطق الساحلية لشرق أفريقيا والممتدة من سواكن جنوباً إلى بربرة توطئة للقيام بحملة عسكرية لاستعادة ضم تلك المناطق التي خضعت للدولة العثمانية أيام حكم السلطان سليم الأول .

أى أن محمد على قد حاول في ذلك الوقت القيام بحملة عسكرية هدفها احياء الفتوحات العثمانية القديمة في ظل السيادة المصرية المباشرة . وكانت الحملة المزمع إرسالها ستكتسح الحبشة - بطبيعة الحال - في طريق تقدمها نحو الجنوب . ولكن هذا المشروع أثار

غضب الحكومة الانجليزية على محمد علي ، فهي لن تسلم بأى حال من الأحوال بوقوع الحبشة في قبضة والى مصر .

هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى فالحبشة دولة مسيحية ، وانجلترا تتبع فى سياستها الخارجية سياسة العطف ومناصرة الدول المسيحية ، ولذا فقد لفتت نظر والى مصر إلى خطورة ما هو مقدم عليه من أعمال وحذرت من الاقتراب من الحبشة ، ولم يمس على هذا التحذير غير فترة قصيرة حتى مرض محمد على ومات فلم يجد المشروع له نصيراً فى عهد خلفيه عباس الأول وسعيد .

كان على اسماعيل اذاً أن يتهج على منوال محمد على وأن يحاول احياء الفتوحات العثمانية القديمة فى ظل السيادة المصرية . فأن نفضت مصر يدها من مسألة كريت (١٨٦٧/٦٦) حتى أخذت فى تنفيذ سياستها التوسعية فى القارة الافريقية ، تلك السياسة التى عبر عنها المسيو بارو Barrot سكرتير الخديو اسماعيل الخاص لوزير خارجية فرنسا المسيو ديكاز بقوله : ان موقع مصر يحتم عليها العمل على ادخال المدنية والحضارة إلى القارة الافريقية . وأن هذا العمل الضخم سيستنفد كل قوتها وحيويتها ومواردها ، مما لا يجعل لديها بقية من جهد تستطيع توجيهه الى قارة أخرى ،^(١)

وقد ذكر فنصل انجلترا الجنرال بمصر للورد دربي Lord Derby

(1) F.O. 78-2633. C. Vivian to the Earl of Derby
No. 266 political secret and confidential. Alex. Aug.
21.1877.

وزير خارجية إنجلترا سنة ١٨٧٦ بأن الخديو اسماعيل ينظر إلى مصر كدولة أفريقية ويحلم بالتوسع في تلك القارة وأيسمت لديه اطماع خارج حدودها لأنه يعتقد أن التوسع في أفريقيا ذو فائدة كبرى للمدنية والانسانية بصفة عامة .

بعثة السير سامويل بيكر العسكرية :

فتوسع مصر في القارة الافريقية ومحاولتها تكوين امبراطورية افريقية كان يخضع لاعتبارات متعددة أهمها التزام مصر بنصوص فرمان ١٨٤١ ، وتوجيه هـ — ذا فرمان لنشاطها نحو السودان . فاذا كان لدى مصر نشاط زائد فلتعبر عنه في أفريقيا . كذلك كان من الاعتبارات التي لها أهميتها في توجيه مصر نحو التوسع في الجنوب رغبتها في ضم منابع النيل ، وفي القضاء على تجارة الرقيق وفتح تلك الجهات للتجارة المشروعة .

لهذه الاعتبارات السالفة الذكر أرسات بعثة السير سامويل بيكر إلى أعالي النيل ، وتمت حركة التوسع في شرق أفريقيا وعلى طول ساحل البحر الأحمر وساحل افريقيا الشرقي ، وأسندت لغوردون حكمةدارية مديرية خط الاستواء ثم حكمةدارية عموم السودان .

أما عن بعثة السير سامويل بيكر العسكرية (أوائل عام ١٨٦٩)

(1) Gordon, Letters of Gen. Gordon to his sister
P. 90.

فأهميتها ترجع الى أنها تعتبر الخطوة الأولى في سبيل تشييد صرح
الامبراطورية المصرية في القارة الأفريقية . كما أنها من ناحية أخرى
تعتبر الحلقة الأولى في سلسلة الفتوحات التي قامت بها مصر ،
والتي انتهت بنطويق الحبشة في النهاية بالممتلكات المصرية من
جميع الجهات .

تضارب الآراء حول أهداف البعثة :

ورغم ان عدد جنود البعثة لم يكن يتجاوز ١٦٥٠ جندياً^(١)
الا أنها أثارت اهتمام دول أوروبا وكذلك الولايات المتحدة
الأمريكية التي كانت تهتم بشئون مصر في تلك الفترة بصفة خاصة ،
نظراً لاستخدام عدد كبير من ضباطها في الجيش المصرى ،
ولازدياد التبادل التجارى بين مصر والولايات المتحدة اذ ذاك .
فقد أشار المستر تشارلز هبل Charles Hale قنصل أمريكا
الجزرال بمصر في تقرير بعث به الى وزارة الخارجية الأمريكية
بشأن تلك الحملة الى أنها تعتبر بداية تحقيق مشروع الخديو
اسماعيل الكبير الذى يرمى الى اخضاع جميع البلاد المحيطة بوادى
اليل . وأن احتلال بوغوص ما هو الا الخطوة الثانية فى هذا
المشروع أو حلقة فى سلسلة الحركات التى تقوم بها الحكومة المصرية
لاخضاع المناطق المحيطة بالنيل من منابعه الى مصبه . ويضيف الى

(1) Baker; Ismailia P. 8

ذلك بأن الحاق تلك المناطق بمصر يعتبر منة كبيرة بالنسبة لتلك البلاد ، ويحظى بتأييد الراغبين في خيرها . وأهم من هذا كله فتح تلك البلاد المجهولة للتجارة العالمية ، نظرا لخصوبتها ووفرة مواردها الطبيعية ، كما سيقضى على تجارة الرقيق ، تلك اللعنة التي نكبت بها . وستزداد بذلك موارد البلاد المعدنية والزراعية ازدياداً كبيراً لصالح مصر ولصالح العالم الاوربي . ولكن هذا المشروع الكبير يقابل بمعارضة شديدة من قبل الحبشة ^(١) .

وفي رسالة أخرى يوضح قنصل أمريكا الجزائر بمصر المستر بيردزلى Beardsly لوزير خارجيته الغم - ووض الذي يكتنف البعثة وجهل الدول الأوروبية بالأهداف الحقيقية التي ترمى اليها . ولكنه يعود فيؤكد بأنه بما لاجدال فيه أن غرض الحملة الرئيسى ، ادخال المناطق المحيطة بالنيل الابيض ومنطقة البحيرات تحت الحكم المصرى والتبعية المصرية ، مع إيجاد مواصلات منتظمة وآمنة بين تلك المناطق النائية ومصر لتشجيع الزراعة وتنشيط حركة التبادل التجارى والقضاء على تجارة الرقيق ^(٢) .

على أن الحديو اسماعيل لم يأل جهدا في توضيح أهداف الحملة للمستر بيردزلى - قنصل أمريكا الجزائر بمصر - في مقابلات متعددة ، فأعرب له عن أمله في أن يتبع السير سامويل بيكر

(1) Amer. Doc. vol. 6 P. 272 Despt. No. 19 R. Beardsly to "Charles Hale" 16 Oct. 1872.

(2) Amer. Doc. vol. 7 - P. 111 Despt. No. 92 R. Beardsly to Hamelton Fish. Cairo, 7 May 1872.

بدقة التعليمات التي صدرت اليه ، وألا يولى مسألة القضاء على
تجارة الرقيق الاهتمام إلا كبر من تفكيره ، لأنها ستكون النتيجة
الطبيعية لفتح تلك البلاد . فبعثته هي للعمل على استرضاء القبائل
التي تقطن تلك الجهات وضمها لمصر . ولذا فإن مهمته هذه تتطلب
منه أن يكون حذرا وسياسيا في معالجته الأمور ، وأن يعرف
جيدا أن الهدف الرئيسي من بعثته هو تنمية المصالح المصرية في
أواسط أفريقيا ، وألا يأت بعمل يكون من شأنه تأخير تقدم
الراية المصرية نحو الجنوب ^(١) .

ولكن بما أدهش الخديو أنه رغم التعليمات الواضحة الصريحة
فقد تنكب بيسر الطريق السوى وسار على سياسة لا تجر إلا
الخراب والدمار على تلك المناطق المفتوحة ، وتخالف ما سبق
إصداره اليه من أوامر لضم تلك البلاد الى حكم مصر بطريق
الترغيب ، وألا يلجأ الى استخدام القوة الا عند الضرورة القصوى
وأن يترك مكافأة تجارة الرقيق لوقت آخر ، بعد أن يستقر الحكم
المصري في البلاد ، وألا تكون تلك التجارة سببا في اعلان الحرب
على السكان بأى حال من الاحوال ^(٢) .

ومن هذا يتضح أن ارسال مصر لهذه البعثة العسكرية لم يكن
الهدف الاساسى منه القضاء على تجارة الرقيق كما يذكر بعض

(١) المصدر السابق .

(2) Amer. Doc. vol. 7 P. 111 Despt. No. 92 R.
Beardsly to Hamelton Fish Cairo, 7 May 1873.

المؤرخين بقدر ما كان لفتح تلك البلاد وتنظيم تجارتها ووسائل النقل فيها وادخال النظم المتحضرة في ادارة شئونها .

ويعلق قنصل أمريكا الجنرال في تقريره لوزير خارجيته - على تصريحات الخديو السابقة ، بأن يبكر لم يراع تلك السياسة التي هدف اليها اسماعيل من وراء ارسال تلك البعثة ، فناصرب الأهالي العداء ، وشن حربا لاهوادة فيها على تجارة الرقيق ، فاضطربت تجارة العاج وریش النعام وهي أهم صادرات تلك البلاد نظراً لارتباطها ارتباطاً وثيقاً بتجارة الرقيق ، فعم السخط وزاد تذمر الأهالي ضد الحكم المصري .

وفي حقيقة الأمر لم يمكن ~~يبكر~~ مخلصاً في خدمته لمصر ولم يكن يهتم مراعاة مصلحتها في تلك الجهات بقدر ما كان يهتم العمل على تقويض نفوذ او احوال النفوذ الانجليزى محله لو استطاع الى ذلك سبيلاً .

وحدث أثناء قيام يبكر بمهمته أن حاصرت بعض القبائل الافريقية الضاربة على ضفاف النيل الأبيض وسدت عليه كل مـسـلك ، وأصبح في مركز حرج ودقيق ، فرأت الحكومة المصرية أن تمد له يد العون ، وأن تبعث اليه بتجدة عسكرية تحت قيادة القائمقام بيردى S. Purdy عن طريق زنجبار لتتفادى بذلك العقبات التي تعترض سيرها في طريق النيل . فأشيع في ذلك الوقت أن قوة الحملة المزمع ارسالها تبلغ خمسة آلاف جندي مسلح . وقد استلقت

ضخامة العدد نظر بيردزلى قنصل أمريكا الجنرال بمصر وساورت نفسه الشكوك من نوايا مصر الحقيقية من وراء ارسال هذا العدد الكبير لنجدة بيكر . وعبر عن هذا القلق فى مقابلته لشريف باشا ناظر الخارجية المصرية فى ديسمبر ١٨٧٢ ، فأشار الى أن حملة بهذا العدد الكبير يصعب النظر اليها على أنها لمعاونة السير سامويل بيكر وليست لأى هدف آخر . فأكد له شريف باشا بأن الحملة المشار اليها لا يزيد عدد أفرادها عن مئة رجل فقط ، وأنها ستتخذ طريق زنجبار لتفادى العقبات التى ستصادفها اذا ما تقدمت بطريق النيل ^(١) .

ويبدو أن هذا التعليل الذى أفضى به ناظر الخارجية المصرية لم يحدد قبولا لدى القنصل الأمريكى الجنرال ، ففى ٥ مارس سنة ١٨٧٣ يبعث بيردزلى برسالة إلى وزير خارجيته هاملتون فيش Hamelton Fish يشير فيها إلى هذه الحملة المزمع ارسالها بقوله . بما أن الطريق المقترح لسير تلك الحملة يمر بزنجبار ، فليس من من اليسير الاعتقاد بأن هدفها نجدة السير سامويل بيكر ، لانه أشيع بوجود تفاهم بين الخديو اسماعيل وسليمان زنجبار لاحتباط بعثة السير بارتل فرير Sir Bartle Frere وأن الحملة القائمة ببيردزلى علاقة بهذا الموضوع ^(٢) .

(1) Amer. Doc. v. 7 Beardsly to hamelton Fish. Cairo Dec. 15, 1878.

(2) Amer. Doc. vol. 7 P. 111 Despt. No. 92 R. Beardsly to Hamelton Fish. Cairo 7 May 1873.

ورغم الضجة الكبيرة التي أثارتها بعثة ساميويل بيكر العسكرية فلم تنجح في مهمتها سوى في إقامة بعض النقاط أو المحطات العسكرية القليلة على طول الطريق الذي سلكته في تقدمها نحو الجنوب مثل محطة التوفيقية (عند ملتقى نهر السوبات بالنيل الأبيض) ومحطة غندوكرو ، ومحطة الابراهيمية ، ومحطة فويرا ، ومحطة ماسنجي . وذلك لتأمين الطريق التجاري بين الخرطوم ومنطقة البحيرات .

ولكن لسوء الحظ فقد فشلت هذه المحطات العسكرية لا في تأمين الطريق فحسب ، بل وفي تأمين سلامتها ضد غضبة الأهالي ، فلم يمض على عودة بيكر من مهمته عام واحد حتى أصبحت تلك الحاميات عاجزة عن مغادرة مواقعها أو الاتصال ببعضها ببعض بسبب عداة القبائل الشديدة لها لما نالها من عسف بيكر وبطشه .

وبهذا تفشل تلك البعثة التي كلفت مصر ما يزيد عن ٨٠٠ ألف جنيه مصري والتي لم تجن مصر من ورائها سوى غضب الأهالي لاستخدام اسماعيل لرجل (نصراني) في مكافحة تجارة الرقيق مما أصاب الدين في الصميم وزلزل قواعده ^(١) . هذا بالإضافة الى المخاوف التي أثارتها تلك البعثة في نفوس الاحباش ، والى زيادة التوتر على الحدود بين مصر والحبشة .

(١) محمد احمد الجابري — في شأن اللهس ٤٦ .

توسع مصر على سواحل البحر الأحمر

كان امتداد النفوذ المصرى على طول الساحل الغربى للبحر الأحمر فى السبعينات من القرن التاسع عشر من أهم الأسباب التى زادت العلاقات المصرية الحبشية سوءاً. بل إن اهتمام مصر بشئون البحر الأحمر قد بدأت منذ أيام محمد على، فقد عملت مصر على تطهير هذا البحر من القراصنة وتأمين سلامة السفن التجارية المارة به، لمحاولة استرجاع ما كان لمصر من مركز تجارى ممتاز قبل كشف طريق رأس الرجاء الصالح.

ومنذ أواخر عام ١٨٦٩ أخذت مصر توجه عناية خاصة للملاحة فى البحر الأحمر توطئة لبسط سيطرتها على سواحلها، وبما يدل على هذا الاهتمام الأمر الذى أصدره الخديو اسماعيل الى ناظر البحرية فى ٢٨ شعبان سنة ١٢٨٦ (ديسمبر سنة ١٨٦٩) اذ يقول: «حيث أن البحر الأحمر فى نظر الحكومة المصرية أكثر اكباراً وأهمية من سائر البحار وأن الوقوف على احواله ومواقعه واكتساب المعلومات للسير والسفر فيه أمر واجب على ضباطنا البحريين. فبناء عليه اقتضت ارادتي أن يعين بعد الآن الناشئين من المدرسة البحرية ليتعلموا على السير والسفر فى البحر المذكور مدة سنتين أو سنة ونصف سنة ليكتسبوا المعلومات اللازمة فى احواله ومواقعه، وأن تتخذ هذه الأصول قاعدة مستمرة ومرعية الاجراء الى ما شاء الله لجميع الناشئين من المدرسة المذكورة»^(١).

(١) امين سامى باشا: توفيق النيل «عصر اسماعيل» المجلد الثانى. الجزء الثالث «لراثة لناظر البحرية فى ٢٨ شعبان ١٢٧٦ - ديسمبر ١٧٦٩».

ضم بوغوص «سنييت»

وتعزيزاً لتلك السياسة عين الخديو اسماعيل في ابريل سنة ١٨٧١ منسنجرحا كالمصوع وأوصاه ببذل الجهود للقضاء على تجارة الرقيق في المناطق المحيطة بها . وقد وجد منسنجرح أن من المتعذر عليه القيام بتلك المهمة طالما كان اقليم بوغوص أو (سنييت) خارجاً عن سلطان الحكومة ، ولذا وطد العزم على الاستيلاء عليه وضمه لممتلكات مصر . فخرج من مصوع في يونيه سنة ١٨٧٢ على رأس قوة حربية ، واستطاع احتلال العاصمة قرن Keren دون مقاومة تذكر . ثم أخذ في انشاء حكومة مستقرة قادرة على حفظ النظام في تلك الجهات .

واستتبع ذلك في فبراير سنة ١٨٧٢ تعيين منسنجرح محافظاً لشرق السودان ، ويشمل اختصاصه سواكن وراحتا (رهيطه) وقرن وكسلا . ثم عمل بعد ذلك على ضم منطقة آيليت . وعندما فتحت مصر لإقليم هرر - كما سيأتي ذكره - أصبحت الحبشة محاطة من جميع الجهات بالممتلكات المصرية ، ولم يكن الموقف بالنسبة للحبشة مما يحتمل السكوت عليه أو التسليم به كأمر واقع . فدخلت في نزاع مع مصر ، وادعت في ذلك الوقت ملكيتها لبوغوص وآيليت وأوسه . وأن مضر باستيلائها على تلك المناطق إنما قد اعتدت على أراض ليست ملكاها وبدأت تشن الغارات المتكررة على الحدود المصرية ، تدفعها في ذلك الرغبة في اختراق هذا النطاق

الحديدي الذي فرض حولها . وسبؤدى استمرار الاحتكاك بين الطرفين الى نشوب الحرب المصرية الحبشية التي سنتعرض لها بعد قليل .

ضم زيلع

وتحقيقا لرغبة مصر في السيطرة على سواحل البحر الاحمر لاحكام الحصار حول تجارة الرقيق ولينسنى لاسماعيل غلق جميع الموانئ في وجه تجار الرقيق أن سعى لدى الباب العالي لضم ميناء زيلع اليه ، وكان تابعا للواء الحديدة في ذلك الوقت . وفي يوليوس سنة ١٨٧٥ وافق السلطان العثماني على ذلك في مقابل مبلغ سنوي تدفعه مصر ويقدر بنحو ١٣٣٦٥ ليرة تركية (١٥٠٠ جنيه مصري) . كذلك بعث الخديو اسماعيل بقوة حربية صغيرة تحت قيادة اللواء البحري رضوان باشا على إحدى المراكب الحربية المصرية إلى ميناء بربره فاستولى عليه ، ثم عين محافظاً له . وقد كتب الضابط الانجليزي وود Wood الى السير هنري إليوت Sir Henry Elliot سفير إنجلترا بالآستانة في ٦ أغسطس سنة ١٨٧٥ يقول : « ان التنازل عن ميناء زيلع والاستيلاء على بربره يجعلان ساحل البحر الاحمر الغربي كله في قبضة مصر (١) » .

كما أرسل قنصل أمريكا الجنرال بمصر بتقرير الى وزارة

(١) دكتور محمد صبرى - مصر في أفريقيا الشرقية ص ١٨ .

الخارجية الأمريكية في ١٧ يولييه سنة ١٨٧٥ يعلق فيه على ضم
زيلع الى ممتلكات مصر بقوله : « تعتبر زيلع آخر موطىء لقدم
الدولة العثمانية في أفريقيا ، وأن امتلاك مصر لهذا الميناء له أهمية
كبرى بالنسبة لها من الناحيتين السياسية والتجارية ، إذ سيصبح
ساحل أفريقيا المطل على البحر الأحمر كله تحت السيطرة المصرية .
وزيلع تقع تجاه عدن تقريباً وتعاد لها في الأهمية وتعتبر الميناء
الوحيد في هذه المنطقة من الساحل ، وتقوم بتبادل السلع والمتاجر
مع الموانئ العربية ، كما أنها تعتبر مخرجاً للأقاليم الواسعة في الداخل ^(١) .

فتح إقليم هرر

ولم تستنف مصر بالسيطرة على ساحل البحر الأحمر الغربي
بأكمله ، بل تطلعت الى ما وراء ذلك : الى الساحل الأفريقي المطل
على خليج عدن وكذلك السواحل الواقعة على المحيط الهندي . وتم
تحقيق هذا المشروع بإرسال حملة عسكرية على رأسها رؤوف باشا
في ١٧ سبتمبر سنة ١٨٧٥ من ميناء زيلع لفتح إقليم هرر ، تتكون
الحملة من خمسة بلوكات بياده و ٢٣٦ جندياً من جنود الباشبوزق
و ٣٠٠ رجل بطاريتين جبليتين ^(٢) .

تمكنت تلك القوة العسكرية اقلية العدد من اخضاع هذا

(1) Amer, Doc. vol. 10 - P. 145 Despt. No. 337
Hamelton Fish to R. Beadesly, 17 July 1875.

(2) Sabry; L'Empire Egyptienne sous Ismail P. 418

الإقليم ودخول عاصمته هرر في ١١ أكتوبر سنة ١٨٧٥ دون عنا
كبير، وكان عدد سكانها يزيد عن ٣٠.٠٠٠ نسمة. كما خضع
لطاعة الحكومة المصرية ٦٢ قبيلة يبلغ تعدادهم حوالى واحد ونصف
مليون نسمة... وكوفي، رؤوف باشا برتبة الفريق وتعيينه حكامداراً
على هرر وتعيين أميرها محافظاً لها^(١). وقد فسر بيردزلى قنصل
أمريكا الجنرال بمصر وقتئذ، استيلاء مصر على إقليم هرر بأنه
ينطوى على تحرش من جانبها بالحبشة^(٢).

تعيين غوردون حكامداراً لديرية خط الاستواء:

وارتبط تعيين غوردون باشا حكامداراً عاماً لديرية خط
الاستواء في عام ١٨٧٤ بمشروع ربط منطقة البحيرات بالخرطوم
شمالاً وبالساحل الصومالى شرقاً، وذلك لفتح تلك المناطق للتجارة
المشروعة مع العالم الخارجى، وإنشاء شبكة من النقاط العسكرية
على طول الطريق تأميناً لسلامة المتاجر المارة بهما. وقد نجح
غوردون في خلال المدة التى أمضاها في حكامداريته (١٨٧٤-١٨٧٦)
في تعزيز النقاط والمحطات العسكرية التى أنشأها بىكر من قبل، وفى
إنشاء محطات أخرى على طول مجرى النيل مثل محطات السوبات

(١) الوقائع المصرية العدد ٦٣١ في ١٦ شوال سنة ١٢٩٢ = ١٤ نوفمبر

سنة ١٨٧٥.

(2) Amer Doc. vol. II despt. No. 378 Beardsly to
Hamelton Fish, Cairo Nov. 26, 1875.

وشمى ونصر ومكاراكه وبور ولا توكا ولادو والريجاف ودوفيله
ولا بوريه وماجنجو ومرولى ودوباجه (عاصمة أوغنده وتقع على
الشاطئ الشمالى لبحيرة فيكتوريا) .

بعثة ميكلوب العسكرية :

هذ فيما يتعلق بالطريق الأول وهو الطريق الشمالى ، أما عن
الطريق الثانى فقد طلب غوردون من الخديو اسماعيل فى يناير سنة
١٨٧٥ أن يأذن له بتنفيذ هذا المشروع . واستقر الرأى على أن
ترسل مصر حملة إلى مصب نهر جوبا (الجب) على أن تتقدم فيه
إلى أقصى حد يمكن للوصول إلى منطقة البحيرات ، وكلف ماكيلوب
باشا القيام بهذه المهمة بمعاونة الضابط الأمريكى شاييه لونج
Chaillé Long . وغادرت الحملة ميناء السويس على رأس قوة
حربية مكونة من أورطة واحدة تمثل الأسلحة الثلاثة ^(١) .

وقد تمكن الخديو اسماعيل أمر الحملة حتى أن شاييه لونج نفسه
لم يكن يعلم بهدفها إلا بعد أن قطع مسافة خمسمائة ميل جنوبى ميناء
السويس . وعندما وصل الضابط الأمريكى إلى بربره قام بتسليم
تعليمات الخديو إلى ماكيلوب فى ١٥ سبتمبر سنة ١٨٧٥ . وفى بضعة
أيام زودت الحملة ببلوكين من الجنود وبعض المدافع وأبحرت فى
اتجاه رأس جوردفوى حيث وصلته فى ٤ أكتوبر ^(٢) من نفس

(١) Chaillé-Long ; L'Egypt et ses provinces perdues P. 116

(٢) المصدر السابق ص ١١٦ .

السنة ، ثم تسلق بعض رجالها قمة المرتفع المطل على الرأس ورفعوا فوقه العلم المصرى إيداناً بوضع تلك المناطق تحت سلطة الحكومة المصرية^(١) . واحتلت الحامية فى طريقها بلدة براوه دون مقاومة فى ٢٥ أكتوبر ، وكان يقوم بحماية تلك البلدة بعض الجنود التابعين لسلطان زنجبار .

وقد حاول رجال الحملة بعد ذلك الصعود فى مجرى نهر جوبا ، ولكن الرياح حالت بينهم وبين بلوغ هذا الهدف ، فارتدوا إلى الجنوب حيث توجد قسمايو (بورت اسماعيل) ووجدوا بها حامية مكونة من ٤٠٠ جندي تابعين للسلطان سعيد برغش سلطان زنجبار . وسكان تلك البلدة يتألفون من حثالة سكان البحر الأحمر ومعظمهم من تجار الرقيق ولهذا كانت قسمايو مركزاً هاماً لهذه التجارة فى شرق أفريقيا^(٢) .

لم تجد الحملة كبير عناء فى الاستيلاء على هذه البلدة دون إراقة دماء حيث وجدوا بها ما يقرب من أربعمائة نفر من الأرقاء على وشك التصدير إلى الخارج فقامت بإطلاق سراحهم ، وإنزال علم زنجبار ورفع العلم المصرى مكانه فى احتفال أقيم بهذه المناسبة .

(١) المصدر السابق ص ١١٧ .

(٢) المصدر السابق ص ١٢٠ .

موقف غردود من الحملة

وقد زودت الحملة بقوة إضافية تبلغ ١٣٠٠ جندي تحت قيادة فرديريجو باشا وقد عسكر ما كيلوب على بعد ١٦ ميلا من قسمايو في انتظار تعليمات الخديو اسماعيل ، لمواصلة التقدم في النهر والوصول إلى منطقة البحيرات ورغم وضع تلك الحملة تحت اشراف غردون من الناحية الرسمية ، فانه لم يقدم لها أى عون حربي أو مادي . ويعزو شاييه لونغ هذا الإهمال أو التجاهل من جانب غردون إلى احتمال وصول تعليمات من قبل الحكومة الانجليزية بهذا الخصوص .

تدخل إنجلترا ونهاية الحملة

وبعد صدور الأوامر للحملة تقدمت نحو ١٥٠ ميلا في نهر جوبا ، وفي خلال ذلك قام الضابط المصري حسن واصف برسم خريطة لهذا النهر^(١) . وعندما وصلت الحملة إلى هذا الحد تلقى ما كيلوب من الخديو اسماعيل أمراً بالانسحاب هذا نصه : «انسحب بقواتك وارجع إلى مصر^(٢) ، دون أن يذكر الأسباب . ويرجع سبب سحب تلك الحملة - بطبيعة الحال - إلى تدخل الحكومة الانجليزية بحجة المحافظة على حقوق سلطان زنجبار توطئة لإعلان

(1) Abbaté ; Le Sudan sous le Règne du Khedive Ismail P. 18.

(2) Chaillé-Long ; L'Egypte et ses provinces Perdues P. 150.

حمايتها على زنجبار وملحقاتها في سنة ١٨٩٠ فانسحبت الحامية من
جوبا في ٥ يناير سنة ١٨٩٦ . وبذلك أخفقت الحملة في تحقيق
أغراضها رغم الجهود التي بذلتها مصر، ولم تكن الحكومة المصرية
من ورائها سوى تدخل بريطانيا وعداوة الحبشة .

وفي حقيقة الأمر فإن سياسة مصر في السيطرة على سواحل
البحر الأحمر أدت الى توجس الحبشة خيفة من تحركات القوات
المصرية الدائمة على طول تلك السواحل . وما ترتب عليه من
الاحاطة احاطة تكاد تكون تامة بالحبشة . وفي نفس الوقت فقد
ازداد اهتمام إنجلترا بالبحر الأحمر وبما يجري على شواطئه منذ
ولاية محمد علي ، فهو بالنسبة لها الطريق الهامة المؤدية الى الهند ،
ولذا فقد بدأت في عام ١٨٣٨ الى الاستيلاء على عدن ، وكذلك
استولت أيضا على جزيرة موسى القرية منها والنايعة للسلطان محمد
والى تاجورة في ١٩ أغسطس سنة ١٨٤٠ ثم ألحقها بجزيرة أرباط
التابعة لحاكم زيلع في ٣ سبتمبر من نفس السنة . فعلت كل هذا
لتأمين سلامة مواصلاتها فيه وللتحكم في مدخله الجنوبي .

على أن هذا الاهتمام من جانب إنجلترا قوبل باهتمام مماثل من
قبل فرنسا وإيطاليا في السنوات التي أعقبت ذلك . فأقدمت فرنسا
على شراء أبوك من شيخ رهبطة في سنة ١٨٦٢ . وحدثت خذوها
إيطاليا بعصب في سنة ١٨٧٠ . بل إن إيطاليا كانت تريد أن تتخذ
من عصب نقطة ارتكاز لمباشرة عملياتها التوسعية لاحتلال الساحل

الصومالى تحت ستار البعوث العلمية التى أرسلت الى تلك المناطق لتحقيق هذا الغرض . فأرسلت الجمعية الجغرافية الملكية الإيطالية Royal Italian Geographical Society المركز انتينورى Marquis Antinori لكشف الطريق بين ميناء زيلع وشوا . ولكن أبا بكر شيخ زيلع لم يعمل على تسهيل مهمة البعثة لأنه كان يشك فى نواياها . ولذا فقد تعرضت للسلب والنهب أثناء اجتيازها لتلك المناطق . وأجريت بعض التحقيقات بشأن هذا الحادث ، واهتمت به الحكومة الإيطالية وكلفت قنصلها الجنرال بمصر المسبوقى مارتينو De Martino بالسفر الى زيلع للمعاونة فى تلك للتحقيقات الجارية بشأن البعثة ^(١) .

وفى نفس الوقت فقد أرسلت الجمعية الجغرافية الملكية الإيطالية أحد رجال الحرب الإيطاليين ويدعى سيللا Seylla على رأس بعثة إيطالية لمعاونة بعثة المركز انتينورى . وطالب قنصل إيطاليا الجنرال بمصر من زميله المستر فيثيان القنصل الجنرال الانجليزى تأييد مساعيه لدى الخديو اسماعيل لبسط مصر حمايتها الفعلية على هذه البعثة ، بعد أن أكد له بصفة قاطعة عدم وجود أهداف سياسية لها ^(٢) . وقد ازدادت أطماع تلك الدول الأوروبية فى ممتلكات مصر الأفريقية وما يحاورها . وعلى وجه الخصوص بعد أن فقدت مصر هيبتها الحرية أمام الحبشة .

(1) F. O. C. Vivian to the Earl of Derby. Political No. 37 Cairo Feb. 15, 1877.

(2) F. O. C. Vivian to the Earl of Derby. "Political No. 62 Cairo March 21, 1877.

الفصل الثالث

النزاع بشأن الحدود

كان للسياسة التوسعية التي سارت عليها مصر كما ذكرنا أثرها في توتر العلاقات بينها وبين الحبشة ، وخصوصا بعد أن تمكنت مصر من ضم ميناء مصوع في عام ١٨٦٥ ، ذلك الميناء الذي تدعى الحبشة ملكيته لأنه يكاد يكون المنفذ الوحيد للحبشة على البحر الأحمر . وازدادت هذه العلاقة سوءا عندما سمحت الحكومة المصرية للحملة الانجائزية على الحبشة من عبور أراضيها في عام ١٨٦٨ وتقديم المساعدة اللازمة لها في نضالها ضد الحبشة . ولهذا أخذ الملك يوحنا الذي خلف تيودورس على عرش الحبشة يشجع الرؤس الموالية له بالهجوم على الحدود المصرية . فقام أحدهم ويدعى ولد مراج بمهاجمة كوفيت التابعة لمديرية الناقة الغربية وأخذ ينهب القرى ويقتل الرجال ويسبي النساء والأطفال^(١) .

وعلى أثر تلك الاعتداءات التي وقعت على القرى السودانية الآمنة بعث الخديو اسماعيل بخطاب إلى الملك يوحنا يطلب منه

(١) المحفوظات التاريخية بالقصر الجمهورى دفتر ٤٣ عابدين صابر . لمرادة ملى راض باشا بالآستانة . وثيقة تركية رقم ٧١ في ١٨ جمادى الآخرة عام ١٢٨٩
• أغسطس عام ١٨٧٢ •

اعادة الأموال والأمتعة التي نهب وإزالة العقاب الراجع بالمعتدين . فلم يكثرث يوحنا بالرد عليه . فاضطرت الحكومة المصرية الى وضع أورطتين من الجنود على الحدود الفاصلة بين مصر والحبشة لصيانة أرواح الأهالي وممتلكاتهم وتأمينا للتجارة من سطو المعتدين ^(١) .

وفي ذلك الوقت ترددت الشائعات القوية في الأوساط الانجليزية بأن مصر تعزم غزو الحبشة ، ووجدت هذه الشائعات طريقها الى مجلس العموم البريطاني ، وانتقلت منه الى الصحافة ^(٢) ، وأحدثت دويا كبيرا لدى الرأي العام الانجليزى . وقد علل قنصل أمريكا الجنرال بمصر المستر بيردزلى فى خطاب بعث به الى وزير خارجيته فى ٣١ أغسطس سنة ١٨٧٢ سبب قيام تلك الضجة بأن إنجلترا ترى فى التحركات المصرية على حدود الحبشة خطرا على سلامتها ^(٣) .

مصر فى امبروك بوغوص

ولما كانت الحكومة المصرية تدرك أهمية ربط ميناء مصوع على البحر الأحمر بالنيل فى تنشيط التجارة وإقرار الأوضاع فى

(١) المصدر السابق .

(٢) المصدر السابق .

(3) Amer. Doc. - vol. 6 - P. 255 Despt. No. 9 R.
Beardsly to Hamelton Fish Cairo 31, Aout 1872.

تلك البلاد ، فقد شرعت في تنفيذ هذا المشروع محاولة تذليل كل العقبات التي تقف في طريقه . وكان لابد لهذا الخط أن يمر بأقليم بوغوص الذي تدعى الحبشة ملكيته . وما أن وصل نبأ هذا المشروع إلى الصحافة الاوربية حتى ثارت وصورت ما اعتزمت مصر القيام به محاولة من قبل مصر لاحتلال الحبشة ^(١) .

وقامت مصر في ذلك الوقت تدافع عن حقها لدى الباب العالي وإثبات ملكيتها لهذا الاقليم منذ أيام محمد علي ، فبعث الخديو اسماعيل إلى منثله بالآستانة في هذا الشأن يقول « لقد جاء في البيور بلدي (كتاب النولية) الذي كتبه حكامدار السودان الأسبق المرحوم احمد ابو ودان المؤرخ في سنة ١٢٥٨ (١٨٤٢) إلى شيخ بني عامر تعداد لجميع هذه الاراضي واحالتها إلى رئاسة الشيخ المذكور . وعلى هذا فتكون تابعياتها للحكومة المصرية ثابتة من جهة الإدارة ومن جهة السجلات ^(٢) » .

ويذكر الخديو اسماعيل في موضع آخر أن تلك الجهات التي كانت تابعة لمصر في عهد محمد علي قد خرجت عن طاعة مصر فترة من الوقت بدعوى الاستقلال عن مصر وعن الحبشة على السواء .

() المحفوظات التاريخية بالقصر الجمهوري دفتر ٢٥ عابدين من الجناح الضيق إلى رياض باشا بأستافة . وثيقة رقم ٢٨٢ في ١٩ جاد ثاني سنة ١٢٨٩ « أغسطس سنة ١٨٧٢ » .

(٢) المصدر السابق .

واسكنها وجدت الأقبل لها على رد عدوان الأحباش فعادت
ثانية إلى الدخول فى طاعة الحكومة المصرية^(١) .

ويؤيد المستر بيردزلى قنصل أمريكيا الجنرال بمصر ملكية
مصر لتلك المنطقة منذ أيام محمد على بقوله : ، إن أقليم بوغوس
أرض مصرية ، وأن استيلاء مصر عليها إنما يؤكد حقا ظل مهملا
طوال فترة حكم سعيد ، حيث انضمت القوات المصرية من تلك
البقاع بسبب تدخل النفوذ الفرنسى لصالح بعض البعثات التبشيرية
الكاثوليكية . كما لم تكن حكومة سعيد باشا على استعداد لنش
حرب داخلية لحماية تلك البعثات^(٢) . ، ويضيف بأنه لا يوجد
لديه من الأسباب الوجيهة التى تدعوه إلى توقع غزو مصر
لأراضى الحبشه^(٣) .

وقد دافعت مصر عن وجهة نظرها دفاعا قويا ، وطالب الخديو
من الباب العالى بأن يوضح هذا الموضوع لسفراء الدول الأوروبية
إذا ما حاولوا التدخل فيه وأن يعمل على تأييد وجهة نظره
و ألا يتركه لمواجهة سفراء الدول الأوروبية وحده^(٤) .

(١) المحفوظات التاريخية بالتصريح الجمهورى دفتر ٢٥ عابدين مذكرة خصوصية
للأب العالى س ١٠٨ وثيقة بدون رقم فى ١٣ ذى القعدة ١٢٨٩ «يناير ١٨٧٣»

(2) Amer. Doc. vol. 7 Despt. No. 46 R. Beardsly to
Hamelton Fish Cairo Dec. 12, 1872.

(٣) المصدر السابق .

(٤) المحفوظات التاريخية بالتصريح الجمهورى دفتر ٢٥ عابدين من الجانب الخديو
إلى رياض باشا بالأستانة . وثيقة رقم ٢٨٢ فى ١٩ جماد ثانى سنة ١٢٨٩
« أغسطس ١٨٧٢ » .

وبعد مضي ثمانية شهور على ارسال كتاب الخديو الى يوحنا ملك الحبشة ، أتى الرد مخيبا لآمال مصر ومتضمنا في شيء من التحدى اعتراف يوحنا بتحريضه على مهاجمة الحدود المصرية وبأنه أوعز إلى ولد مراج باقتحام الحدود المصرية والقيام بأعمال السلب والنهب لتأديب أهالى تلك المنطقة وادعى ايضا بأن أقليم بوغوص من ممتلكات الحبشة وكذلك بعض الموانئ ومنها ميناء زولا الذى وضعت مصر يدها عليه ، وفى ختام كتابه أعلن عن عزمه فى التمسك به وعدم التخلي عنه . وبذل الجهود لاسترداده^(١) .

وقد أوضحت مصر فى ردها على هذا الكتاب أن ما ادعته الحبشة من ملكية تلك المناطق لأساس له من الصحة، واستشهدت فى ذلك بما سبق أن طلبته إنجلترا من الحكومة العثمانية السماح لها بإزالة جنودها بميناء زولا فى الحرب الانجليزية الحبشية . ولو لم تكن الدولة العثمانية تسيطر على تلك البلاد لما طالبت الحكومة الانجليزية بهذا المطلب^(٢) .

وأخيرا رأت مصر بعد أن أعيتها الحيل أن تقابل التحدى بالمثل وأن تنذر الملك يوحنا بضرورة ازالة العقاب بولد مراج على ما افترفه وأن يقدم ترضية حقيقية للحكومة المصرية وأهلئناه

(١) المحفوظات التاريخية بالقصر الجمهورى دفتر ٢٥ عابدين صادر . مذكرة خصوصية للباب العالى ص ١٠٨ وثيقة بدون رقم فى ١٣ ذى القعدة عام ١٢٨٩ « يناير عام ١٨٧٣ » .

(٢) المصدر السابق .

ثلاثة شهور من تاريخ وصول كتابنا اليه . وبيننا له أنه اذا لم يفعل ماطلبناه منه ، فانا قد اصدرنا الأمر للعسكر المرابطين على الحدود بأن يقتحموا عند انتهاء مدة المهلة بلاده ويدخلوها وأن يحتلوا أراضي الخمسين المتصلة ببلاده لتكون رهنا ماديا بأيدينا إلى أن يجيب طلباتنا صيانة لحقوق الدولة والآهالى الصريحة الواجبة الرعاية^(١) .

دعا الحديو اسماعيل منسنجر باشا مدير عموم شرق السودان ومحافظ سواحل البحر الأحمر - وكان يشغل منصب قنصل دولتي إنجلترا وفرنسا بمصوع قبل التحاقه بخدمة الحكومة المصرية - للتشاور معه فيما يجب اتخاذه من اجراءات ازاء مسلك الملك يوحنا . وعما إذا كان من الممكن صيانة حقوق مصر دون الالتجاء إلى استخدام القوة ، وقد بذلت مصر ما أمكنها من جهد للوصول إلى تحقيق هذا الهدف ، حتى لا تضطر مرغمة إلى اللجوء للقوة^(٢) .

تحرير الحبشة على العمرواه

وقد استغل بعض المحيطين بالملك يوحنا فرصة ارسال مصر لبعض الجنود لحماية حدودها الماخمة للحبشة ، وصوروا له هذا العمل بأنه تحرش من قبل مصر وأن المقصد منه ان تمحووا بتلك المحاولة وجود دولة نصرانية باهرة المستقبل من صحيفة

(١) المصدر السابق .

(٢) المصدر السابق .

أفريقيًا^(١) ، ويعلق الخديو اسماعيل في رسالته للسباب العالي على ذلك بقوله « إن نشر هذه الأقاويل والآراء جيف بصور مختلفة في أوروبا حـدا يبعث الدول الفخيمة بأن تعيرها سمع الاهتمام فقامت تتسامل عن صحتها من عدمه^(٢) » .

ومن هؤلاء الرجال الذين تمتعوا بمكانة كبيرة لدى يوحنا ، ومن شجعوه على مناصبة مصر العداء كركمان Kirkman الضابط البريطاني السابق بالحملة الإنجليزية على الحبشة والذي دخل في خدمة الملك ، يوحنا بعد انتهاء تلك الحرب ، وأصبح مستشاراً له وسفيراً من قبله لدى الدول الأوروبية لشرح شكواه وبيان وجهة نظره فيما تقوم به مصر على حدود بلاده ، وتوكيد ادعائه فيما يتعلق بسواحل البحر الأحمر ومقاطعه بوغوص .

وقد مر كركمان بميناء الاسكندرية في طريقه الى إنجلترا وأوضح للمستتر استماتون قنصل إنجلترا الجنرال بمصر بأن الملك يوحنا يعتبر احتلال مصر لاقليم بوغوص غزواً للأراضي الحبشية وبأنه مقتنع من نصرة الدولة الأوروبية له^(٣) .

كذلك أخذ القساوسة الفرنسيون الكاثوليك باقليم بوغوص يحررون ملك الحبشة على العدوان وعلى رأسهم القس دفلو الذي

(١) المصدر السابق .

(٢) المصدر السابق .

وعد يوحنا بمساعدة فرنسا له اذا ماسمح لهم بمزاولة عملهم في التبشير وإقامة الكنائس داخل الاراضى الحبشية ^(١) .

ومن المخرضين على العدوان ايضا قنصل فرنسا بمصوع المسيو سارزيك ، فقد سعى لدى يوحنا لاقناعه بضرورة الاستعداد للحرب مبينا له بأن الحكومة الانجليزية ان تسمح لمصر بالاعتداء عليه .

أثار تعزيز مصر لقواتها الحربية على حدود الحبشة مخاوف الحكومة الانجليزية فبعثت بمذكرة رسمية الى الحكومة المصرية تطلب تفسيراً لتلك التحركات وعن القصد من وراء تلك العمليات . فأجابت الحكومة المصرية على هذا التساؤل بالأدلة والبراهين على أنها لا تنوى امتلاك الحبشة ، ولكن كل ما تهدف اليه هو تقوية الحاميات المصرية تمكيناً لأداء مهمتها في صد كل عدوان يقع على أراضيها ^(٢) .

وكانت الحكومة المصرية الانجليزية تميل الى مساعدة الحبشة لاعتبارات دينية فهي دولة مسيحية وأن الحكومة الانجليزية تتبع سياسة خاصة في العطف على الشعوب المسيحية . خصوصا وأن

(١) المحفوظات التاريخية بالنصر الجمهورى دفتر ٣٣ عابدين - واردة تلغرافات عربى سفرة رقم ٢٧٥ ص ٤٣٩ ملحق ٢ فى ١٧ شعبان سنة ١٢٩٣ .

(٢) المحفوظات التاريخية بالنصر الجمهورى دفتر ٢٥ عابدين صادر مذكرة خصوصية للباب العالى ص ١٠٨ وثيقة بدون رقم فى ١٣ ذى القعدة عام ١٢٨٩ « يناير ١٨٣ » .

الجرائد الاوربية قد صورت النزاع القائم بين مصر والحبشة بصورة الحرب الصليبية الناشئة بين دولتين أحدهما مسلمة معتدية يجب ردها وتأديبها والثانية مسيحية معتدى عليها يجب مساندتها والمحاكمة عليها . هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى فإن الملك يوحنا سبق أن ساعد الحكومة الانجليزية في حربها ضد ثيو دورس ملك الحبشة السابق خلال الحملة الانجليزية الحبشية^(١) . استغلت مصر فرصة انشغال الملك يوحنا في قتال بعض قبائل القالا ، وبعثت بقوة حربية قوامها ١٥٠٠ رجل في سنة ١٨٧٤ تحت قيادة منسنجر لاحتلال اقليم سنهيت أو بوغوص الذي كان تابعا لها من قبل ، تنفيذاً لمشروع ربط ميناء مصروع بخط حديدي مع كسلا على النيل . وقام منسنجر ببناء قلعة حصينة في بلدة قرن عاصمة الاقليم^(٢) . وفي نفس الوقت اشترى مقاطعة آيلت التي تقع بين منطقة الخمسين ومصروع من حاكمها ، فأثار هذا العمل ثائرة يوحنا وأخذ في مهاجمة الحدود المصرية هجمات متكررة .

ورأت مصر في ذلك الوقت الدخول في مفاوضات مع يوحنا لفض النزاع بينهما بالطرق الودية ، وأرسلت الأميرالاي يوسف مسرور لهذا الغرض . ولكن الضابط الانجليزي كركمان الذي كان يقوم بوظيفة المستشار الخاص ليوحنا عمل على إحياء وصول الطرفين إلى اتفاق بالطرق السلمية ، على أمل أن تقوم الدول الأوربية بنصرة الحبشة إذا ما طلب الملك يوحنا تدخلها في الأمر .

(1) Amer Doc. vol. 6 P. 272 Despt. No. 19 R. Beardsly to Charles Hale Oct. 16, 1872.

(2) Bulletin de l'Institut Egyptien. T. V. Année 9111

الانظم للملح

وقد مال يوحنا إلى الصلح اثناء غياب كركمان في رحلته إلى دول أوربا، ولكنه قطع محادثاته فجأة بسبب الأنباء التي وردت إليه من كركمان بأوربا بتوقع تأييد الدول الأوروبية للحبشة في نزاعها مع مصر. وبذلك فشلت المفاوضات وبدأ الملك وأعوانه يشنون الغارات المتعاقبة على حدود مصر لنهب القرى الآمنة وقتل الرجال وسبي النساء والأطفال.

لم تجد الحكومة المصرية بدأ من الالتجاء إلى القوة لصد اغارات الحبشة ووقف الأعمال العدوانية على حدودها. وصمم الخديو اسماعيل على تسير حملة حربية على الحبشة. وقد صور له الملتفون حوله من المتملقين ورجال الحاشية - في كثير من المبالغة - مدى قوة الجنود المصريين، وزعموا له بأن الأورطة المصرية الواحدة توازي في قوتها عشرين الفاً من الاحباش. كما أشاد منسبجر أيضاً بقوته وبمقدرته على غزو الحبشة جميعها بأورطتين مصريتين^(١).

وإذا ما قارنا بين تلك الاقوال النافمة التي أدلى بها رجال الحاشية وبين امكانيات الحملة الانجليزية الحبشية التي اشرنا اليها

(١) المحفوظات التاريخية بالنصر الجمهورى دفتر ٢٥ عابدين مذكرة خاصة من الجناح الخديو إلى الصدر الأعظم رشدى باشا وثيقة رقم ٤٢٠ في ١٢ محرم سنة ١٢٩٠ ١٢٥ مارس سنة ١٨٧٣ «.

من قبل ، لوجدنا أن الحكومة الانجليزية قدرت قوة الحبشة حق قدرها فأعدت جيشا كبيرا قوامه ١٤٦٨٣ جنديا، يتبعهم ١٦٠١٨ من الخدم و٣٦٠٩٣ من دواب النقل و٤٤ فيلا . وبلغت نفقاتها تسعة ملايين من الجنيهات . إذا ما علمنا ذلك أدركنا بسهولة مدى سذاجة هذا القول ، ومدى التضليل الذى دبرته الحاشية بمعاونة منسنجر للزج بمصر فى حرب فاشلة ضد الحبشة . ويذكر الجنرال فون ثورنيزن Von Thurneysseⁿ بأن منسنجر كان متزوجا من امرأة حبشية من اقليم بوغوص ، وبما لا شك فيه أن اولادها دخل كبير فى السياسة التى اتبعها منسنجر اضم تلك البلاد إلى ممتلكات مصر^(١) .

(١) المصدر السابق .

الفصل الرابع

حملة أرندروب

كان لتلك التصريحات الجوفاء التي القيت على مسامع الخديو اسماعيل أثرها في عدم اهتمام المستوئين بأعداد حملة قوية لهذا الغرض، فكل ما أمكن جمعه من الجنود بلغ حوالى ٤٠٠٠ جندى تحت قيادة الاميرالاي أرندروب Arendrupp وكان ضابطا صغيرا في سلاح المدفعية الدنمركية سابقا، ثم خدم ما يقرب الخمس سنوات في هيئة اركان حرب الجيش المصرى. ويذكر الجنرال فون تورنيزان عن أرندروب، بأنه كان ضابطا ممتازا في سلاح المدفعية، ولكن ثقافته نظرية ولم يقوم بتطبيقها بصفة عملية. ولذا فإن من الخطأ الجسيم أن نعتبره مسئولا عن الهزيمة، فهذه الوسائل والامكانيات غير الكافية لا يستطيع أى فرد في العالم أجمع أن يحرز النجاح^(١).

كذلك يعلق الجنرال لورنج - وهو ضابط امريكى عن التحقوا بخدمة الجيش المصرى - على اختيار الاميرالاي أرندروب لهذه الحملة بأنه "لم يسمع طوال حياته طلقات مدافع جيش معاد ولم يسبق له ارتياد مثل تلك المناطق أو التعامل مع أناس بدائيين"^(٢).

فاختياره اذن لقيادة الحملة لم يكن اختيارا موفقا.

(١) المصدر السابق.

(2) Loring; A Confederate Soldier in Egypt P. 188

وزاد في توتر العلاقات بين مصر والحبشة في ذلك الوقت ضم ميناء زيلع الى الممتلكات المصرية في عام ١٨٧٥ ، ذلك الميناء الذي اتخذته العرب والأتراك من قبل قاعدة للهجوم على الحبشة قرونا طويلة دون أن يتمكنوا من الاستيلاء عليها^(١) .

وازاء احتلال مصر لاقليم بوغوص ، قام يوحنا بتعيين الضابط الانجليزى كركان حاكما مستقلا استقلالا ذاتيا في حكم اقليم جندا Ginda المناخم لاقليم بوغوص بعد رفع العلم الانجليزى عليه^(٢) . وربما قصد يوحنا من وراء ذلك أن يستميل الحكومة الانجليزية للوقوف الى جانبه ولحماية كركان والدفاع عنه اذا ما حاولت القوات المصرية الهجوم عليه أو التعرض له .

تكوين الحملة

أبحرت الحملة من ميناء السويس ونزلت في مصوع في نهاية أغسطس سنة ١٨٧٥ وكانت تتكون من ١٦ بلوكا تحت قيادة ارندروب بك ، وصحب الحملة اراكيل بك محافظ مصوع وكانت تربطه صلة قوية بارندروب . والكونت زيشى Zichy شقيق وزير النمسا المفوض بالآستانه ، وقد صحب الحملة كمتطوع . والبكباشى دورهلز Durholz وهو سويسرى الجنسية وخدم في الجيش البابوى ، ثم عمل سكرتير أعاما للجنرال استون رئيس هيئة أركان حرب الجيش

(1) Crabtès, Américains in the Egyptian Army P.188

(٢) المصدر السابق .

المصرية عدة سنوات ، والبكباشى دينسون Dennison وهو من الضباط الأمريكيين الذين التحقوا بخدمة الحكومة المصرية ، والبكباشى عمر رشدى وهو تركى الأصل وشغل وظيفة أركان حرب أندروب ، والقائمقام رستم ناجى بك فى وظيفة قائمقام القوات المصرية . كما صدرت الأوامر إلى علاء الدين (وكان يرأس بعض القوات الغير نظامية بمنطقة سنهت وأميديب) بتقديم المعونة اللازمة للحملة ^(١) .

كذلك أرسلت الحكومة المصرية أوطرطة عسكرية بصحبة ماكيلوب باشا رئيس عموم الليمانات والفنارات المصرية للاقامة بسوا كن لحماية السواجل المصرية ولتقديم المعونة اللازمة للحملة ^(٢) . وقد نصت التعليمات الصادرة اليه بالبقاء فى سوا كن وعدم مغادرتها إلا فى حالة اعتداء القوات الحبشية على الحدود المصرية فيجب عليه فى هذه الحالة التوجه مباشرة الى سنهت .

وكانت القوات الموجودة بمصوع وأميديب تكون الجناحين لقوة سنهت التى تشتمل على ١١ بلوكا وأربعة مدافع جبلية ومترلو زين ، أى أن قواتها تقترب من ١٢٠٠ مقاتل أما أميديب فيقيم بها علاء الدين بك وقواته البالغة سبعة بلوكات مزودين

(١) Douin ; Hist. du Règne du Khedive Ismail. T.

III 3e partie Fasc. P. 725.

(٢) المحفوظات التاريخية بالقصر الجمهورى . دفتر ٢ « أوامر عرية » أمر كريم إلى منسجر باشا . وثيقة رقم ١٠ ص ٢٧ فى ١٠ رجب سنة ١٢٩٢ « أغسطس سنة ١٨٧٥ » .

بينادق رمنتون ومدفع جلي ومترابوزين ، وما يقرب من ٢٠٠ من الخيالة الباشبوزق والعربان ، أى أن قواته جمعها تتراوح بين ٧٠٠ و ٨٠٠ مقاتل . وفى مصوع تعسكر خمسة بلوكات طوبجية وباشبوزق و ٢٠٠ من خيالة رجب أغا وخير الدين أغا^(١) .

وبوصول منسنجر لسنهيت علم أن يوحنا يقوم بعمل التحصينات اللازمة بعدوة استعدادا لملاقاة القوات المصرية . كما علم أيضا أن في منتصف الطريق بين عدوة والحماسين قد تجمع ثلاثة من رؤوس المقاطعات الحبشية بقواتهم للتشاور فى الحرب . وأن (دجاج قبر) حاكم الحماسين قد ركز قواته بمكان يطلق عليه اسم (سعدزقا) وهو على مسيرة ١٥ ساعة من سنهيت^(٢) . وكانت الاوامر التى تلقاها منسنجر من الخديو تقضى بعدم الذهاب الى اقليم تجره وأن يظل فى مكانه لمباشرة شئون الحملة . وقد عززت الحملة بقوات جديدة ، فبعث الخديو بأورطة جديدة تحت إشراف جمالى باشا لوضعها فى الأماكن المناسبة لحماية الحدود المصرية . وفى نفس الوقت أرسل الخديو إلى ملك الحبشة كتاباً يحذره فيه من اعتدائه المتكررة على الحدود .

(١) المحفوظات التاريخية بالنصر الجمهورى . دفتر ٣٢ عابدين (واردتلفرافات) من منسنجر باشا بسنهيت إلى خيرى باشا تلغراف عربى الشفرة رقم ٢٥١ فى ١٦ رجب سنة ١٢٩٢ « أغسطس سنة ١٨٧٥ » .

(٢) المحفوظات التاريخية بالنصر الجمهورى . دفتر ٣٢ (واردتلفرافات) من مدير عموم شرق السودان بسنهيت إلى خيرى باشا . تلغراف عربى الشفرة رقم ٢٠٤ ص ٣٦ فى ١٢ رجب سنة ١٢٩٢ « أغسطس ١٨٧٥ » .

وقد أوضح الخديو اسماعيل لمنسجر أنه إذا لزم الأمر القيام بعمليات حرية ، عليه أن يتشاور في هذا الشأن مع ماكيلوب . ويجب ألا يغرب عن ذهنه أن مصر لا تهدف من وراء دخول الحبشة إلا لإقرار الأوضاع على الحدود المصرية ولا يقصد به احتلال الأراضي الحبشية بأي حال من الأحوال ^(١) .

وفي أواخر أغسطس سنة ١٨٧٥ أصدر الخديو أمرا لمنسجر بتوزيع أورطى ماكيلوب وجمالى باشا على الحدود للمحافظة عليها ، ثم القيام بمأموريته التى كلف بها فى منطقة تجره (تاجورة) بعد التأكد قبل قيامه من أن الاحباش لا ينوون مهاجمة الحدود المصرية فى فترة غيابه ^(٢) .

ولكن منسجر أبقى الأورطتين السابقتين فى مصوع كاحتياطى للحملة ولم يقم بتوزيعهما على سنهيت وأميديب لعدة أسباب . أولا - صعوبة ترحيل هذه القوات إلى مراكزها الجديدة مع عدم وضوح الفائدة من هذا التوزيع .

ثانيا - أن مناخ مصوع أكثر ملاءمة لصحة الجنود من أميديب التى تنفشى فيها الحمى .

(١) المحفوظات التاريخية بالقصر الجمهورى . دفتر ٢٣ عابدين (صادر تاغرافات) من خيرى باشا إلى منسجر باشا . صورة التاغراف العربى بالشفرة رقم ٥٢٧ فى ١٨ رجب ١٢٩٢ « أغسطس ١٨٨٥ » .

(٢) المحفوظات التاريخية بالقصر الجمهورى . دفتر ٢ (أوامر عربية) أمر كريم لى مدير شرق السودان . وثيقه رقم ١١ ص ١٠٠ فى ٢٥ رجب سنة ١٢٩٢ « أواخر أغسطس سنة ١٨٧٥ » .

ثالثا - شدة البرودة في سنهيت فوق ما يحتمله الجنود .

رابعا - أنه في حالة مهاجمة العدو للحدود المصرية فستكون المسافة من مصروع إلى عدوة أقرب وأيسر من المسافة بين سنهيت وعدوة .

وقد تركز الدفاع عن الحدود المصرية في خطين اناسيين : أحدهما يمتد من سنهيت إلى القلابات ويضم نقط سنهيت وأميديب والقلابات . والخط الثاني يمتد من سنهيت إلى الحماسين ، وليس به سوى نقطة مصروع القريبة من الحماسين .^(١)

وقد حرص الخديو اسماعيل في ذلك الوقت وقد شعر بضعف مركزه السياسى أن يوضح لمسنجر مرة أخرى في أوائل سبتمبر سنة ١٨٧٥ بما لا يدع مجالا للشك أنه لا يهدف من وراء تلك الحملة الدخول في حرب مع الحبشة ، لأن الوقت غير مناسب وذلك للظروف السياسية ،^(٢) . وإنما قصد من وضعها في منطقة الحماسين أرغام الملك يوحنا على تقديم الضمانات الكافية لعدم تكرار الاعتداء على الحدود المصرية مرة أخرى وإذا ما رفض يوحنا التسليم بذلك فعليه مواصلة احتلاله لهذا الأقليم .

(١) المحفوظات التاريخية بالقصر الجمهورى . دفتر ٢٣ عابدين (وارد تلغراف) من مسنجر الى خيرى باشا . صورة التلغراف العربى لشفرة رقم ٣١ ص ٦ في ١٠ شعبان سنة ١٢٠٢ « سبتمبر سنة ١٨٧٥ » .

(٢) المحفوظات التاريخية بالقصر الجمهورى . دفتر رقم ٢٤ عابدين (صادر تلغرافات) ارادة سنيه الى مسنجر ، صورة التلغراف العربى الشفرة رقم ٧٠ في ٥ شعبان سنة ١٢٩٢ « سبتمبر سنة ١٨٧٥ » .

ونظراً لقيام منسجر بمهمة أخرى في منطقة تجره (تاجورة) أسندت قيادة الجنود المصرية المقيمة بسنيت، وكذلك الجنود المرابطة بمصوع إلى الأميرالاي أرندروب بك^(١).

خط سير الحملة (أنظر خريطة رقم ١)

تقدمت القوات المصرية من مصوع تحت قيادة أرندروب في اتجاه عدوة، فوصلت جنسدا في ١٤ أكتوبر سنة ١٨٧٥. وكانت مقدمة الحملة المصرية تتكون من ستة بلوكات وثلاثة مدافع وصاروخين تحت قيادة الكونت زيشى (وهو ضابط قديم في سلاح الفرسان بالجيش النمساوى، وحضر حرب سنة ١٨٥٩، وسنة ١٨٦٦)، واشترك في هذه الحملة كهاوٍ للوقوف على أحوال الحبشة)، قد واصلت زحفها داخل الأراضي الحبشية وعسكرت بالقرب من بلدة جوندت (جندت) في ٣ نوفمبر سنة ١٨٧٥ وهي على مسيرة ساعة من قرية مارب.

وأقام الحكمدار العام أرندروب والمحافظ أراكيل بك ببلدة عدخوله وبرفقتهم ١١ بلوكا و ٦ مدافع وصاروخين تحت رئاسة الحكمدار والقائمقام من ٥ نوفمبر سنة ١٨٧٥. وتقع عدخوله على

(١) المحفوظات التاريخية بالقصر الجمهوري، دفتر ١٠ معيه عربى، أمر كريم الى علاء الدين بك وكيل محافظ سواحل البحر الأحمر وشرق السودان، صورة الأمر الكريم رقم ٤٢ ص ٤ في ١٧ شعبان سنة ١٢٩٢.

على بعد ساعتين ونصف من معسكر جوندت^(١) . وعسكر البكباشى على رائف ومعه خمسة بلوكات ومدفعين بموقع قياخور وهو يبعد نحو ثمانية كيلومترات تقريباً من عدخوله Addi Huala .

ومن جندا أمر أرندروب الضابط دورلنز بالذهاب إلى أسمره على رأس قوة من أربعة بلوكات . ثم تبعه أرندروب بأربعة آخر وبطارية مدفعية وأربعة صواريخ . وكان الطريق شاقاً بين جندا وأسمره فقطعه الجنود فيما يزيد عن ١٤ ساعة . وبذلك وصلوا إلى أسمره في ١٦ أكتوبر سنة ١٨٧٥^(٢) .

ثم واصل سيره ثلاثة أيام متوالية حتى حفيت أقدام الجنود من جراء ارتقاء المرتفعات الوعرة . كما كانت البرودة شديدة وقاسية فوق تلك المرتفعات ، فى نفس الوقت الذى لم يكن لدى الجنود ما يستطيعون به مقاومة هذا البرد القارس^(٣) . وانضم إلى أرندروب حاكم الخماسين - وكان قد سبق أن طلب حماية مصر له

(١) المحفوظات التاريخية بالقصر الجمهورى دفتر ٣٤ عابدين (واردات تلغرافات) تقرير مقدم من عمر رشدى بكباشى أركان حرب بخصوص الواقعة التى حصلت للعسكر المصرية بمجهة جوندت التى كان فيها مقدمة الجيش وعلى بعد ساعة ونصف ساعة من المارب . تلغراف عربى رقم ٢٢٥ فى ٢٧ شوال سنة ١٢٩٢ « نوفمبر سنة ١٨٧٥ » .

(2) Douin ; Hist. du Règne T. III 3e partie Fasc. B, P. 758

(٢) المصدر السابق .

من اعتداء جيرانه عليه^(١) - وكذلك ستة بلوكات سودانية تحت قيادة البكباشى فرح أفندى .

بقى دورهلز فى اسمره ومعه بطاريتين وصاروخ حربى وأخذ يعمل فى تحصين الموقع لتغطية الشجرة المؤدية الى مادى وجندا حيث يقيم كومندان الأورطة الأولى على أفندى رفعت مع بلوكين ومدفعين لمراقبة الطرق التى تسلكها الامدادات الآتية من مصوع .

لم تلق القوات المصرية أية مقاومة أثناء توغلها فى الأراضى الحبشية ، وذلك طبقا لخطة الأحباش فى استدراج عدوهم داخل البلادكى تطول طرق مواصلاته وتبعد مراكز تموينه . وفى نفس الوقت الذى ينال منه التعب والاضطراب الشئ الكثير ، نتيجة السير فى مناطق جبلية وعرة تكتنفها الهضاب والوهاد ، يطبقون عليه بكل ماأوتوا من قوة ، ويجهزون عليه فى معركة خاطفة لا تستغرق أكثر من ساعات .

والى جانب هذه الخطة التقليدية التى سار عليها الأحباش فى حروبهم ، فهناك سبب آخر أدى الى تأخر الملك يوحنا فى مهاجمة المصريين ، وهو المنافسة الشديدة وعدم الثقة المتبادلة بين يوحنا وحكام الاقاليم الحبشية فى ذلك الوقت .

(١) المحفوظات التاريخية بالنصر الجمهورى ؛ محفظة ٤٢ « معيه تركى » من رجزامات حيلو حاكم الحاسين الى الجناب العالم . وثيقة عربية رقم ٢٦٧ بتاريخ ١٧ رجب سنة ١٢٨٤ « نوفمبر سنة ١٨٦٧ » .

وقد وقفت الحكومة الفرنسية من مصر موقفاً غير ودى في تلك الفترة، فقامت بإمداد الملك يوحنا بكية من الاسلحة الفرنسية على سبيل الهدية . والأدهى من هذا أن هذه الأسلحة أرسلت الى الحبشة عن طريق ميناء مصوع، وعندما احتجزتها السلطات المصرية بالميناء، قامت بشأنها أزمة سياسية بين البلدين ، ونجح نائب القنصل الفرنسى بمصوع المسيو ساوزك Sarzac من نقلها إلى الحبشة عبر الخطوط المصرية^(١) . وكان هذا الموقف من قبل فرنسا فيه تحدٍ سافر لمصر وتحيز واضح للحبشة . وربما يرجع ذلك إلى غضب فرنسا من الخديو اسماعيل لبيع أسهم قناة السويس لـ إنجلترا ولميله الظاهر إلى كسب ود إنجلترا وعطفها عليه ، ولإبتعاده عن فرنسا بعد أن خيبت آماله في الاعتماد على معونتها في مسألة كريت ، وفي تأييدها لموقفه من الباب العالي حينما توترت العلاقات بينهما في عامى ١٨٦٩ - ١٨٧٠ .

وكما تقدمت القوات المصرية تحت قيادة أرندروب، كلما انسحبت القوات الحبشية إلى الداخل . وفي أول نوفمبر ١٨٧٥ اتجه أرندروب نحو جودوفلاسى Goudofelassi حيث مكث بها بضعة أيام لنفاد المؤن وانتظاراً لوصول بقية القوات المصرية الزاحفة . وقد عانت الجنود مشقة كبيرة في السير في أراض وعرة مع تناول قليل من الطعام لايسمن ولا يغنى من جوع .

وفي ٣ نوفمبر وصلت المؤن مع القومندان عمر رشدى ، وكان

(1) Dye ; Moslem Egypt, P. 134.

يرافقه إثنان من الصحفيين الانجليز أحدهما عن جريدة استاندارد
والآخر عن الديلي تلغراف . ويذكر الجنرال داى Dye (من
الضباط الأمريكين الذين يعملون فى هيئة أركان حرب الجيش
المصرى) فى شىء من المراحة والشك ، أن هذين الصحفيين قد نجحا
فى اختراق الصفوف المصرية والوصول فجأة إلى خطوط العدو (١) .

وقد وجد أرنديروب أن طريق (أسمره - مادت - جندا) وعرا
بالنسبة لسيير القوافل ، ولذا صدرت الأوامر إلى حاميتى مادت
وجندا ، وتتكون من خمسة بلوكات ومدفعين بالاقامة فى قياخور ،
بينما ألحقت حامية أسمره بالقوات الزاحفة على عدوة . واتخذت
قوافل الإمدادات فى سيرها طريق مصوع لأنه سهل من الناحية
العملية عن الطريق الآخر .

ونظرا لموقع قياخور المتوسط بين مصوع وقيادة الجيش
المصرى ، وضعت فيه أربعة بلوكات ومدفعان . كما صدرت الأوامر
إلى دورهز بالذهاب إلى اكلوغزاي Akuleh Goussai ورفقته
بلوكين وصاروخين .

وفى ٢٣ أكتوبر سنة ١٨٧٥ أعلن يوحنا الحرب على مصر ،
فأخذ يجوب طرقات عدوة تحف به كبار الشخصيات الحبشية
لخص الأهل على حمل السلاح . وفى ٣ نوفمبر خرج الكونت
زيسى على رأس سرية مكونة من بلوكين وصاروخ واحد

لاستطلاع منطقة عدخوله وجندت. وبعد عودته أخبر أرندروب بأن قوات يوحنا قد جاوزت قرية مارب ، فزوده أرندروب ببلوكين من الجنود السودانيين و ٣٠ فارسا من قبيلة بنى عامر و ٦٠ فارسا تحت قيادة حامد بك . وبذلك استطاع الكونت زيشى الذى تمثل قواته مقدمة الجيش المصرى من إعداد ستة بلوكات ومدفعين و صاورخين و ٣٠ فارسا .

غادر أرندروب جودوفلاسى فى ٦ نوفمبر متجها نحو عدخوله بعد أن ترك فى الموقع الاول ثلاثة بلوكات لحمايته . وفى نفس اليوم وصل الكونت زيشى بالقرب من جندت على مسيرة ساعتين من عدخوله . وتقع جندت على حافة منطقية جبلية تتوسطها عدوة . وقد ظن أرندروب أن اندفاعه بسرعة داخل الاراضى الجبلية سيوقع يوحنا فى ارتباك شديد ، بل ربما أخذه على غرة دون إستعداد سابق .

وفى جندت تلقى أرندروب رفض يوحنا طلب الدخول فى مفاوضات لتسوية المسائل المعلقة بين البلدين . فعاود أرندروب الكرة وأرسل من قبله النائب محمد عبدالرحيم ليعرض على يوحنا مرة ثانية لإرسال مندوبين من لدنه للتفاوض فيما يودى إلى إقرار السلم .

تخرج موقف القوات الزاحفة

وفي نفس الوقت رأى اراكيل بك محافظ مصروع أن يستغل الفرصة للإستفادة من التنافس بين الرؤساء والمملك يوحنا ، وخصوصا التنافس بين ولد دنكل والمملك .

أصبح موقف القوات المصرية الزاحفة حرجا بعد هذا التقدم السريع ، فقد احتلت في مدة قصيرة ثلاث مقاطعات حبشية دون أن تلقى أية مقاومة . وقد أغرت هذه الخطة ارندروب على التقدم دون أن يكون لديه العدد الكافي لمواجهة قوات يوحنا في عقرداره ، ومن غير أن يحسب حسابا لعاقبة هذا التهور . وكلما أوغل ارندروب في الزحف كلما زاد موقفه حرجا ، وقلت قواته الحربية نظرا لترك بعضها على طول الطريق ، ليؤمن خطوط مواصلاته وليحول بين العدو وقطع خط الرجعة عليه .

ويبدو أن ارندروب كان يريد بهذا الزحف أن يبرر موقفه أمام الخديو إسماعيل ، فيوحنا قد رفض الدخول في مفاوضات مع مصر ، وحل مشكلة الحدود بينهما بالطرق الودية . فلم يكن أمام ارندروب إذن إلا طريق القوة .

وكلما زاد إصرار يوحنا على الرفض زاد توغل ارندروب داخل الأراضي الحبشية بزعم أن هذه هي الوسيلة الوحيدة لإرغام يوحنا على التراجع عن موقفه . ولكن هذا التقدم يؤدي من ناحية أخرى إلى حرج موقف القوات المصرية ، فقد أصبحت في

موقف لا يسمح لها بالانسحاب لما يترتب عليه من انضمام رؤوس
الاحباش المترددين إلى جانب يوحنا . وبذلك تتمكن القوات
الحبشية من سحق القوات المصرية المتقهقرة والقضاء عليها .

وقد أحس أرندروب بغلظته بعد فوات الأوان ، فبعث برسالة
مطولة إلى الخديو إسماعيل يشرح له الموقف ويستجد به لاسعافه
بمدد عسكري . فأوضح له الخديو في رده ، أن أمامه أمرين
لا ثالث لهما ، وهما : إما دخول عدوة ، أو الاعتصام بمكان حصين
مع تأمين طرق مواصلاته مع مصوع إلى أن يبعث إليه بأربع
أورط مصرية وبطارية مدفعية وبلوك سوارى وبلوك لغمجية
لتعزيز قواته . ولذا كانت مهمة أرندروب بعد وصوله هذا الرد ،
العمل بقدر المستطاع على إطالة الوقت وتجنب الدخول في حرب
بأى حال من الأحوال ، ومعاودة الدخول في مفاوضات من
جديد ريثما يتحسن مركزه بوصول القوات المصرية الجديدة .

كما حاول الخديو إسماعيل مساعدة الحملة عن طريق إستغلال
النزاع الداخلى فى الحبشة لمصلحة مصر . فبما أن القوات المصرية
الزاحفة غير كافية للدخول فى حرب ناحجة مع الحبشة ولن تستطيع
بأى حال من الأحوال الانتصار على قوات عن طريق الحرب ،
فلابد إذن من الالتجاء إلى سلاح الفتنة وتدمير المؤامرات
والدسائس للوقية بين الملك يوحنا ورؤوسه المنافسين له . ولهذا
يأمر الخديو إسماعيل أرندروب فى ١٨ نوفمبر سنة ١٨٧٥ أنه فى

حالة فشل المفاوضات مع الملك يوحنا، عليه أن يستغل التنافس والاحقاد الكامنة بين بعض الرؤوس والملك للوصول إلى ماتصبو إليه مصر . ونصحه بتشجيع هؤلاء الرؤوس بمختلف الطرق وأن يعدهم بمساعدة مصر وحمايتهم من أى إعتداء .^(١)

ويرجع فشل المفاوضات وإصرار يوحنا على القتال إلى تحريض المسيو سارزك نائب القنصل الفرنسى بمصوع الذى اشرفنا إليه من قبل ، وإلى التقليل من شأن القوات المصرية الزاحفة من حيث القوة والعدد .^(٢) هذا بالإضافة إلى مرافقته ليوحنا لتقديم النصح والمشورة حتى إنتهاء المعركة^(٣).

وفى ٢ نوفمبر أعلن بطريك الحبشة الحرب على مصر ليصنع الحرب بالصغبة الدينية ، فخرج على أثر ذلك الملك يوحنا تحف به قواته الحربية التى قدرت بما يقرب من سبعين ألف مقاتل لملاقاة جيش مصر^(٤) . وفى ١٤ نوفمبر عبرت قواته الأماميه نهر مارب وأشرفت على حافة الأخدود الذى تعسكر على مقربة منه مقدمة القوات المصرية المحاربة تحت قيادة زيشى .

وحدث فى ذلك الوقت أن ذهب أحد عشر رجلا من

(1) Douin ; Histoire du règne T 3 — 3er partie
Fasc. B. P. 772.

(2) Ibid P. 769.

(3) Dye ; Moslem Egypt. - P. 134.

(4) Douin ; Histoire du règne T. 3 P. 772.

الاحباش للسقاية من ماء الاخدود فنتعهم القوات المصرية وأطلقت عليهم النيران ، فقتل عشر رجال وفر واحد إلى معسكره ^(١) . وفي ١٥ نوفمبر بعث الكونت زيشي إلى أرندروب نبأاً اعتزام يوحنا مهاجمة جندت وعدخوله في وقت واحد .

قسم يوحنا قواته إلى ثلاثة أقسام : الأول لمهاجمة جندت من الأمام ، والثاني لمهاجمة عدخوله من الشرق متخذاً طريق عدى جورى ، بينما يرتقى القسم الثالث الهضبة عن طريق بلدة سعد ييلادى ويعسكر على مسيرة ساعة ونصف ساعة إلى الجنوب الغربى لعدخوله ^(٢) .

وبوصول نبأ زحف يوحنا إلى القيادة المصرية ، فضل أرندروب التقدم نحو جندت لملاقاة العدو هناك وعدم انتظاره في عدخوله ، رغم معارضة البكباشى دنيسون وهو من الضباط الأكفاء لهذه الفكرة ، بعد أن بين لأرندروب خطورة الدخول في قتال مع العدو في منطقة محاطة بالمرتفعات من كل جانب ، وتمكنه من السيطرة سيطرة تامة على ميدان المعركة . هذا من جهة ومن جهة

(١) المحفوظات التاريخية بالقصر الجمهورى ، محفظة ١/٥ « أوراق تتعلق بيلاد الحبشة » تقرير من الدعو حسن تايغ أراكيل بك . وثيقة رقم ١/١٥ (ى) فى ٢٤ شوال سنة ١٢٩٢ « نوفمبر سنة ١٨٧٥ » .

(٢) المحفوظات التاريخية بالقصر الجمهورى دفتر ٣٤ عابدين (وارد تليفرافات) تقرير مقدم من عمر رشدى بكباشى أركان حرب — بخصوص الواقعة التى حصلت للعساكر المصرية بجهة جندت . صورة التليفراف العربى رقم ٢٢٥ فى ٢٧ شوال سنة ١٢٩٢ « نوفمبر سنة ١٨٧٥ » .

أخرى نخروج القوات المصرية من استحكاماتها للملاقاة العدو في
الغراء سيضعها وجهها لوجه أمام قوات تفوقها عددا وقوة، ويعرضها
لأخطار الضربات . ومع هذا كله أصر أن ندروب على رأيه ورفض
انتظار الأحباش في موقع عدخوله الحصين ^(١) .

وبناء على تلك الخطة أمر أن ندروب البكباشى دندسون بالتوجه
إلى قرية سعد بيلادى في نصف أورطة لحراسة الممر المؤدى إليها .
كما كلف البكباشى عمر رشدى بمرافقة النصف الآخر من الأورطة
والذهاب إلى قرية عدى جورى لحراسة الممر الآخر المؤدى إلى
مدخل الحصنة شرقى عدخوله ^(٢) . ثم ترك أن ندروب عدخوله في
حراسة القائم مقام رستم ناجى بك ورحل في ١٥ نوفمبر وبرفقته أربعة
بلوكات ومدفعين جبليين للحاق بالكونت زيشى في وادى مارب .
وفي نفس الوقت بعث بى رقية إلى القاهرة يتعجل فيها إرسال الجنود
اللازمين وذلك لخطورة الموقف .

(1) Loring; A confederate Soldier in Egypt P. 302-303

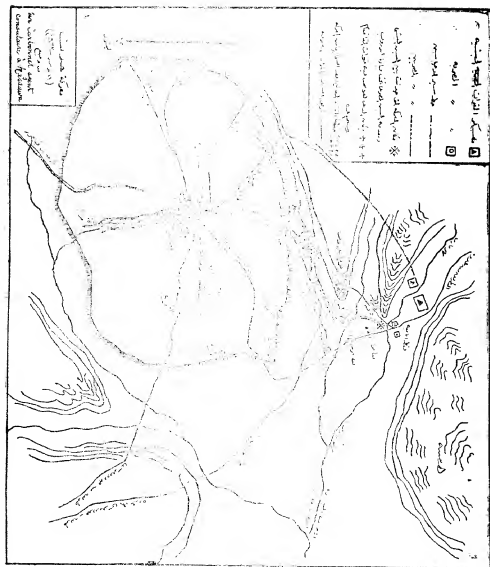
(٢) المصدر السابق .

الفصل الخامس

معركة جندت

أمدّ أرندروب الكونت زيشى قائد القوات الأمامية بأربعة بلوكات وقطعتين من المدفعية علاوة على الأربعة بلوكات التي لديه. وفي مساء ١٥/١٦ نوفمبر عبر الأحباش بقواتهم نهر مارب وهاجموا نقط الحراسة المصرية الأمامية واشتبكوا معها في قتال. وفي نفس الوقت أرسل أرندروب الى رستم ناجى بك بموقع عندخوله يستحثه على الإسراع بالحضور الى جندت ومعه خمسة بلوكات ومدفعين جبليين وصاروخين. ثم تقدم هو (أرندروب) للحاق بقوات الكونت زيشى الأمامية على أمل أن يساغت قوات العدو (أنظر خريطة رقم ٢).

وفي تقدمه الى الامام وقع في خطأ آخر، إذ اتخذ طريقه وسط الأدغال التي حجبت عن ناظريه رؤية العدو، بحيث وجد نفسه في نهايتها وجها لوجه أمام القوات الحبشية الرئيسية. لم يكن لديه وقت للتفكير أو الإعداد فالموقف جد خطير، ويتطلب العمل السريع الحازم، ولكن حرج الموقف دفعه الى تقسيم قواته القليلة العدد الى قسمين؛ الأول ويتكون من أربعة بلوكات وينتشر في أرجاء المكان. والثاني يتكون من أربعة آخر وتقوم بحركة النفاف



شکل (۲)

حوله للدفاع عنه . وقد عاقت طبيعة أرض المعركة القوات المصرية من أن تقاتل على هيئة مربع للدفاع عن نفسها ، أو أن تستخدم أسلحتها الحديثة المتفوقة في القوة استخداما صحيحا . وبينما كانت مواقع المصريين مكشوفة كان العدو يتخذ من جزوع الاشجار ^(١) وفروعها ستارا ينجي خلفه ويصلي قواتنا نارا حامية . وماهى إلا لحظات حتى أحاطت القوات الحبشية المقاتلة بالقوات المصرية كالسيل الجارف وسحقته في فترة قصيرة .

ويذكر الجنرال فون تورنيزن Von Thurnyssen أن القتال لم يدم فترة طويلة . وقد تمكنت القوات المصرية بفضل بنادق رمتون السريعة الطلقات أن تضغط على قوات العدو وأن تصد هجومهم في أول الأمر . ولكن إزدياد قوة الاحباش زيادة مطردة مكنتها من الإحاطة بالقوة المصرية . وعندما بدأت هذه القوة في التقهقر بدون نظام ، هاجمها الاحباش بالأسلحة البيضاء فحدثت مذبحة رهبة . ^(٢)

حارب أرندروب بكل شجاعة حتى آخر طلقة في مسدسه ، ثم إستل بعدها سيفه وظل يحارب حتى خر صريعا . وهذه النتيجة السيئة تنتهى المعركة ويسقط في ميدان القتال من المصريين ما يقرب

(١) المحفوظات التاريخية بالقصر الجمهورى محفظة ١/٥ أوراق تتعلق بحوادث بلاد الحبشة (تقرير من المدعو حسن تابع أراكيل بك عما شاهده في واقعة الخمسين) وثيقة ١/١/٥ (ى) في ٢٤ شوال ١٢٩٢ « نوفمبر ١٨٧٥ » .

(2) Bulletin d'Institut Egyptien "L'Expedition de l'Egypte contre l'Abyssinie" par Thurneyssen.

من ثمانمائة قتيل^(١) بينما لم تخسر القوات الحبشية سوى واحد وثلاثين قتيلا وخمسة وخمسين جريحاً^(٢). وهذا مادعا سارزاك نائب القنصل الفرنسى بمصوع الى التعجب والى التساؤل عن كيفية اندحار قوة تتكون من ألف رجل مسلحين ببنادق رمتون (وهى من أحدث البنادق التى عرفت فى ذلك الوقت) وتحت قيادة أوربية ومزودين بأربعة مدافع ، بعد عشرين دقيقة من بدء القتال ، بينما لم تتجاوز خسائر العدو التسعين نفرا بين قتيل وجريح^(٣).

أما القائم مقام رستم ناجى بك الذى كان يقيم بعدخوله والذى طلب أرندروب معاونته قبل بدء المعركة ، فقد خرج للحاق به ، وانضم اليه محافظ مصوع أراكيل بك والبكباشى أحمد فوزى أفندى قومندان الاورطة الثانية للمأمورية ، والبكباشى طوبجى اسماعيل راجى أفندى. وفى الطريق بين عدخوله وجندت ، وفى سهل يسمى جوداجورى شنت قوات العدو هجمات شديدة على القوات المصرية ، ولكنها جاءت فى ظروف مواتية بالنسبة لها ، فتمكنت من تركيز قوتها والسيطرة على ساحة القتال بفضل استخدامها للدفعية بحرية تامة^(٤).

ولكن سرعان ماتسلىق الاحباش المرتفعات المحيطة بالقوات

(1) Dye ; Moslem Egypt. P. 141.

(٢) المصدر السابق ص ١٤١ .

(3) Douin ; l'Histoire du Règne. T. 3 P. 782.

(4) Dye ; Moslem Egypt. P. 140.

المصرية من كل جانب، وأطبّقوا على جنود رستم ناجى كالجراد المنتشر بحيث لم يمض أكثر من ساعة إلا وقد أجهزوا على القوات المصرية .

ويذكر الجنرال لورنج (من ضباط أركان حرب الجيش المصرى) فى وصفه لتلك المعركة : « لقد حارب رستم بك بشجاعة، فعندما شجّت رأسه ، ربطها بمنديل واستمر فى إصدار أوامره وتشجيع جنوده على القتال إلى أن خر صريعا برصاصة ثانية . وحينما كان يلفظ أنفاسه الأخيرة ظل يصدر أوامره بقتال العدو حتى قضى نحبه . كذلك سقط اراكيل بك المحافظ الجرىء . فبالرغم من إصابته برصاصة قاتلة اخترقت جسده ظل يحث الضباط والجنود على القتال ، ويشعرهم بوجوده بينهم ضاربا بذلك مثالا عاليا فى البسالة إلى أن ضاع كل أمل فى النصر^(١) . وهذا الوصف ينطبق على ما جاء فى تقرير أحد الجنود الذين حضروا المعركة^(٢) .

أسفرت هذه الواقعة عن موت حوالى ألف جندى من المصريين بينما لم تتجاوز خسارة الأتراك ٥٢١ جندى بين قتيل وجريح . أى أنه لم ينبج من الخمسة عشر بلوكا التى اشتركت فى القتال سوى بلوك واحد تمسكن بصعوبة من التقهقر إلى عدخوله . أما باقى الجنود فقد قتل

(1) Ibid, P. 140.

(٢) المحفوظات التاريخية بالقصر الجمهورى دفتر ٢٩٠٦ (صادر لتلغرافات) بمحافظة مصوع « تقرير عن المعركة إلى سعادة خيرى باشا » وثيقة رقم ٤ ص ١ فى ٢٤ شوال ١٢٩٢ « نوفمبر ١٨٧٥ » .

بعضهم وأسر البعض الآخر . وكذلك سقطت جميع أسلحتها بما في ذلك المدافع والصواريخ في يد العدو .

حدث هذا في نفس الوقت الذي كانت فيه القوات المصرية تحت قيادة البكباشيين دنسون وعمر رشدي بعد دخوله بمعزل عن ميدان المعركة لا تدرى شيئا عما يدور على مقربة منها . وظلت على هذا الوضع إلى أن أنبأها بهذا الخبر المحزن شيخ البلدة . وسرعان ما أحاطت بهم القوات الحبشية حتى صارت على بعد ١٥٠٠ متر منهم .

وفي المساء بدأت جموع الاحباش تختفي عن أنظار المصريين ، الذين أخذوا يعملون بكل همة في زيادة تحصينات الموقع الذي يعتصمون فيه . ويصور لنا البكباشي عمر رشدي موقف قواته القليلة العدد وما كان يساورها من خوف بعد فشل القوات الرئيسية أصدق تصوير ، فيقول : « ولكن من بعد غروب الشمس إلى الصباح تواردت علينا بعض عساكر مجروحة وبعضها مطوشة . وهنا كسر قلوب عسكرنا وصاروا خائفين من الهجوم عليهم ^(١) » . وبعد فترة من الزمن حضر إلى الموقع رسول من قبل يوحنا يحمل رسالة إلى أراكيل بك قائد الحامية يخبره فيها بين أمرين إما تسليم أسلحته والخروج بقواته من الأراضي الحبشية أو البقاء في

(١) المحفوظات التاريخية بالقصر الجمهوري دفتر ٣٤ عابدين (وارد تليفات) تقرير البكباشي عمر رشدي عن موقعة جندت . صورة التلغراف العربي رقم ٢٥ في ٢٧ شوال ١٢٩٢ « نوفمبر ١٨٧٥ » .

خدمته هو وجنوده لورغبوا في ذلك . أصبح الموقف بالنسبة للحامية
عدخوله شديد الخطورة ، ففى لن تستطيع البقاء طويلا فى عزلتها
هذه . وفى نفس الوقت ليس فى مقدورها مقاومة الأحباش بعد
أن فقدت كل اتصال بينها وبين مركز القوات المصرية بمصوع .
ولهذا اجتمع كل من دنسون وعمر رشدى والنائب محمد عبد الرحيم
للتشاور فيما يجب عليهم عمله لمواجهة هذا الموقف الخطير ، ويصور
لنا البكباش عمر رشدى هذا الموقف بقوله : « ولكن نحن نعلم
و محقق لدينا عدم وجود الجيش الأمامى بأسلحته ومهمات ، وعلينا
عدم إمكاننا المقاومة ، فقياخور بعيدة ومصوع وسنهيث أبعد
والعساكر قليلة (٣٦٠ جندي فقط) ولعلنا أن ملك الحبشة أخذ
مدافع وأسلحة وجبه خاتنة من قتلوا ، وعلنا عدم إمكاننا مقاومته
فلذلك عملنا هذه الحيلة . » ^(١)

وتلك الحيلة التى أشار إليها عمر رشدى تتخلص فى أنه قد اتفق
مع زميله دنسون على أن يبعثا برد على رسالة الملك يوحنا يذكران
فيه بأنهما لن يقوما بتسليم مالهدهم من أسلحة وعتاد ماداموا على
قيد الحياة ، وأنهما أرسلتا بخطابه إلى الحكمدار بجبهة (سعد فلاسى)
وسوف يتصرفان بمقتضى ما يصلهما من تعليمات ، مع تأكدهم من
موت الحكمدار أراكيل بك ^(٢) .

ولم يكن ما ذكره الضابطان بطبيعة الحال ، إلا خدعة قصد

(١) المصدر السابق .

(٢) المصدر السابق .

بها التقوية على الأحباش إلى أن تتاح لهم الفرصة للهرب . وهذا ماحدث بالفعل ، فقد خرجت القوات المصرية من تحصيناتها بعدخوله بعد إرسال هذا الرد مباشرة، متجهة نحو قياخور . ويقول عمر رشدى ، « تركنا كل ما نملكه وصرنا بالهدوم التى علينا ، ومع كل عسكرى بندقيته وست دست رصاص وتركنا جميع الباقي وكذلك الأربعة مدافع ^(١) » .

وعند الغروب أشرفوا على بلدة (عدى أجواجه) بالقرب من (جوده فلاسى) وكان الإعياء قد بلغ بهم مبلغا كبيرا ، فلم يتذوقوا طعم النوم أو الراحة ثلاث ليال سويا . فلما أرادو أن يأخذوا قسطهم منها بعد هذه المرحلة الشاقة أخبرهم أحد مسلمى (جوده فلاس) أن الملك يوحنا قد استشاط غضبا لهروبهم دون أن يسلموا ما بأيديهم من أسلحة ، وصمم على تعقبهم بها كلفه الأمر . فهبوا مسرعين خشية أن يدركهم يوحنا وجنوده . إلى أن وصلوا موقع قياخور فالتحقوا بإحاميته تحت قيادة البكباشى على رأفت . ولم يلبث أن غادر الجميع الموقع الأخير بعد مبيت ليلة واحدة ، وبعد أن أخطروا دورهلز الذى كان يعتصم بموقع حصين على مسيرة يوم واحد من قياخور للحاق بهم فى مصوع .

وقد لاقى المصريون الأهوال أثناء انسحابهم إلى مصوع فيقول البكباشى عمر رشدى « سمعنا الأصوات المزعجة فوق الجبل

(١) المصدر السابق .

وكانت ليلة مظلمة من الغيام وكثرة الأشجار ، وعندها وقفنا فلم نشعر إلا والعساكر فرت هاربة جهة مصوع وتاهت في الأشجار واتحدنا جميعا في توقيفهم فلم أمكن لأحد ذلك وهكذا في تشتت إلى مصوع وتاهت كافة الناس عن بعضها ولكن الحمد لله لم يجرى ضرر لأحد ^(١) . وبوصول هذه القوة إلى مصوع أبرقت إلى القاهرة بنبا الهزيمة ^(٢) . كما تمكنت قوة دورها من الوصول إلى مصوع عن طريق حريقه ^(٣) .

نتائج الحملة

يرجع أهم أسباب فشل تلك الحملة إلى الخطأ في تقدير قوة الأحباش والإستهانة بأمرهم ، وكذلك لعدم تقدير العقبات التي تعترض طريق الحملة من وعورة المنطقة وتعذر الحصول على المؤن اللازمة من الأهالي .

هذا بالإضافة إلى قلة عدد جنود الحملة المصرية وتوغلها داخل الأراضي الحبشية دون أن تعتمد على احتياطي كبير العدد في

(١) المصدر السابق .

(٢) المحفوظات التاريخية بالقصر الجمهوري دفتر ٣٤ عابدين (وارد تليفونات) من وكيل عموم شرق السودان بسنهيت إلى خيرى باشا . صورة التلغراف العربى رقم ١٥٠ ص ٢٦ في ٢٢ شوال سنة ١٢٩٢ « نوفمبر سنة ١٨٧٥ » .

(٣) المحفوظات التاريخية بالقصر الجمهوري دفتر ٢٩٠٦ « صادر تليفونات » بمحافظة مصوع إلى خيرى باشا . وثيقة رقم ٦ ص ٨ في ٢٤ شوال ١٢٩٢ « نوفمبر ١٨٧٥ » .

خطوطها الخلفية . وقد وجدنا أنه كلما توغل أرندروب داخل الأراضي الحشبية ، قلت القوة الحربية التي تحت يديه نتيجة توزيعها على النقط الحربية على طول الطريق حتى يحتفظ باتصاله مع مصوع نقطة الارتكاز ومركز العمليات الحربية ، إلى أن تقابل في النهاية بالقوة الضئيلة التي بقيت لديه مع عدو يفوقه في العدد أضعافاً مضاعفة . ويقول الجنرال لورنج : إن من المحزن حقاً أن يرى المرء تناثر تلك القوة الصغيرة العدد في منطقة جبلية وعرة وأمام عدو قوى كبير العدد ^(١) .

علاوة على ذلك فإن استخدام ضابط مغامر كالسكونت زيشي - لا بصفة رسمية - بل كهاوٍ يبحث عن المغامرات لخطأ جسيم . فهذا الرجل الباحث عن المتاعب قد تقدم بسرعة كبيرة بمن معه من جنود المقدمة دون ترو أو تقدير للعواقب . واندفع وراه أرندروب وبقية جنود الحملة من غير اكتراث ، على أمل مباغتة العدو دون أن يضع في حسابه الإعتبارات الحربية المختلفة كقلة ماله من جنود ، وعدم درايته التامة بطبيعة الأرض التي يتقدم فيها ، أو إمكانيات العدو الحربية من ناحية الكفاية الحربية أو العددية . حتى إذا ما طالت مواصلاته وبعدت مراكز توقيعه ، أرسل يستنجد بالخدو لا سعا فقه بقوات إضافية من مصر ، مع العلم بأن تنفيذ ذلك غير ممكن من الناحية العملية . فمن المحال أن تدركه النجدة الحربية بهذه السرعة والعدو على بعد ساعات منه . فكان الأجدر به أن تبقى

(1) Loring; A Confederate Soldier in Egypt P.303

قواته على حدود الحبشة لتهدد يوحنا والدفاع عن الأراضي المصرية إذا ماسوات له نفسه الاعتداء عليها .

وهناك عوامل أخرى أسهمت في تلك الهزيمة إلى حد كبير ، فأرندروب لم تكن له خبرة حربية عملية ، ولم يسبق له خوض حروب وخصوصا في تلك المناطق الوعرة التي ليست له بها دراية كافية . كذلك السماح للصحفيين الانجليزيين بالتجول بين وحدات الجيش دون أية رقابة على تحركاتهم ، ثم انتقالهم إلى الجانب المعادي في ظروف غامضة ، قد مكنت الاحباش من مغرقة عدد القوات المصرية الزاحفة واتخاذ التدابير اللازمة للقضاء عليها في الوقت المناسب .

ويلخص لنا البكباشي عمر رشدي في تقريره الذي وضعه عن الحملة، الخسائر التي منيت بها القوات المصرية بقوله : نتيجة ما ذكر جميعه هو أن الذي فقد في الواقعة جميعها من العساكر المصرية بجبهة جندت ١٤ بلوكا من السودانيين و ٧ بلوكات من العساكر ٢ جى أورطة وواحد من ١ جى أورطة والحكمدار أرندروب والمحافظ اركيل بك والقائمقام رستم ناجى بك وبكباشية الطوبجية وبكباشي ٢ جى أورطة وضباط البلوكات جميعها التي سبق ذكرهم ، وأخذت مدافعهم ومهماتهم وأسلحتهم وخيامهم وأسروا نحو ١٥ نفرا بما فيهم معاون ٢ جى أورطة وواحد ملازم طوبجية وصاروخين من ضمن الاحد عشر بلوك الذين حضروا اثنين سودانيين، والبكباشي

دور هلز وواحد ملازم ، وفقد من الأعداء ما يفوق عن ١٥٠.٠٠
وكثير من رؤسائهم^(١) .

ويبدو من هذا التقرير مدى الخسائر التي لحقت بمصر في
صراحة ووضوح ولكنه قد بالغ في عدد ضحايا الأحباش كما أنه
من المتعذر تحديد هذا العدد - لو صح التقدير - لسببين رئيسيين :
الأول - أن الملك يوسف - حين نفسه لم يكن يعلم بالدقة مدى مالهيه
ولدى رؤوسه من قوات محاربة ، فقد جرت العادة أنه في حالة قيام
حرب أن يطوف الملك بأنحاء البلاد داعيا لها فيجتمع حوله وحول
أتباعه أعداد غفيرة لاحصر لها فسرعان ما تجتمع للحرب وسرعان
ما تنفض بعدها .

والسبب الثاني أن من عادة الأحباش ألا يتركوا موتاهم في
ميدان المعركة ، بل كانوا ينقلونهم أولا بأول إخفاء لخسائرهم ،
ولهذا فهما كانت ضحاياهم كثيرة فلا يمكن تحديدها على الإطلاق .

وبوصول فلول الجيش المصرى المنسحب إلى مصوع أصبح
ما بها من قوات يقدر بنحو ١٢ بلوكا من العساكر بالإضافة إلى
ما هو موجود بسمنيت . وبهذه القوة يصبح في الإمكان المحافظة على
مصوع من هجمات العدو وربما تصل الامدادات الحربية من مصر^(٢) .

(١) المحفوظات التاريخية بالقصر الجمهورى دفتر ٢٩٠٦ « صادر تلغراف »
بمحافظة مصوع إلى خيرى باشا . وثيقة رقم ٦ ص ٨ في ٢٤ شوال عام ١٢٩٢
« نوفمبر ١٨٧٥ » .

(٢) المحفوظات التاريخية بالقصر الجمهورى دفتر ٢٥ عابدين (صادر تلغرافات ،
من خيرى باشا إلى أحمد بك نشأت بمصوع . صورة التلغراف العربى بالشفرة
رقم ٤٦٩ ص ٧٢ في غايه شوال ١٢٩٢ « نوفمبر ١٨٧٥ » .

ونظرا لقلّة عدد الجنود المصرية بمنطقة سنهيت وما جاورها ،
فقد انتاب الأهالى ذعر شديد لعلمهم بمزم القوات الحبشية على
مهاجمة تلك البلاد والانتقام من المصريين^(١) . ولم يكونوا كبيرى
الثقة فى إمكان تلك القوات القليلة العدد الوقوف أمام الأحباش
وحماية البلاد .

وكان من نتيجة هذا الفشل الذى منيت به الحملة أن أصبح مركز
الحديو اسماعيل حرجا . وكان عليه سواء رضى أم لم يرض أن
يقوم بأعداد حملة أخرى للإنتقام من يوحنا ولحو العار الذى لحق
بالقوات المصرية . فأصبحت المسألة فى نظره تتعلق بشرف الجيش
المصرى أكثر مما تتعلق بالفتح والغزو .

(١) المحفوظات التاريخيه بالقصر الجمهورى دفتر ٣٤ عابدين (وارد تليفراقات)
من وكيل عموم شرق السودان بسنهيت إلى خيرى باشا . صورة التليفراف العربى
الشفرة رقم ١٤٧ ص ٢٥ فى ٢٢ شوال ١٢٩٢ ، نوفمبر ١٨٧٥ .

الفصل السادس

حملة أوسا

أو

حملة منسنجر

تعتبر حملة أوسا (حملة منسنجر) الطرف الثاني للكاشة أو الجناح الآخر لحملة أرندروب ، فقد أعدت الحملتان في وقت واحد على أن تهاجم الحملة الأولى وهي حملة أرندروب الحبشة من الشمال متخذة مصوع نقطة ارتكاز لها ومركز عملياتها الحربية . أما الأخرى فتزحف عليها من الجنوب عن طريق ميناء تاجورة الواقع على خليج عدن . ولم يكن هدف هذه الحملة الفتح أو الغزو بقدر ما كان يهمنها فتح طريق جديد يصل أوسا التي تقع على بعد ثلاثين فرسخا من تاجورة بالساحل مارا بأقليم شوا والعمل على تأمينه وتنشيط التجارة المارة به ، ولتدريب سكان تاجورة على مارسه التجارة المشروعة والإمتناع عن تجارة الرقيق ⁽¹⁾ .

كذلك كان من أهداف الحملة عقد معاهد تجارية مع منليك ملك

(1) Dye ; Moslem Egypt P 134.

شوا استجابة للرغبة التي أبداهامن قبل^(١)، والدخول في مفاوضات معه بشأن إيجاد تحالف عسكري ضد يوحنا تأميننا لسلامة الحدود المصرية .^(٢)

ونظراً لأن معظم سكان تاجورة من تجار الرقيق، فلم ينظروا الى وجود التجار المصريين بينهم نظرة ارتياح . وبوصول منسنجر الى هذا الميناء في ٥ أكتوبر سنة ١٨٧٥ بعث برسالتين الى اثنتين من زعماء تلك المنطقة ، أحدهما يدعى (حامد ولد لهيطة) ويدعى الآخر (محمد ولد هنفري) سلطان أوسا ، يطلب فيها التعاون مع السلطات المصرية لتنظيم تجارة تلك المنطقة وربطها بالعالم الخارجى . وكان كلا الرجلين غير مخلص للحملة ، ولكن حامد ولد لهيطة تظاهر بالإخلاص والولاء للمصريين . أما الآخر فقد جاهرهم بالعداء .^(٣)

تمكنت الحملة من ٣٦١ رجلاً مزودين بمسدفين جبليين وصاروخين ، ولحق بها الضابط أركان حرب محمد عزت ومعاون شرق السودان ، ونظراً لقلة عدد دواب الحملة وتعذر الحصول عليها لرفض الأهالى التعامل مع قوات الحملة ، لم يتمكن منسنجر أن يأخذ معه قدراً كافياً من المؤن والذخائر .

(١) الوقائع المصرية . العدد رقم ٦٣٧ في ١٨ ذى القعدة سنة ١٢٩٢

٢٦ ديسمبر سنة ١٨٧٥ .

(٢) كشف الستار عن سر الاسرار (مخطوط) ج ١ ص ٣٠ .

(3) uDoin : Hist. du Règne, M. 3 P. 796.

خط سير الحملة (انظر خريطة رقم ٣)

وقد دفعت قلة جنود الحملة واقتارها إلى المؤن والذخيرة ، وعداء الأهالي لها وعدم تعاونهم معها ، فانسحب إلى اتخاذ منتهى الحيلة والحذر في تقدمه نحو أوسا ؛ فكلف الضابط أركان حرب محمد عزت بتقسيم قوة الحملة إلى أقسام ، على أن يوضع أمام كل قسم منها فريق من الكشافه يتكون من ضابط وعدد من الجنود يتراوح بين ١٥ ، ٢٠ جنديا ويرافقهم دليل . ثم يلي ذلك في الترتيب ضابط أركان حرب ويوزباشى الأورطة السودانية وبصحبه دليل آخر و ٥٠ جنديا ، تتبعهم الذخيرة في حراسة اندفاعية من الجانبين وخلفهم تسير الجمال تحمل المؤن والأمتعة . وعلى جانبي الحملة وضع بلوك من الجنود لتولى الحراسة عليها . وفي المؤخرة يأتي بعض الجنود تحمى قيادة ضابط برتبة ملازم وبرفقته بروجى ودليل .

ورغم شدة الحذر الذى اتخذته الحملة أثناء سيرها ، فإن اعتمادها على أدلاء من الأهالي المعادين لها خطأ كبير . فعنى هذا أن مصير الحملة قد وضع بين يدي هؤلاء الأدلاء . وكان الأجدر أن يكون لدى الحملة خرائط مفصلة لتلك المنطقة تستطيع الاعتماد عليها ، والسير على هديها .

تقدمت الحملة نحو أوسا متجنبه السير في فترة القيظ حتى اذا ما أرخى الليل سدوله لجأت إلى مكان مرتفع خال من الأشجار لتعصم فيه استعدادا للطوارئ . وفي ٣٠ أكتوبر سنة ١٨٧٥ وصلت الحملة

الى بحيرة عسل Assal . ثم واصلت سيرها ببطء وحذر الى أن بلغت مرتفعات أوسا والى السهل المسمى باسمها في ٧ نوفمبر حيث وجدت أن جميع مالديها من مؤن قد نفذ . وما أن وصلت الحملة إلى هذا المكان حتى تقدم محمد ولد لهيطة بفروض الطاعة والولاء للحكومة المصرية مظهر أرغبته في تقديم كافة التسهيلات اللازمة للحملة . ولكن محمد ولد هنفري (وبعض الوثائق تطلق عليه اسم حنفلي) شيخ أوسا، رفض مقابلة منسنجر أو التعاون معه .

وفي أثناء ذلك حدثت موقعة جندت وانهمزت حملة أرندروب، فبعث الخديو اسماعيل ببرقية الى منسنجر في ٢٤ نوفمبر سنة ١٨٧٥ يحذره فيها من التقدم الى أبعد من حدود أوسا، ويشير عليه بالالتجاء الى أى مكان آخر يسهل الدفاع عنه وخصوصا بعد النكبة التي حلت بالقوات المصرية بجندت . وينصح الخديو في خطابه بعدم الدخول في مفاوضات مع منلك لعقد الاتفاقية التجارية لأن الوقت غير مناسب وذلك لظروف الهزيمة التي لحقت بالقوات المصرية ، الا إذا طلب منلك ذلك بنفسه . ولكن هذا الخطاب الذي أشرنا اليه لم يصل الى يد منسنجر لخيانة ولد لهيطة ^(١) .

ولما كان ولد لهيطة يضمم الشر للحملة ويريد الوقعة بها، فقد أشار على منسنجر بانباع طريق الجنوب المؤدى الى أوسا نظرا لسهولة وقصره عن طريق الشمال كما زعم . وفي ١٣ نوفمبر سنة ١٨٧٥ وصلت القوة الى منبع نهر أوسا حيث اختار منسنجر مكانا

مناسبا لتأخذ القوات الزاحفة قسطها من الراحة . ولكن ولد لهيطة عارض الإقامة في هذا المكان لغرض شرير في نفسه واختار مكانا آخر يقع في أسفل الجبل وتكثر فيه الأشجار بحجة أنه أكثر ملاءمة لراحة الجنود من المكان الآخر . وكان من الخطأ وضع جنود القوة في مكان كثيف الأشجار يحجبهم عن رؤية العدو ويكون هدفا سهلا للقوات المعادية التي تسيطر على قمة الجبل . فموافقة منسنجر على مشورة ولد لهيطة - رغم تعارضها مع أبسط القواعد الإستراتيجية - يعتبر جهلا وإسرافا في حسن النية لا مبرر له . وما أن استقرت الجنود في هذا المكان إلا وقد اختفى ولد لهيطة عن الأنظار متعللا بالعمل على توفير الدواب والماشية للحملة .

معركة أوسا :

بدأت تحدث بعض المناوشات بين الأهالي والجنود منذ أن استقرت الحملة في هذا المكان ، فأدرك منسنجر على الفور بأنه يقيم وسط منطقة معادية له ، وعليه أن يتصرف بكل سرعة وحذر لمواجهة الموقف ، فقسم قوته على هيئة مربع . فوضع جزءا من البلوك الأول جهة الشرق والجزء الآخر جهة الشمال . كذلك وضع جزءا من البلوك الثالث في الشمال والجزء الآخر في الغرب . وفي الجنوب وقف البلوك السوداني على أهبة الإستعداد ، وفي وسط هذا المربع وقف منسنجر تحيط به حاشيته وكذلك دواب الحملة^(١) .

(١) المصدر السابق .

كان اختفاء ولد لهيطه على النحو الذى ذكرناه بداية المعركة ، فقد أسرع إلى قومه يخبرهم بقوة الحملة وبمكانها وليقودهم إلى مواقعها بعد أن ينتصف الليل . وماهى إلا بضع ساعات وانقض العدو على القوات المصرية وهى نائمة وأشبعها طعنا وتقتيلا . ويصف لنا عمر عزمى باشا الذى أرسلته الحكومة المصرية إلى هرر للتحقيق فى أسباب الهزيمة هذا الحادث بقوله : « وبعد نصف الليل بساعتين برز رجلان فى جهة الخيمة يدعيان أنهما أتيا لبيع مواشى ، فلم ير الخفراء أهمية لإيقاظ النائمى من أجلهما ، فقبضوا عليهما وربطوهما فى المدافع ، فصاحا فهجمت أقوام كثيرة من قبائل (غالاس) واقتحموا المحل فبادر ابن الشيخ محمد لييده (لهيطه) المذكور أمير الجهة وضرب الباشا وهو نائم^(١) بسكين كانت معه . فضربه جاویش تابع للباشا ضربة ألقته طريقا على الأرض ، ووقعت مقتلة قتل فيها حتى من كان معهم من النساء ، والباقون من العساكر صعدوا بمشقة على رابية وصاروا يناوشون أولئك الأقوام تحت رئاسة اليوزباشى عزت أفندى إلى الصباح . وبرجوع الأعداء نزل العساكر ثانية إلى الخيمة فوجدوا الباشا فى آخر رمق . و(هاغنچى أشر) و(رأس جورو) مجروحين جروحا خطيرة . وبعد يوم حملوهم وتلبسوا بالعودة . وفى اليوم الثانى من

(١) وفى رواية أخرى يذكر المصدر السابق ص ٨٠٧ بأن البلوك أمين خليل سنجر ذكر بأن الشيخ العربى « يقصد ولد لهيطه » الذى خان منسنجر شوهد وهو يقاتله أمام خيمته فصوب إلى منسنجر ضربة من رمحه أصابته فى حلقه ، فأطلق عليه منسنجر الرصاص فخر الاثنان صرعى .

عودتهم توفي الباشا ثم الآخران عن تلك الجراحات^(١) . أسفرت تلك المعركة عن قتل ما يقرب من ٦٠٠ مقاتل من الأحباش عدا من وجد منهم قتيلا في الماء وذلك بفضل قوة المدفعية المصرية . أما عن الخسائر التي منيت بها قوات الحملة ، فقد قتل منسنجر وجميع أفراد أسرته وكذلك النساء والأطفال وكل ضباط المشاة وقومندان المدفعية وجميع جنوده فيما عدا ١٧ جندياً منهم بعض الجرحى ، وأكثر من مئة من جنود المشاة و٢٨ نفرأ من البلوك السوداني^(٢) . كما استولى المهاجمون على جميع الهدايا الثمينة المرسلة إلى منليك ملك شوا^(٣) .

تولى القيادة بعد موت منسنجر على من بقى من جنود الحملة على قيد الحياة الضابطان محمد عزت و يوزباشى البلوك السوداني ، وكان عليهما أن ينسحبا في أسرع وقت ممكن إلى تاجورة بعد أن نفد كل مالهدهم من المؤن ، كما كانت الذخيرة الباقية لا تكفى إلا للدفاع عن أنفسهم أثناء الطريق . هذا بالإضافة إلى أن بعض ما بأيديهم من أسلحة قد فسد وأصبح غير صالح للاستعمال .

اتخذت الحملة في انسحابها طريقاً آخر غير الذى سلكته لتتحاشى بذلك السير فى الأراضى المعادية التى مرت بها من قبل ، وواصلت

(١) الوقائع المصرية العدد رقم ٦٣٧ فى ٢٨ ذى القعدة سنة ١٢٩٢
« ٢٦ ديسمبر سنة ١٨٧٥ » .

(2) Douin ; Hist. du Règne T. 3 P. 808.

(٣) كشف الستار « مخطوط ج ١ ص ٢١ .

سيرها مسرعة في اتجاه تاجورة مختربة مناطق جبلية وعرة ومن خلفها القبائل العربية المعادية تجد في مطاردتها بلا هوادة حتى نال منها الجوع كل منال ونفدت مالدتها من ذخيرة المدفعية .

وفي خلال الطريق دخلت القوات المصرية المنسحبة في قتال مع القبائل العربية المطاردة مرات عديدة ، واستمر الحال على هذا النحو حتى وصول تلك القوات إلى تاجورة في ٢١ نوفمبر سنة ١٨٧٥ ، وكانت في ذلك الوقت تتكون من ٧٣ جندياً سودانياً و ٧٣ جندياً عربياً أى من ١٤٦ جندياً وأربعة ضباط هم محمد عزت أفندي أركان حرب واليوزباشى دياب أغا والملازم عبد الجبار أغا وفرج أغا ، وهؤلاء هم الذين تمكنوا من النجاة من مجموع الحملة التي تتكون من ٣٦١ ضابطاً وجندياً^(١) .

أحباب فشل الحملة

فشلت تلك الحملة في تحقيق أغراضها كما أخفقت سابقتها من قبل وذلك لنفس الأسباب : منها الاندفاع داخل مناطق معادية بقوات صغيرة العدد لا يمكن إمدادها بالمساعدات المطلوبة إذا لزم الأمر لبعدها عن مراكز تموينها .

كما أن تلك القبائل العربية المسلحة كانت تنظر إلى كل أوربي نظرة شك وريبة ، فاستخدام الحديد وإسماعيل لهؤلاء الأجانب قد أضر بمصر إلى حد كبير . فلم يكن من السهل على منسجركر رجل نصراني

أن يحصل على إخلاص وولاء تلك القبائل المسلمة . وهذا عكس ما أصابه البكباشى محمد مختار من نجاح كبير فى مهمته لكشف منطقة هرر وعمل الخرائط الجغرافية اللازمة لها ، ومالقيه فى تلك البلاد من ترحيب الأهالى ومساعدتهم .

وهناك سبب آخر أسهم فى تقرير مصير تلك الحملة ألا وهو جهل القائمين على تدبير شئونها بطبيعة تلك البلاد والإعتماد على الأدلاء بدلا من إستخدام الخرائط المفصلة التى كان يجب أن تتوافر لديهم قبل قيام الحملة . ومن المؤسف حقا أن هذا التقصير قد تداركته الحكومة المصرية بعد هذه النكبة ، فقامت برسم خريطة تفصيلية لأهم الطرق المؤدية إلى هذا الإقليم وطولها ومابها من آبار ^(١) .

(١) المحفوظات التاريخية بالقصر الجمهورى . دفتر ١١ معية صادر وثيقة رقم ٢٣ ص ٦٢ فى ٢٠ ذى الحجة سنة ١٢٩٢ هـ يناير سنة ١٨٧٦ م .

الفصل السابع

حملة راتب باشا

كان الإحتكام الى السلاح أمرا لا مفر منه ، فقد أصيبت هيبة مصر العسكرية بضربتين متتاليتين ، لالضعف جنودها أو لعدم كفايتهم الحربية ، ولكن لسوء تقدير القائمين على إعداد الحملتين السابقتين ولنهاونهم تهاونا مشينا أدى الى هزيمة مصر هزيمة رخيصة في مواقع كان يجب ألا تهزم فيها لو أحسن التدبير واتخذ لكل أمر عدته . فكان لا يد اذن من ارسال حملة أخرى هدفها الأساسى - ليس الغزو أو الفتح في حد ذاته - وانما للانتقام أولا وقبل كل شيء لشرف مصر العسكرى وذلك لأن مصير الوحدة بين مصر والسودان كان يتوقف إلى حد كبير على مدى قوة مصر الحربية في تلك الجهات .

لذا نجد أن الحديو اسماعيل يخفى نبأ فشل حملتى أرندروب ومنسجر عن المصريين حتى لا يحدث اضطرابا أو قلقا في النفوس . وفي نفس الوقت أخذ يعد العدة للانتقام من يوحنا والثار لشرف الجيش المصرى . فعقد اجتماعا في قصر عابدين تحت رئاسته وعضوية الأمير حسين ناظر الجهادية ونوبار باشا وشرىف وراتب باشا والجنرال استون رئيس هيئة اركان حرب الجيش المصرى والجنرال لورنج والأمير الاى فيلدو والأمير الاى داي وهم من الضباط الامر يكيين الذين استخدموا في هيئة اركان حرب الجيش

المصرى . واستقر الرأى بعد تبادل وجهات النظر على الإسراع فى إعداد حملة جديدة بحيث تنتهى من مهمتها قبل حلول فصل الأمطار الذى يبدأ عادة فى شهر مايو . وأسند أمر تجهيز الحملة وإعدادها الى الأمير حسين ناظر الجهادية والجنرال استون رئيس اركان حرب .

بدأ الحديو اسماعيل يعد الأذهان للحملة الجديدة ويمهد لها السبيل فبعث بكتساب الى منليك ملك شوا يخبره بمقتل منسنجر وهو فى طريقه اليه لإيجاد علاقات تجارية معه . وكذلك أنبأ بمقتل مندوبه (مندوب منليك) الذى كان يرافق منسنجر فى رحلته، قبل أن يتمكن الإثنان من تنفيذ هذا المشروع . وبّين له فى نفس الوقت مايقوم به يوحنا من أعمال عدوانية على منطقة الحماسين ، وأنه يتخذ العدة لتجهيز جيش قوامه ١٥ ألف مقاتل أو يزيد للإنتقام منه وتأمين الحدود المصرية وإيجاد علاقة تجارية مع مملكة شوا (١) .

وكانت الحكومة الفرنسية تنظر الى تلك الإستعدادات الحربية من جانب مصر نظرة قلق وعدم ارتياح . وكانت ترى فيما يقوم به اسماعيل من توسع فى أفريقيا تحرشا بالحبشة وتطويقا لأراضيها من جميع الجهات . وما تلك التحركات العسكرية التى يقوم بها على الحدود الحبشية سوى محاولات من جانبه للاستيلاء عليها .

أما عن موقف الحكومة الانجليزية من الحملة فيختلف عن

(1) Douin ; Histoire du règne T 3 — 3er partie
Fasc. B. P. 823.

موقف فرنسا ، إذ كانت ترى وجوب سيادة السلام والاستقرار في تلك المنطقة من العالم بطريقة تضمن المصالح الإنسانية وتحفظ على مصر أموالها ، في وقت اضطربت فيه شئونها المالية والاقتصادية . ولهذا نصحت الخديو اسماعيل بضرورة التروى والعدول عن استخدام القوة وعن القيام بالأعمال العدوانية ضد الحبشة . كما أن الرأي العام الإنجليزي كان يعارض بشدة في ضم الحبشة إلى الممتلكات المصرية ، وينظر إلى تلك المسألة من زوايتها الدينية . وقامت الحكومة الإنجليزية ببلاغ وجهة نظرها في هذا الموضوع إلى سفيرها في الأستانة ، موضحة له بأن المضي في تنفيذ هذا المشروع إلى نهايته سيـجـر الخراب والدمار على الميزانية المصرية . كما أن نجاح الحملة سيخلق للحكومة المصرية صعوبات جمة ومشاكل سياسية خطيرة ، لأنه سيلحق بها عناصر جديدة مختلفة في الجنس والدين .^(١)

ولكن الخديو أوضح بجلاء أن الهدف الذي يرمى إليه من وراء تلك الحملة هو الانتقام لشرف مصر العسكرية وتأكيد هيبة الحكومة المصرية في تلك المنطقة المجاورة لها ، وعقد صلح مشرف بينه وبين يوحنا .

(1) Douin ; Histoire du règne T. 3 - 3er partie
Fasc. B. P. 825.

اعداد الحملة

بذلت نظارة الجهادية نشاطا كبيرا في إعداد الحملة وتجهيزها في وقت قصير كي تستطيع مغادرة البلاد في ديسمبر سنة ١٨٧٥ . وتم بالفعل إعداد الحملة وإبحارها من ميناء السويس في ٦ ديسمبر ، وتمكنت من الوصول الى مصوع في يوم ١١ من نفس الشهر . وقد تكونت الحملة من (١) .

راتب باشا قائدا عاما للحملة

أما هيئة أركان الحرب الخاصة بالقيادة العامة أو ما يطلق عليه اسم ضباط ياوران حرييين فتألف من :

القائم مقام عبد العال حلمي (من زعماء الثورة العرابية)

البكباشي تورنيزن Thurneyssen

البكباشي خسرو عزمي أفندي

» عبد اللطيف »

» المعاون محمد فؤاد »

» محمد نسيم »

» رجب صديق »

الكتاب الملحقون بمعية راتب باشا .

القائم مقام محمد رفعت بك من كتاب المعية السنية

(١) المحفوظات التاريخية بالقصر الجمهوري ، محفظة رقم ٨ سودان . دفتر شامل للحرب الحبشية الثانية وضع بمعرفة رجب صديق أفندي المعاون « من محرم — شعبان سنة ١٢٩٢ » .

القائمقام حسن فهمى بك
 د حسنين سليمان أفندى
 حسن احمد أفندى

وتتكون هيئة أركان حرب الحملة من (١) : الجنسية
 الجنرال لورنج Loring رئيس هيئة أركان حرب الحملة
 والقائد الثانى للحملة
 الأميرالاي داي Dye مساعد رئيس هيئة أركان حرب
 د Derrik درك
 د Field فيلد
 د Von Mocklen فون مكلن القائمقام
 د على حلى مصرى
 د Graves جريفز أمريكى
 د Losch لوش
 البكباشى عمر رشدى (الذى رافق حملة أرندروب) مصرى
 د Lamson لاسون أمريكى
 د Wilson طيب ولسون
 الصاغ دورهلز Durholz سويسرى
 د Dennison دنيسون أمريكى
 د Dulier دوليه بلجيكى

إيطالي	اليوزباشى صورمانى
مصرى	د ابراهيم افندى
أمريكى	د پورتر Porter
د	د ايرجنس Irgens
مصرى	الملازم أحمد رائف افندى
د	د عبد الرحمن مجدى افندى
د	د أحمد عزمى افندى
د	د يوسف ضيا افندى
د	د حسين رمزى افندى

القائمقام لوكت Lockett (وقد انضم اخيراً للحملة) أمريكى
اما عن عدد قوات الحملة فتتكون من :

عدد

- ٤ آلايات من المشاة يتكون كل منها من ثلاث أورط وعدد أفراد كل أورطة ٩١٠ جندى تقريباً ، ثلاثة منها مصرية والآلاى الرابع من السودانين .
- ١ أورطة مأمورية وبعض بلوكات متفرقة يبلغ مجموع أفرادها ١٢٠٠ جندى .
- ٥ بلوكات من المهندسين واللغمجية مجموع أفرادها ٤٨٠ مقاتلا .
- ٣ بطاريات جبلية وتتكون كل منها من ٦ مدافع .
- ٢ بطارية غارديا (حرس) ذات مدافع من طراز بلبل .
- ٣ أورطة فرسان فى كل أورطة ١٧٦ حصانا .

وقد بلغ مجموع عدد جنود الآلايات والأورط المذكورة
حوالى ١٢٠٠٠ مقاتل بالإضافة الى خمسمائة نفر جمالة من العربان
والسياس المصريين . وكان هؤلاء الجنود ينقسمون الى لواءين ،
وكل لواء مكون من آلايين من المشاة والطوبجية والفرسان ^(١) .

وفيما يلي أسماء القواد والضباط العظام :

حضرة صاحب السعادة عثمان رفقي باشا قائد لواء السفيرية الأول
حضرة صاحب السعادة راقب راشد باشا قائد لواء السفيرية الثانى
حضرة صاحب العزة عثمان غالب بك

ميرالاي الآلاى الأول من لواء السفيرية الأول
حضرة صاحب العزة خورشيد عاكف بك

ميرالاي الآلاى الثانى من لواء السفيرية الأول
حضرة صاحب العزة محمد جبر بك

ميرالاي الآلاى الأول من لواء السفيرية الثانى
حضرة صاحب العزة عثمان نجيب بك

ميرالاي الآلاى الثانى من لواء السفيرية الثانى
اسماعيل صبرى أفندى بكباشى البطارية المدفعية الأولى والثانية

(١) يذكر الضابط أركان حرب تورنيزن في مجله Bulletin d'Institut Egyptien بأن عدد جنود الحملة ١٣٧٨٠ مقاتلا ، كما يذكر الجنرال داي في كتابه Moslem Egypt ص ١٥٥ بأن عدد جنود الحملة يبلغ ١١٢٠ ر ١١ وإذا أضفنا ماتبقى من حملة أرندروب يرتفع العدد لى ١٢٠٠٠ جندى تقريباً . كذلك كان بسنهيته مايقرب من ١٢٠٠ جندى .

راشد أفندى	بكباشى أورطة الفرسان الأولى
مصطفى أفندى	بكباشى أورطة الفرسان الثانية
محمد شاكر أفندى	بكباشى أورطة الفرسان الثالثة
حضرة صاحب العزة أحمد عرابى بك	مأمور الحملة
حضرة صاحب العزة محمد شاكر بك	مأمور النزل
حضرة صاحب العزة حسن حسنى بك	ناظر المستشفى العسكرى
حضرة صاحب العزة محمد على بك	المفتش الصحى

ويتكون سلاح المدفعية من القطع الآتية ^(١) :

عدد

- ٢ بطاريتى ميدان (طراز كروب) ١٢ قطعة .
- ١ بطارية ميدان (طراز قديم من الصلب) ٦ قطع .
- ٤ بطاريات جبلية ١٦ قطعة .

ومجموع تلك المدافع ٣٤ مدفعا و ١٢ صاروخا . (مع العلم بأن الصواريخ كانت عديمة الفائدة بالنسبة للحملة ولم تستخدم فى القتال مطلقا) . وبلغ عدد دواب الحملة من الخيل والبغال والجمال حتى ذلك الوقت ٢٨٠٠ رأس .

وفى ١١ ديسمبر سنة ١٨٧٥ نزلت الحملة بميناء مصوع ، فعسكر بعض جنودها على ساحل جيرار المقابل لجزيرة مصوع ، والبعض

(1) Bulletin d'Institut Egyptien.

الآخر في موقع حطملو وهو على مسيرة ساعة تقريبا من الميناء .
كما كانت المنطقة الواقعة بين مصوع وأم كلثو وحطملو منبسطة
وصالحة لإقامة بضع آلايات ^(١) .

المعقات في طريق الحملة :

ونظرا لقرب المنطقة التي عسكر بها الجنود من البحر فإن
مياه الآبار التي حفرت كانت لاتصلح للشرب إلا لمدة ثلاثة أيام
فقط وبعدها يصبح الماء مالحا ^(٢) . ولهذا كان تزويد قوات الحملة
ودواب الحمل بالمياه من أعظم المشاكل التي واجهت احمد عرابي بك
(زعيم الثورة العرابية) مأمور الحملة صعوبة ، فلم يكن لديه من
دواب النقل ما يفي حاجته لنقل كميات كبيرة من المياه الصالحة للشرب
من المناطق الداخلية البعيدة عن البحر .

ويذكر احمد عرابي في هذا الشأن أن معظم تلك الحيوانات قد
« أخذ من المصريين غصبا وبلا ثمن . وكذلك العلف من الشعير
والفول والذرة والتبن الذي أخذ بلا عوض غير الوعود الكاذبة
بخصم الأثمان من الضرائب المطلوبة منهم . وتلك الضرائب
لانهاية لها ولا يمكن لأى حاسب أن يعرف ماله وما عليه لكثرة
الافرائب الغير قانونية ^(٣) » .

(١) المحفوظات التاريخية بالقصر الجمهورى بحفظة رقم ٨ سودان سنة ١٢٩٢
(دفتر شامل لحرب الحبشة الثانية وضع بمعرفة رجب صديق افندى معاون) .

(٢) أحمد عرابي : كشف الستار عن سر الأسرار « مخطوط » ص ٢١ .

(٣) المصدر السابق .

وفي ١٥ ديسمبر سنة ١٨٧٥ وجه كل من راتب باشا والجنرال لورنج رئيس هيئة اركان حرب الحملة « نداءً الى علماء الحبشة وأعيانها بأن الحملة المصرية لا تقصد غزوا ولا فتحا وإنما جاءت لتأديب الملك يوحنا لتعديده على الحدود المصرية ونهبه الاراضى المصرية وأنهم لن يتعرضوا لمعتقدات الناس ولا لدياناتهم^(١) . » . وكان ذلك ردا على ادعاءات الملك يوحنا التى أذاعها على رؤوسه ورعاياه بأن جيوش مصر انما جاءت لاحتلال البلاد والقضاء على الدين^(٢) .

من أعقد المشاكل التى واجهتها الحملة منذ أن وطأت أقدامها أرض مصوع حتى نهاية المعركة هى قلة دواب النقل التى جمعتها من مصر . ولما كانت الدواب بالنسبة للجيش بمثابة الشرايين التى تنقل الدم الى الجسم الانسان ، أدركنا مدى الخطورة التى تتعرض لها القوات المحاربة اذا ما افتقرت الى العدد الكافى منها . وقد حاول القائمون على أمر الحملة أن يسدوا هذا النقص من مصوع والمناطق المحيطة بها ولكنهم لم يوفقوا فى ذلك . ويذكر راتب باشا أنه بالرغم مما بذل (احمد نشأت بك) من جد وأنفق من جهد لم يسعه أن يجمع من الثلاثة آلاف بعير التى خصصت لهذه الحملة سوى ثلاثمائة لمسها من هنا ومن هنا . . . ولما كان مستحيلا علينا أن ننقل أثقال آلاى واحد وأحماله إلى المواقع الواجب احتلالها

(١) المحفوظات التاريخية بالقصر الجمهورى بحفظه رقم ٨ سودان سنة ١٢٩٢
(دفتر شامل لحرب الحبشة الثانية وضع بمعرفة رجب صديق افندى المعاون) .

(2) Douin ; l'Histoire du Règne. T. 3 P. 842.

مادام الحيوان السكافي لذلك معدوما . . لهذا الغرض طلب من نظارة الجهادية بأن تسارع إلى إمدادنا من كل صوب وحذب بالحيوانات أياً كان المحل الوارد منها^(١) .

ولم تقف هذه المشكلة عند هذا الحد ، بل زادت تعقيداً بمرور الوقت ، فالإرهاق الشديد الذى تعرضت له تلك الدواب ، بالإضافة إلى سوء رعايتها من قبل المكلفين بالإشراف عليها ، ولهجمات ذباب القسي تسمى عليها ، ولتغير المراعى واختلاف الماء^(٢) ، كل هذا قد عرضها للهلاك فنفتت منها أعداد كبيرة . أى أنه كلما اشتدت الحاجة إلى الدواب كلما قل عددها وكلما زادت متاعب الجيش .

وترتب على هذه المشكلة مشكلة أخرى نشأت من تأخر قوات الحملة فى الزحف على الحبشة ، مما أتاح ليوحنا فرصة كبيرة للإستعداد للملاقاة الحملة ، وذلك نتيجة لبقاء القوات المصرية فى مصوع من ١١ ديسمبر سنة ١٨٧٥ إلى ٢٤ يناير سنة ١٨٧٦^(٣) فى انتظار نقل العتاد والمهمات إلى الخطوط الأمامية بهذا العدد القليل من الدواب . ولكن أحمد عرابى مأهول الحملة الذى كان مكلفاً بتموين

(١) المحفوظات التاريخية بالقصر الجمهورى بحفظه ٥٢ « معيه تركى » من محمد راتب باشا سردار العساكر المصرية إلى مهرداد الحديو . وثيقه تركيه رقم ٣٥٣ فى ١٤ شوال ١٢٩٢ « ١٢ ديسمبر ١٨٧٥ » .

(٢) المحفوظات التاريخية بالقصر الجمهورى بحفظه رقم ٨ سودان سنة ١٢٩٢ (تقرير رجب صديق المعاين عن الحرب الحبشية الثانية) .

(3) Bulletin d'Institut Egyptien.

الجيش بما يحتاج اليه من مؤن وذخائر ووسائل النقل والذي يعتبر مسئولاً أو مشتركاً الى حد ما في هذا التقصير قد عزا هذا التأخر والانتظار الى أمراء الآلايات الجراكسة الذين كانوا يحسبون للحبس ألف حساب وتهييئون من لقاءهم . ويظنون أن طـ ول المسكث في مصوع وحولها يحمل الحكومة مصاريف باهظة لعجزها عن القيام بنفقات الجيش اللازمة له الى النهاية فترجعهم الى مصر بلا قتال . وهذا الفكر الضئيل سمعته من أحد الأمراء المشار اليهم وهو ناظم مشفق من النتيجة^(١) .

أما المشكلة الثانية التي واجهت الحملة فهي قلة مالديها من الذرة ، فقد كانت في حاجة الى ٥٦٢٥ أردبا منه لتزويد قواتها لمدة ثلاثه أشهر . ولم تستطع الإعتماد على أسواق مصوع لتدبير تلك الكمية ، نظرا لأن مصوع نفسها كانت تعتمد في استهلاكها لهذا المحصول على ما يستورد من اليمن والتاكا والحبشة^(٢) .

وهذه المشكلة بالإضافة إلى مشكلة دواب النقل قد أسهمت في تأخير زحف الحملة في الوقت المناسب وما ترتب عليه من نتائج . كان من المتعذر إذن للأسباب التي أشرنا اليها الهجوم مباشرة على الحبشة ، كما أنه ليس من الحكمة - نظرا لقلة دواب النقل - ارسال فرقة واحدة من الجنود الى الخطوط الأمامية دون أن

(١) كشف الستار « مخطوط » ص ٢٢ .

(2) Douin ; Hist. du règne T. P. 862.

يكون لدى قيادة الحملة الاستعداد الكافي لإمدادها بالمعونة التي تحتاج إليها وبالقوات الإضافية اللازمة عند الحاجة^(١).

بعث الخديو اسماعيل في ٢٥ ديسمبر سنة ١٨٧٥ يستحث قائد الحملة راتب باشا على الزحف ويخبره برسالة ابنه الأمير حسن باشا لمرافقة الحملة برتبة أميرالاي حرب ، على أن يكون بصحبته أينما ذهب^(٢).

خط سير الحملة (انظر خريطة ٤)

وقد اقترح في ذلك الوقت أن يقوم الجيش المصري بهجوم مزدوج من ناحيتين : الأولى عن طريق أسمره (وهو الطريق الذي سلكه أرندروب من قبل) وتقوم به قوة صغيرة العدد تتكون من أورطة واحدة ومدفعين وتتقدم حتى بلدة جندا .

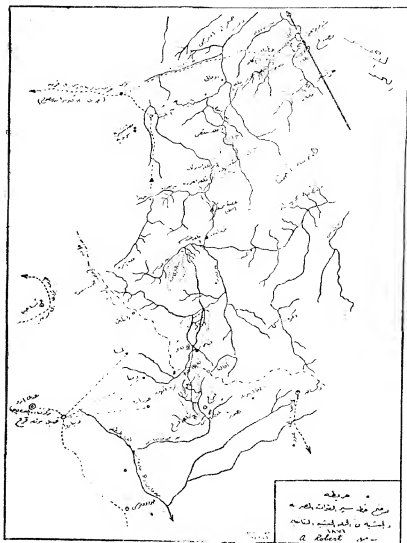
أما الهجوم الثاني فيقوم به الجيش الرئيسي عن طريق قياخور ويتألف هذا الجيش من ٤٠٠٠ جندي ، على أن يواصل تقدمه نحو الجنوب لاحتلال موقع بعزة لأهميته في كل هجوم مقبل على قياخور . وكذلك العمل على تحصين موقع عدرسة (وهو على مسيرة يوم واحد جنوبي بعزة) لحماية خطوط المواصلات^(٣) .

(انظر خريطة ٤)

(1) Dye ; Moslem Egypt. P. 201.

(٢) تقويم النيل « عصر اسماعيل » المجلد ٣ ج ٣ ص ١٢٨١ « لمرادة للسرदार راتب باشا » في ٢٩ ذي القعدة ١٢٩٢ « ٢٥ ديسمبر ١٨٧٥ » .

(3) Dye ; Moslem Egypt. P. 210.



شکل (۴)

بدأت قوات الجيش تتقدم نحو الجنوب بعد أن زود كل جندي ببندقية من طراز رمنتون وشنطة بها ٢٠ خرطوشة وجعبة بها من البقسماط ما يكفيه مدة خمسة أيام و ١٠٠ رصاصة وعباءة وكبود من الصوف^(١)

وفي ذلك الوقت تواترت الأنباء باستعداد الملك يوحنا للحرب وبأنه قدأعد العدة للملاقاة جيش مصر بما يزيد عن مئة الف مقاتل. تمكنت مقدمة الجيش المصرى من القيام بالأعمال التمهيدية مثل تعبيد الطرق التى سلكتها فى زحفها نحو عدوة . كذلك قامت بمد الخطوط التلغرافية من مصوع حتى موقع بعرضه فقط دون أن تستطع توصيلها الى موقع قياخور الذى يبعد عن بعرضه بنحو ٤٠ ميلا ، وذلك لنفاد الأدوات والمهمات اللازمة . كما أخذ اليوزباشى ايرجنس فى الكشف عن مواقع العدو ، ووصل فى تقدمه الى مكان يبعد عن عدوة بنحو ثلاثين ميلا . ورسم كذلك خريطة لتلك المنطقة تتضمن المعلومات الهامة التى يحتاج اليها الجيش فى تقدمه .

ويبدو أن الخديو اسماعيل كان يخشى انهزام تلك الحملة أمام الأحباش لأنه كان يدرك مدى الأثر الذى تحدثه تلك الهزيمة على مركزه فى مصر وفى ممتلكاتها الإفريقية ، لهذا أرسل الى راتب باشا قائد الحملة يحذره من الإشتباك مع العدو إلا فى الوقت الملائم

(١) المحفوظات التاريخية بالقصر الجمهورى بحفظلة رقم ٨ سودان سنة ١٢٩٢
(تقرير رجب صديق افندى للمعاون عن الحرب الحبشية الثانية) .

والمكان المناسب، ويبين له بأن الأحباش قد تعودوا الحرب في المضايق والمناطق الضيقة وفي الغابات .

صدرت التعليمات الى الفرقة الأولى التي تمثل مقدمة الجيش المصرى بالتقدم نحو الجنوب تحت قيادة أمير اللواء عثمان رفقي باشا . وكانت تتكون من ثلاث أوط من المشاة وبلوك من السوارى وفصيلتين من سلاح المهندسين وبطارية جبلية من أربع قطع وصاروخين ^(١) . وتقدمت تلك القوة الى موقع ينقص Yangous ثم غادرته فى ١٢ يناير ١٨٧٦ متجهة نحو بعزة ^(٢) حيث تتوافر المياه ، الا أن الميدان الموجود فيها صغير وتحيط به هضاب عالية من كل ناحية ، ويفصلها من الوسط خور (مجرى مائى) ، وهذا الميدان متسع من ناحية منها لإقامة أربع أوط فى هيئة مجمعة ، وناحية أخرى تسع لوضع الأرزاق والذخيرة (محطة نزل) وهذا الوضع لا يساعد على إنشاء الاستحكامات فيه ^(٣) .

ولكن أهمية هذا الموقع جاءت من إشرافه على ثلاثة طرق رئيسية : الأول يؤدى الى أسمره ويقع فى الجهة الغربية منه

(١) Bulletin d'Institut Egyptien.

(٢) المحفوظات التاريخية بالقصر الجمهورى دفتر ٣٦ عابدين (وارد قلفرافات) من سردار العساكر المصرية الى خيرى باشا . تلغراف تركى بالشفرة رقم ٤٤٩ فى ٢ محرم سنة ١٢٩٣ « يناير ١٨٧٦ » .

(٣) المحفوظات التاريخية بالقصر الجمهورى محفظه ٨ سردان سنة ١٢٩٢ (تقرير رجب صديق عن الحرب الحبشية الثانية) .

والطريق الثانى يؤدى الى مصوع والثالث الى عدرسة ويقع فى الجنوب . واذا أمكن التحكم فى المناطق الجبلية المحيطة به ، كان من اليسير على القوات المصرية منع مرور قوات الحبشة من الطريقين الرئيسيين المؤديين الى أسمره وعدرسه (١) .

وفى ٢٨ يناير غادرت كل القوات المصرية موقع بعريزة وكانت تشتمل على سبع أورط مشاة وثلاث بطاريات ونصف بطارية جبلية وسبعة صواريخ وأورطة مهندسين وبلوكين من الفرسان (٢) . وبدأت تتسلق (عقبة بنبه) وتقع على الحدود المصرية الحبشية ، وعقبة بنبه (بنبه) هى العقبة الكبرى وهى صعبة المرتقى ومرتفعة جدا ويكتنفها جبال عالية ، واتجاه هذه العقبة من الشمال الشرقى الى الجنوب الغربى ، والجهة الشرقية منه أعصب من الجهة الغربية والطرق الواقعة بين عقبة بنبه وعدرسه صعبة المرور جدا ، وتزداد الصعوبة والوعورة كلما اقترب من موقع عدرسه (٣) .

وبوصولهم الى عدرسة تواردت اليهم الأنباء بأن الملك يوحنا كان يظن أن الحملة المصرية ستتسلق نفس الطريق الذى سلكته الحملة الانجليزية من قبل ، ولذلك حشد قوات ضخمة بمنطقة حوزين للتصدى لها . ولكنه عندما علم بأن الحملة متجهة الى

(١) المصدر السابق.

(2) Bulletin d'Institut Egyptien.

(٣) المحفوظات التاريخية بالقصر الجمهورى ، محفظه ٨ سودان سنة ١٢٩٢

(تقرير رجب صديق) .

قياخور غادر مكانه ميمما وجهة شطر عدوة . ولذا كان من الالهييه
بمكان أن تسرع القوات المصرية فى الاستيلاء على قياخور قبل
أن تصل اليها قوات الملك يوحنا ^(١) .

وهنا برزت مشكلة النقل بشكل واضح ، فنظرا لقلة عدد دواب
الحملة ، كثرت عدد المرات التى قطعتها الدواب جيئة وذهابا بين
مصوع وبعرزة التى اتخذت كمركز تموين للقوات المصرية المهاجمة ^(٢) .
وأدى هذا الى ضعف تلك الدواب وموت عدد كبير منها . هذا
بالإضافة الى أن السروج التى وضعت على ظهور تلك الدواب كانت
من النوع الردىء الصغير الحجم ، مما أضر بها ضررا بليغا . زد على
ذلك الإهمال الشديد من قبل السياساس المكلفين بالعناية بها ، فلم يهتموا
كثيرا بعلفها أو سقايتها . كما كانوا لا ينفكون عن النزاع والجدال
مع بعضهم أثناء تحميل الدواب بصفة خاصة ^(٣) .

وقد بلغت قوة الحملة المصرية بعد الإمدادات الجديدة التى
وصلتها من مصر بما فى ذلك الخدم ١٤٧٠٠ جندى ^(٤) .

(١) المحفوظات التاريخية بالقصر الجمهورى دفتر ٣٦ عابدين (وارد تليفرافات)
من سردار العساكر المصرىة الى خيرى باشا . ترجمه التليفراف التركى الشفرة رقم
٤٤٥ فى ٣ محرم سنة ١٢٩٣ « يناير سنة ١٨٧٦ » .

(٢) كشف الستار « مخطوط » ص ٢٣ .

(٣) المحفوظات التاريخية بالقصر الجمهورى ، محفظه ٨ سودان سنة ١٢٩٢

(تقرير رجب صديق عن الحرب الحبشية) .

(٤) المصدر السابق .

واصل الجيش المصرى تقدمه من عدرسة الى قياخور في طريق خال من الماء ، فتجشم الجنود متاعب كبيرة بسبب قلة المياه ولم تجد الدواب ماء للشرب في تلك الليلة فباتت عطشى^(١) . كما أن موقع قياخور نفسه لم تتوافر فيه المياه ، ولهذا لم تتمكن القوة فيه سوى فترة قصيرة تمكنت في خلالها من انشاء قلعة صغيرة للدفاع عنه والمحافظة عليه . ثم أبقت به بعض الجنود وتقدمت الى بلدة قرع حيث وقع اختيار اللواء راتب باشا على إحدى المزارع التى تبعد مسيرة نصف ساعة غربى البلدة لاقامة الجند ، نظرا لتوفر المياه الصالحة للشرب بها ويشتمل هذا الموقع على إحدى عشرة قرية خاضعة لحكم أحد اتباع الملك يوحنا ويدعى (بحر نجاشى) الذى لم يلبث أن قام بتقديم فروض الطاعة والولاء للحكومة المصرية بمجرد وصول قواتها اليه^(٢) .

وفى ذلك الوقت طلب المدعو (لجر او) عمدة عدخولة الدخول فى طاعة الحكومة المصرية للإنتقام من الملك يوحنا الذى أحرق قراه بعد هزيمة أرندروب فى موقعة جندت ، لتخلفه عن الانضمام اليه فى تلك الحرب^(٣) .

(١) المصدر السابق .

(٢) المحفوظات التاريخية بالقصر الجمهورى دفتر ٣٦ عابدين (وارد تليفات) من سردار العساكر المصرية الى مهردار الخديو . ترجمة التلغراف التركى الشفرة رقم ٤٧٢ فى ٣ محرم سنة ١٢٩٣ « أواخر يناير سنة ١٨٧٦ » .

(٣) المحفوظات التاريخية بالقصر الجمهورى دفتر ٣٦ عابدين (وارد تليفات) من سردار العساكر المصرية الى سمادة خيرى باشا صورة التلغراف العربى الشفرة رقم ٥٠١ فى ٥ محرم سنة ١٢٩٣ « أوائل فبراير سنة ١٨٧٦ » .

كما وفد على مقر قيادة الجيش المصرى بعض المشايخ من جهات متفرقة وتحت إمرة كل منهم فصيلة من الجنود المسلحين بالمزاريق والدروع والقليل من البنادق للدخول فى طاعة الحكومة المصرية^(١).

ونظرا لعدم صلاحية الموقع الذى أقام به الجنود من النواحي الاستراتيجية ، أخير موقع آخر يتلائم مع هذا الغرض ويبعد عن قرية قرع ميرة ساعة من جهة الغرب . ومن مزايا هذا الموقع أنه يتسع لإقامة جيش قوامه خمسون ألف مقاتل ، وتتوافر فيه الشروط الضرورية من وفرة المياه والسيطرة على ملتقى طرق عديدة وخصوصا المؤدية الى قياخور . كما يسهل الإتصال منه بالمخافر الأمامية التى اقيمت فى النقط المرتفعة المحيطة بالموقع عن طريق الإشارة ولا سيما أثناء الليل .^(٢)

وأنشئت فى هذا المكان قلعة المهمات والجنود ويدخل فيها الخور الذى يمر به . ثم قام الجنود بقطع غابات الأشجار المحيطة بالموقع حتى لاتعوق العمليات الحربية . كذلك استعانت الحملة بخدمات دربان بنى عامر والشايقية المقيمين بسنهيته فى أعمال الاستكشاف^(٣) . كما طلب حاكم الخماسين ووزير الملك يوحنا الدخول فى طاعة

(١) المحفوظات التاريخيه بالقصر الجمهورى ، محفظه ٨ سودان سنه ١٢٩٢
(تقرير رجب صديق معاون عن الحملة الحبشيه الثانيه) .

(٢) المصدر السابق .

(٣) المحفوظات التاريخيه بالقصر الجمهورى دفتر ٢٧ عابدين «صادر لفراقات»
لمراد سنه ١٢٩٢ الى راتب باشا سردار الساكر المصريه . صورة التلغراف العربى
الشفره رقم ٢٥٩ ص ٤٢ فى ٧ محرم ١٢٩٢ « أوائل فبراير ١٨٧٦ » .

الحكومة « والنمس أن يظل هو حاكما على الجهات الممتدة من
مارب الى حماسين فأجبنا التماسه وحضرو معه ماينوف عن
ألفين من الخيالة فأكرمنا وفادته وقد انضم اليه جمع كبير
من العمدة والشيوخ فى مقاطعة الحماسين ، فأعلننا بأن ولد دنكيل
هو حاكم المقاطعة الممتدة من مارب الى الحماسين وأعطيناه
وثيقة بذلك . » (١)

وتبعد قرع مقر قيادة الجيش المصرى عن مصوع مركز التموين
الرئيسى بحوالى ٧٧ ميلا مقسمة على النحو التالى :

من مصوع الى ينقص ٢٠ ميلا

- من ينقص • بعوزه ١٨
- من بعوزه • عقبة بمبا ٦٧
- عقبة بمبا • عدرسه ٧١
- عدرسه • قياخور ١٦
- قياخور • قرع ٨٥

كذلك قامت قيادة الجيش بتوزيع بعض القوات على تلك
المواقع ، فوضعت بينقص بلوكا واحداً من الجنود ، وفى بعرزة

(١) المحفوظات التاريخية بالنصر الجمهورى دفتر ٣٧ عابدين «وارد تلغرافات»
من سردار العساكر المصرية للى خيرى باشا . ترجمه التلغراف التركي الشفرة رقم
٨١ فى ١٦ محرم سنة ١٢٩٣ • ١٠ فبراير سنة ١٨٧٦ .

أورطة واحدة وبطارية بلبيل ، وبعدرسة ثلاثة بلوكات ومدفعين جبليين . (١)

ويذكر احمد عرابي مأمور الحملة أنه بالرغم من وفرة التوينات في ذلك الوقت كان لا يصرف للجند إلا نصف المرتب من الخبز الناشف . ويعطى لكل نفر ١٠٠ درهم من اللحم البقرى ، أى ثلاثة أمثال المرتب من اللحم عملاً بإرشاد رئيس أركان حرب حتى فشى في الجيش داء (الدوسنتاريا) أى الاسهال . ولولا جودة الهواء هلكت العساكر من الجوع والاسهال . (٢)

ويبدو أن أقام راتب باشا بقرع وجه نداء إلى أهالى الحبشة يوضح لهم فيه بأن القوات المصرية لن تتعرض لهم بسوء ، وأما جاءت للإنتقام من الملك يوحنا ، فعليهم أن يخلدوا إلى الهدوء والسكينة وألا يقدموا له أية مساعدة . (٣)

مكثت القوات المصرية في موقع قرع من ٢ — فبراير الى ٧ مارس سنة ١٨٧٦ ، وفي تلك الأثناء كانت تتلقى الأنباء يوميا عن

(١) المحفوظات التاريخية بالتصريح الجمهورى دفتر ٣٦ عابدين «وارد تلفرافات» من سردار العساكر المصرية إلى سعادة خيرى باشا — صورة التفراف العربى الشفرة رقم ٥٠٠ ص ٩٧ في ٥ محرم سنة ١٢٩٣ « أوائل فبراير ١٨٧٦ » .

(٢) كشف الستار « مخطوط » ص ٢٤ .

(٣) المحفوظات التاريخية بالتصريح الجمهورى — محفظة ٨ سودان سنة ١٢٩٢ (تقرير رجب صديق عن الحملة) .

تحركات يوحنا ومدى اقترابه من الخطوط المصرية . وكلما زاد تقدم الأحباش كلما زادت الصعوبات التي تواجهها الحملة . فنظرا لطول الأمطار بغزارة شديدة وبدون انقطاع ، أن أصبح من الصعب جدا على دواب الحملة القيام بنقل المؤن والذخائر بين المواقع المختلفة في هذه الظروف القاسية (١) .

(١) المحفوظات التاريخية بالتصريح الجمهورى دفتر ٣٧ عابدين «واردات» من سردار العساكر المصرية لى خيرى باشا . ترجمة التلغراف التركى انفرمرقم ١٦٧ فى ٢٠ محرم سنة ١٢٩٣ (١٦ فبراير سنة ١٨٧٦) .

الفصل الثامن

دراسة مقارنة لحالة الجيشين المصرى والحبشى

قبل أن نخوض فى تفاصيل المعركة ، يجب أن نوضح خصائص كل من الجيشين المحاربين وإمكانيات كل منهما والميزات التى يمتاز بها ، وطبيعة الأرض التى يحارب عليها لتكون فى حكمنا على نتيجة المعركة أقرب الى الصواب ما استطعنا الى ذلك سبيلا .

هيئة القيادة وارتباطه حرب

إذا تناولنا قائد الحملة راتب باشا ، نجد أنه من أصل چركسى ويبلغ من العمر حوالى الخامسة والخمسين كان أحد ممالك سعيد باشا ، وفى عهده سافر الى فرنسا للدراسة لمدة خمسة شهور . وبعد عودته رقى بسرعة الى رتبة البكباشى وسرعان ما قفز الى رتبة الأميرالاي . ويمتاز راتب باشا بالبرود والرياسة ويبدو مقطب الوجه ، وله إلمام كبير باللغتين الفرنسية والتركية ولكنه يفضل التحدث باللغة الأخيرة . أما عن معرفته باللغة العربية فقليلة ولا يقرأها الا نادرا وفى غير اتفاق (١) . ومن هذا العرض السريع لتاريخ حياة راتب باشا يتضح لنا أنه لم يكن ملما ما كبيرا بالثقافة العسكرية .

وإلى جوار راتب باشا توجد هيئة أركان حرب القيادة - وهي باستثناء البكباشى تورنيزن الذى كان يلم بست لغات - لاتضم شخصيات على درجة كبيرة من الثقافة العسكرية أو الكفاية الحربية، وذلك لثقافتهم المحلية المحدودة . ويصف الجنرال داي هؤلاء الضباط بقوله : « بأن ليست لمؤلاء الضباط أية خبرة ، فهم لا يعدون جنوداً إلا بالإسم والحلة الرسمية فقط . »^(١)

أما عن الأمير حسن باشا الذى ألحق بالحلة برتبة أميرالاي أركان حرب فقد أدخله والده المدرسة الحربية ببرلين ، وألحق بآ لاي الحارس السوارى برتبة الملازم^(٢) . ثم منحه المدرسة الحربية أجازة لمرافقة الحملة الحبشية وذلك للتدريب على الحرب بصفة عملية . ويبلغ الأمير حسن من العمر اثنين وعشرين عاماً ، ويتكلم العربية والتركية والفرنسية والانجليزية والألمانية .

وقد بعث الخديو اسماعيل أمرا إلى رئيس هيئة أركان حرب الحملة بإسناد أحد أقسام الهيئة إلى الأمير حسن . وفى نفس الوقت أصدر أمرا آخر إلى راتب باشا بإبقاء الأمير إلى جانبه والمحافظة عليه . وبذلك أصبحت حماية الأمير حسن باشا فى المقام الأول بالنسبة لقائد الحملة ، أما انتصار الجيش أو هزيمته فتأتى فى المرتبة الثانية . كما كان بصحبة الأمير حاشية تباعج الحسين .^(٣)

(١) المصدر السابق ص ١٦٧ .

(٢) المحفوظات التاريخية بالقصر الجمهورى دفتر ٤٣ عابدين إلى على بك ترجمة المسكبة التركية رقم ١٤٦ بتاريخ ٢٣ شعبان ١٢٩٢ « أكتوبر ١٨٧٥ » .

(3) Dye ; Moslem Egypt P. 187.

ولذا نظرنا إلى مسألة إلحاق الأمير بالحملة نجد أنها لم تعتمد عليها بأية فائدة، فلم يكن الأمير على درجة كبيرة أو قليلة من الكفاية العسكرية، فهو صغير السن وقريب عهد بالمدرسة الحربية فلم يكن قد أتم دراسته العسكرية بعد، بل على العكس من ذلك فقد سبب وجوده الكثير من المتاعب. ويبدو ذلك واضحاً من اهتمام الأمير في أول الأمر بالتفصيلات النافذة بينما كان يرجئ البت في المسائل الخطيرة يوماً بعد يوم ^(١).

ولإذا انتقلنا إلى رئيس هيئة أركان حرب الحملة الجنرال لورنج الأمريكي الأصل، نجد أنه يبلغ من العمر الثانية والستين عاماً واشترك في الحرب الأهلية الأمريكية وفي حرب المكسيك سنة ١٨٤٦ وقد فيها أحد زراعيه. وكذلك خدم في ولايات أمريكية متعددة. أما عن طباعه فتغلب عليه الطيبة، ولكنه عادة يبدو متبرماً، ويؤخذ عليه سرعة تأثره في بعض الأوقات واندفاعه في العمل بعصبية وسرعة وهذيانه بكلام غير مفهوم ^(٢). ومن العقبات الهامة التي واجهته تعذر التفاهم مع قائد الحملة راتب باشا شخصياً، فلورنج لم يكن يعرف من الفرنسية إلا القليل بينما كان راتب باشا ملماً بها تماماً ولا يفهم الإنجليزية. ومن عيوبه أيضاً أن تحيزه في بعض الأوقات لرأى معين كان يشوّه حكمه على الأشياء.

١ - المصدر السابق ص ١٧٠

٢ - المصدر السابق ص ١٦٤

ولم يقع الاختيار على لوريج في أول الأمر كرئيس لهيئة أركان حرب الحملة، بل أختير الأميرالاي داي لهذا المنصب، ولكنه اعتذر عن قبوله لعدة أسباب: أولها الحسد الذي يسكنه ضباط الجيش الأتراك للضباط الأجانب؛ والحق الذي يضره ضباط الصفوف لضباط هيئة أركان حرب سيحول بينه وبين القيام بواجبه على الوجه الأكمل.

ثانياً: عدم ثقته في مقدرة أى من الباشاوات الأتراك في قيادة الحملة بصفة عامة وراتب باشا بصفة خاصة.

ثالثاً: إن بعد راتب باشا عن سلطة الحكومة المركزية سيجعله أكثر حرية وجرأة في أفعاله مما سيجعل تصرفاته غير محتملة. ولذا اقترح تعيين الجنرال لورنج بدلاً منه علّه يوفق في مهمته الجديدة^(١). أما عن بقية أعضاء هيئة أركان الحرب فمعظمهم من الأمريكيين الذين كانوا موضع شك من قبل القائد العام للحملة ومن حاشيته على السواء. هذا بالإضافة الى البغض الذي يكنه الضباط الأتراك لضباط أركان الحرب المنافسين لهم في السلطة. كما كان الضباط المصريون ينظرون اليهم نظرة عدم إرتياح لكونهم أجانب عن مصر، في وقت بدأت فيه الدول الأجنبية تتدخل بشدة في شئون مصر، تحقيقاً لمصالحها ومصالح رعاياها على حساب مصر والمصريين.

كذلك نجد أن كلا من هيئة أركان حرب القيادة العامة،

وهيئة أركان حرب الحملة كانت تعمل منفصلة عن الأخرى كأنهما
هيتان منفصلتان ، مع أنها في حقيقة الأمر هيئة واحدة .

هذا فضلا عن التفرقة بين الضباط المصريين والضباط الأجانب
في المعاملة . إذ كانت الخطابات التي يرسلها الضباط المصريون إلى
القيادة العامة أو إلى ذويهم ، ترسل مقفلة في ظروف مخومة بالشمع
الأحمر إلى مكتب قائد الحملة ، بينما ترسل خطابات الضباط الأجانب
مفتوحة إلى رئيس هيئة أركان حرب الجيش المصري - الجنرال
استون - بالقاهرة . كما كانت ترد الرسائل الخاصة بهؤلاء الضباط
إلى هيئة أركان حرب الحملة مفتوحة أيضا ، فاعتبر هؤلاء الضباط هذا
العمل ماسا بكرامتهم وباخلاصهم كجنود في خدمة الحكومة
المصرية (١) .

كما كانت المراسلات التي تبعث بها قيادة الحملة إلى نظارة الجهادية
ترسل إلى مصوع حيث يتولى أحمد بك محافظ المدينة إرسالها
مباشرة إلى قصر عابدين وليس إلى نظارة الجهادية وهي المختصة بكل
ما يتعلق بالشئون الحربية . وقد وجه الجنرال داي نقدا شديدا لهذه
الطريقة التي تؤخر البت في الأمور الحربية بصفة عاجلة .

ولمكتنا لا نتفق معه في هذا الرأي لأن شئون مصر في ذلك
الوقت - سواء كانت حربية أو مدنية - تعرض على الخديو اسماعيل
للبت فيها مهما قل خطرهما . فأرسلها إلى مقر الخديو مباشرة فيه

توفير للوقت والجهد ، نظرا لأن نظارة الجهادية لن تستطيع الفصل فيها إلا بعد موافقة الحديو .

ومن نقاط الضعف الهامة التي كانت تنخر في كيان تلك الحملة - بل في كيان الجيش المصرى بأسره - النفور المتبادل بين الضباط المصريين والجرار كسة ، فجميع ضباط الحملة العظام تقريبا من الجرار كسة المتعطر سين الذين يفخرون بدمائهم الأرسقراطية الزرقاء ، ويتعالون على زملائهم من الضباط المصريين الذين ينحدرون - كما يصور لهم خيالهم السقيم - من سلالة الفلاحين ذوى الدماء الرخيصة (١) .

هذا بالإضافة الى أن اختلاف اللغات قد خلق مشكلة مستعصية للحملة فاللغات التي كانت مستعملة لا تقل عن أربع لغات وهى : العربية والتركية والانجليزية والفرنسية . زد على ذلك النقص المستمر فى عدد دواب الحملة ، ووعورة الأرض وهطول الأمطار فى ذلك الوقت .

تقرير الجبرال استوره

وهذا الضعف الظاهر فى تكوين الحملة واعدادها ماهو إلا صورة مصغرة لما كان يعانيه الجيش المصرى من ضعف شمل

نواحي متعددة وخير دليل تقدمه لإثبات تلك الحالة التقرير (١) الذى كتبه الجنرال استون بعد تعيينه فى منصب رئيس أركان حرب الجيش المصرى بستة شهور والذى رفعه إلى نظارة الجهادية متضمنة نتائج دراساته وملاحظاته عن الجيش وتوصياته بشأنه وذلك فى عام ١٨٧٠ .

وقد عالج الجنرال استون فى تقريره هذا كل سلاح من أسلحة الجيش المصرى على حدة مبينا ما فيه من أوجه القوة وقطع الضعف، وبدأه بسلاح المشاة، فذكر بأنه يشتمل على جنود أقوياء أصحاب الأبدان دربوا تدريباً جيداً ولهم قدرة على احتمال المشاق . وعلى العموم فغلاتهم جيدة إذا ما قورنت بحالة القوات التركية أو قوات الدول الشرقية فى ذلك الوقت (٢) .

أما عن سلاح الفرسان فيتكون من جنود مهرة يجرى تدريبهم بانتظام ، ويمتطون صهوات جياد أصيلة ، ويستطيع هؤلاء الجنود أن يقوموا بدورهم فى وقت الحرب على أتم وجه . أما عن البنادق التى يستعملونها فضعيفة الأثر ويجب أن تستبدل بأخرى قوية (٣) . وهذا الوصف الذى ذكره الجنرال استون

(1) Abdin Corrsp. Fran. Doss. No. 50-1 Le Caire 15, Dec. 1870.

(2) Abdin Amr. Doc. vol. 6 despt No. 19 Butler to Fish Oct. 29, 1870.

(3) Abdin Corrsp. Farn. Doss. No. 50-1 Le Caire 15, Dec. 1870.

رئيس هيئة أركان الحرب يختلف عما ذكره المستر جورج بتلر -
قنصل أمريكا الجنرال بمصر في سنة ١٨٧٠ - من أن هذه القوات
غير مدربة إطلاقاً « Utterly Undrilled » .^(١)

ويضم سلاح المدفعية نواة صالحة من الجنود المدربين والضباط
المثقفين ، ولكن تنقصهم سرعة الحركة التي تتطلبها المناورات
العسكرية . كما أن طلقات مدافعهم ليست قوية لأن المدافع من
النوع الرديء . أما عن عدد بطاريات هذا السلاح فقليلة^(٢) . وقد
رمى المستر جورج بتلر (قنصل أمريكا الجنرال بمصر) هذا السلاح
بالنقص وعدم الاستعداد بشكل يدعو إلى الرثاء^(٣) .
Wretchedly deficient.

وقد وجه الجنرال استون نقدا شديدا إلى نظارة الجهادية لتركيزها
كل ما يتعلق بشؤون الحملة من أمور سواء أكانت صغيرة أم كبيرة
في يدها . وكذلك لم يكن بالجيش هيئة أركان حرب عامة أو
خاصة ، كما كان الجيش يفتقر إلى سلاح للمهندسين وإلى أسلحة
أخرى تتولى شؤون النقل والمهمات والتموين . وكان على الجنرال
استون أن يسد هذا النقص .

(1) Abdin Amr Doc. vol. 6 despt, No. 19, Butler
to Fish. Alex. in Oct. 20, 1870.

(2) Abdin Corrsp. Fran. Doss. No. 50-1 Bureau de
chef d'Etat Major in 15 Dec. 1870.

(3) Abdin Amr. vol. 6 despt. No. 19, Butler to
Fish. Alex. in Oct. 20, 1870.

وبالفعل قام بإنشاء هيئة أركان حرب الجيش، ووضع ترتيباً جديداً يحدد اختصاصات نظارة الجهادية وفروعها المختلفة ويوضح العلاقة بين هذه الهيئة ومختلف الفروع، ومن الإصلاحات الأخرى التي أدخلت على الجيش قصر الترقى على من له إلمام بالقراءة والكتابة من ضباط الجيش بعد تأدية إمتحان خاص^(١). كذلك كوفي الضباط الذين قاموا بمجهود علمي كتأليف الكتب العسكرية أو ترجمتها بترقيتهم إلى رتب أعلى، وذلك تشجيعاً للروح العلمية بين صفوف الضباط^(٢). ولكن رغم هذه الجهود الكبيرة التي بذلت في الإصلاح فلم يرتفع شأن الجيش لأسباب مختلفة أهمها:

أولاً: كان الجيش المصري في عهد اسماعيل يفتقر^(٣) الى القائد المحنك الذي يستطيع أن يثروح الجهاد والتضحية في نفوس الجند وأن يلهب حماسهم ويذكرهم بما ناله آباؤهم وأجدادهم من انتصارات، فـالجيش لا يخرج عن كونه مقنوقاً نارياً قوياً يحتاج الى الرامي الماهر^(٤). وهذا الرامي أو القائد بمعنى آخر يجب أن

(١) المحفوظات التاريخية بالقصر الجمهوري دفتر ١٩٣٥ (أوامر جهادية) عربي وثيقة بدون رقم ص ١١٦ أمر الى ديوان الجهادية في ٦ ذي الحجة سنة ١٢٨٧ (فبراير سنة ١٨٧١)

(٢) المحفوظات التاريخية بالقصر الجمهوري محفظه ١٠ (جهادية) وثيقة تركية رقم ١٣٤ أمر الى ناظر الجهادية في ١٢ ربيع ثاني سنة ١٢٨٩ (سنة ١٨٧٢)

(3) Abdin Corresp. Fran. Doss. No. 50/1 Rostilas aKhédive Isnail, Le Caire Mai 9, 1870.

يتكون من ضباط الصفوف وليس من ضباط أركان حرب .
كذلك لم يجد الجيش المصرى ضالته المنشودة فى شخص اسماعيل
الذى لم يرث عن أبيه الروح الحربى ولا خوض المعارك أو الحروب .
ثانيا : ان وقوف كبار ضباط الجيش فى وجه هيئة ضباط أركان حرب
وعدم السماح لهم بالإتصال بجنود الصفوف للإشراف على تدريبهم
ومعرفة ما يحتاجون اليه جعل من هذه الإصلاحات حبرا على ورق .
فظل الجيش المصرى يتكون من كتائب مختلفة لا رابط بينها . هذا
فضلا عن الإرتباك المالى الذى شل كل حركة للإصلاح فى أواخر
عهد اسماعيل .

ومع ذلك نجد أن الجيش المصرى قد امتاز عن الجيش التركى
المعاصر له بميزة هامة وهى ثقافة ضباطه العسكرية . فهو لاء الضباط
قد تلقوا تعليما فنيا خاصا فى مدارس خاصة على أيدي معلمين مهرة .
هذا من جهة ، ومن جهة أخرى فقد امتاز عنه ايضا بإتخاذ الإمتحان
أساسا للترقى ، وبذلك انعدم الضباط الأميون بالجيش المصرى بينما
كان لا يزال بالجيش التركى من أمثال هؤلاء من يعدون بالعشرات .^(١)

الجندى المصرى فى الميزان

أما عن مقدرة الجندى المصرى وكفائته ، فنجد أن غالبية
الجنود كانوا من طبقة الفلاحين ، وهؤلاء يتمتعون ببنية قوية بفضل

(1) Mc Coan ; Egypt as it is P. 10 & 102.

دأبهم على العمل المتواصل فى الزراعة من شروق الشمس حتى غروبها . فهو إذن من هذه الناحية يمتاز بالمثابرة والجلد . كذلك يتصف الجندى المصرى بالطاعة العمياء لرؤسائه ، سواء كان ذلك عن رغبة أم رهبة ^(١) .

ومما اتصف به أيضا واعترف به رؤساؤه من الضباط الأجانب الذين خدموا فى الجيش المصرى ، قوة الاحتمال . فيذكر الاميرالاي الأمريكى داي بأن الجنود الفلاحين يتمتعون بالصبر وقوة الاحتمال الى حد غير مألوف ^(٢) . ولكن الجنرال شاييه لونج - من ضباط أركان حرب - يقول : إن الفلاح المصرى ليس شجاعا ولكنه مزارع صبور ^(٣) .

ولكننا لانوافق شاييه لونج على ماذهب اليه من إنكار شجاعة الجندى المصرى فى القتال ، فالحرروب التى خاضها ببسالة فى شبه جزيرة المورة وفى الشام وشبه جزيرة القرم لا كبر دليل على دحض مايدعيه . فشجاعة الجندى المصرى كانت حقيقة واقعة . ولكن الضباط الأجانب نسبوها إلى الدافع الدينى فقط ^(٤) .

كذلك إمتاز الجندى المصرى بالإخلاص ، فهو مخلص أمين يعتمد عليه ويوثق به ^(٥) . وإلى جانب ذلك يتوافر فيه الذكاء

(1) Dye : Moslem Egypt P. 42.

٢ - المصدر السابق ص ٤٤ .

(3) Chaillé Long ; Les Trois Prophètes P. 88.

(4) Dye ; Moslem Egypt. P. 45.

٥ - المصدر السابق ص. ٥٧ .

ولكن قيل بأنه ذكاء المقلد الذي لا يفكر في المسببات أو الظروف أو النتائج ^(١) .

أما عن كفايته في القتال فهو محارب جيد ، يقاتل بصبر وجلد وخصوصاً خلف المناريس والإستحكامات . وقد تعود على الحرمان بحيث نجده ينام في معسكره ملتجئاً ببطانيته على الأرض العراء ، واضعاً رأسه فوق مخلته ، لا يملك حتى لوحاً من الخشب لينام عليه ، وبالرغم من ذلك فهو لا يشعر بأى حرمان ^(٢) .

وعندما ذكره السير دراموند وولف في خطابه إلى المركزين نالسبورى بشأن الجنود المصريين في ٢٧ يناير سنة ١٨٨٦ قوله : « إن الجنود المصريين يمتازون ببعض الصفات العالية ، فقد تعودوا الصبر بوجه باسم ، وجبلوا على العمل ، ويحاربون بمهارة من وراء الإستحكامات . ولكنهم على العموم ليسوا على مقدرة كبيرة في الحروب المكشوفة » ^(٣) .

ومع ذلك يمكننا القول بأن طبيعة أرض مصر السهلة ، وحياة الهدوء والاستقرار التي يعيشها الفلاح في ممارسة الزراعة في هدوء واطمئنان على ضفاف النيل ، قد جعلته يميل إلى الهدوء الإستقرار ، وهذا ما لا يتفق مع طبيعة الحياة العسكرية . ولهذا قيل بأن الجندي

(١) المصدر السابق ص ٤٢ .

(2) Abdin Cor. Franç. Doss. No. 50/1 Hans Waschinhusin «Journal de Cologne» 1870.

(2) The Blue Books-Egypt No. 3 Corrs. Respecting reorganization of the Egyptian Army P. 2

المصري ليس محاربا بطبيعته ، ومن ثم تفوقت عليه عناصر أخرى من هذه الناحية مثل البدو والأحباش .

امطانيات الجيش الحبشى

وإذا انتقلنا إلى الجانب الآخر من الميدان نجد الجيش الحبشى وعلى رأسه الملك يوحنا الذى تولى الحكم بالقوة بعد وفاة الملك ثيودوراس ، ولم تكن كلمة رؤوس الأحباش (حكام المقاطعات) مجمعة عليه ، فكان له منافسون فى العرش ، وأعداء كثيرون منهم ولد دنكيل حاكم الخماسين ومنليك ملك شوا ، والرأس بارو وغيرهم . وكان فى استطاعة مصر لو أحسنت اختيار القائمين على أمور الحملة أن تستغل هذا التنافس إلى حد كبير .

ولم يكن ليوحنا جيش أسوة بسائر الدول المتحضرة ، بل كانت الطريقة التى تتبع فى حالة تعرض البلاد لخطر خارجى ، أن يطلب يوحنا من رؤوسه إمداده بالرجال اللازمين لمواجهة هذا الخطر . وفى نفس الوقت ، يقوم بالطواف فى عاصمة ملكه وفى البلاد المجاورة له مناديا بالحرب ، حاثا الأهالى على القتال ، ويعاونه فى ذلك قساوسة الحبشة ، فيجتمع لديه عدد كبير من الأعمال من محاربين ونساء وأطفال كعادتهم فى القتال . ثم تندفع هذه الجموع التى تشكل جيشا كبير العدد فى سيرها . وتنقض على القرى المعادية وتسطو على كل ما تصل إليه أيديها من مؤن لتزود بها كى تواصل القتال ، فلذا نجد أن ملك الحبشة لا يكبد نفسه مصاريف طائلة

في إعاشة جنوده أسوة بالدول المتقدمة ، لأن هذا العمل يخالف عاداتهم ، فضلا عن كونه لا قدرة له على الصرف ^(١) .

وليس هؤلاء الجنود « ماهية ولا مرتب » بل يعطى لهم ما قد يغتنموه من الغنائم في الحروب ، وأن الحكومة لا تعطيهم شيئا في حالة عدم وجود الغنائم ^(٢) .

أما من ناحية النظام الحربي ، فالجندي الحبشي يحمل النظم الحربية الحديثة جهلا تاما . إذ تسير القوات الحبشية دون أى نظام ويختلط المشاة بالفرسان . كما أن فرسانهم وإذا أرادوا الهجوم يسوقون خيلهم بالضرب غير المنقطع بالكراباج الذى يحملونه في أيديهم لأنهم لا عهد لهم بالمهموز أو ما يماثله . ويحمل كل جندي معه سلاحه وذخيرته ^(٣) .

ولا تعرف القوات الحبشية قيادة حربية تنظم حركاتها ، فالأحباش لا يعرفون التنظيمات الحربية الحديثة من تقسيم قواتهم إلى قلب وجناحين . كما لا عهد لهم بإقامة النقاط الأمامية أو الخلفية . ولهذا السبب كان يوحشا يتحاشى الدخول في حرب نظامية في

(١) المحفوظات التاريخية بالقصر الجمهورى ، محفظة ٨ سودان سنة ١٢٩٢ (تقرير رجب صديق معاون عن الحملة الحبشية الثانية) .

(٢) المحفوظات التاريخية بالقصر الجمهورى محفظة ٢٩ « معيه تركى » من موسى حمدى حكمدار السودان لى صاحب السعادة المهردار وثيقه رقم ٧٥ في ١٤ صفر سنة ١٢٧٩ « أغسطس سنة ١٨٦٢ » .

(٣) المحفوظات التاريخية بالقصر الجمهورى محفظة ٨ سودان سنة ١٢٩٢ « تقرير رجب صديق معاون » .

مناطق سهلة ، بل يعتمد في حربه على عنصر المفاجأة الى حد كبير
وإلى مهاجمة القوات المنعزلة وكذلك القوات المتأخرة أو التي
تعسكر في النقط الامامية .

ويعتمد الاحباش في تكتيكهم الحربى أيضاً على اجتذاب العدو
الى داخل البلاد والتعرض له في المضائق والأماكن الوعرة التي
لا يسهل فيها التحرك بيسر وسهولة ، وخصوصاً إذا كان يعتمد في
عملياته الحربية على المعدات الثقيلة وعلى البنادق البعيدة المدى .
فأفضل وسيلة يلجأ اليها الاحباش لإبطال مفعول تلك المعدات
الحديثة هو الالتحام بأجسادهم والدخول في معركة حاسمة بأعداد
هائلة تستخدم فيها الأسلحة البيضاء . أى أن الاحباش قد نجحوا في
الإستعاضة عن جهلهم بالنظم الحربية الحديثة وافتقارهم الى الأسلحة
الجديدة الفتاكة ، بطريقة المفاجأة والهجوم بأعداد ضخمة في
مناطق لا يسهل فيها للمهاجم استخدام أسلحته استخداماً صحيحاً ،
مستغلين في ذلك طبيعة بلادهم التي يعرفونها حق المعرفة .

أما عن أسلحته فكان معظم أفراد الجيش يحمل المراتل
والمزاريق والرماح والأسلحة البيضاء ، والقليل منهم يحملون بنادق
قديمة قريبة المدى ، وليست ذات أثر فعال في سير الحرب . كما
كان لدى الجيش الحبشى بعض قطع من المدفعية ، بعضها منع من
قبل الحكومة الانجليزية ، والبعض الآخر أخذ من المصريين في
حملة أرندروب . ولكن تلك المدافع كانت عديمة الفائدة بالنسبة

اليهم نظراً لإفتقارهم إلى من يستطيع استخدامها بكفاية ومهارة^(١).

ولم يكن للأحباش في ذلك الوقت دراية بالخدمات الطبية ، بل كانت معرفتهم لهذا النوع من العلوم تقوم على السحر وكتابة الأحجية والرقية والخزعبلات . وأن فن الجراحة كما يعرفونه ينحصر في عمليتين لا ثالث لهما^(٢) : الأولى تتلخص في أنه إذا أريد إخراج إحدى الطلقات من جسم المصاب ، كان عليهم أن يضعوا نوعاً من أوراق الشجر على موضع الجرح لمدة نصف ساعة ثم تنتزع بعد ذلك ليوضع عليها شيء أشبه بالسوار ، ثم تستخرج الطلقة من العضو المصاب بطريقة المص .

والعملية الثانية : أنه في حالة إصابة عضو من أعضاء الجسم بطلق نارى أو بطعنة من رمح ، والتأكد من عدم صلاحيته للعلاج ، أن يبتز هذا العضو بواسطة حجرين .

الجندى الحبشى فى الميزان

هذا فيما يتعلق بالجيش الحبشى بصفة عامة ، أما فيما يختص بالجندى الحبشى كمحارب فلا جدال فى أنه محارب من الطراز الأول .

١ - المحفوظات التاريخية بالقصر الجمهورى بحفظه ٢٩ « معيه تركى » من موسى حمدى حكمدار السودان إلى مهردار الخديو ، وثيقه رقم ٧٥ فى ١٤ صفر سنة ١٢٧٩ « أغسطس سنة ١٨٦٢ » .

(2) Dye : Moslem Egypt, P. 47.

فبالرغم من جهله بالنظم الحرية الحديثة فقد عوضه ذكاؤه ودهاؤه الشديد عن هذا النقص . فله خبرة كبيرة بطبيعة بلاده وبأنواع الحروب التي تتلاءم مع تلك الطبيعة ، ومقدرة تامة على اجتذاب العدو واستدراجه الى المناطق المناسبة له لبدء القتال . كما يمتاز بمقدرة فائقة على تسليق المرتفعات والأشجار بسهولة عجيبة تدعو إلى الدهشة وذلك للإنقضاض على العدو كالصاعقة .

وإن درايته الواسعة بأساليب الحرب في الجبال والمناطق الوعرة تفوق درايته في أى فن آخر من فنون القتال . فنجد مثلاً أنه يقوم بصنع ذخيرته وحرابه بنفسه ، وكذلك الأقواس والسهام ، ويتولى بنفسه أيضاً صنع طلقات البنادق والطبنجات من الحديد الخام . ولكن نظراً لعدم إلمامه إلماماً كافياً بعملية صهر الحديد وسبكه لم تكن مصنوعاته من الحديد على درجة كبيرة من الصلابة^(١) .

وخلاصة القول فالجندى الحبشى محارب بطبعه ، ولكنه يتصف بالغرور وبالحب للنأر . وهو نشط وسريع التأثير ، محب لأعمال الشغب والفوضى . ويمتاز أيضاً بجرأة وتهور وعدم مبالاة بما يحقد به من أخطار . وكما يقول الأمير الالوى داي وبالاختصار

(١) المصدر السابق .

فهو حاد البصر يجيد الرماية ، وذكى ، شجاع ، متكبر يتعشق الحرية في الحرب والصيد . (١)

وإذا وضعنا كل هذه المميزات التي يتمتع بها جنبا الى جنب ، بالإضافة الى كثرته العددية ، وطبيعة أرضه الملائمة لإستعداداته الحربية ، وقارنا بينها وبين ما عليه الجيش المصرى المهاجم من قوة وضعف ، ووازننا بين نقط القوة والضعف فى كل منهما ، أمكننا أن نرجح كفة الجيش الحبشى قبل أن نبدأ الدخول فى تفاصيل المعركة القادمة .

(١) المصدر السابق .

الفصل التاسع

معركة قرع

أصبح من المقرر أن تفاجئ القوات الحبشية مقدمة الجيش المصرى بين ساعة وأخرى . وبدأت القيادة المصرية تحس بأن الحلقة المضروبة حولها تضيق شيئا فشيئا ، وأن من الواجب عليها القيام بأى عمل للخروج من تلك الحلقة . فأرسلت الكابتن أيرجنس لاستطلاع مواقع الاحباش وتقدير عدد قواتهم ومعرفة خط سيرهم . وقد قام أيرجنس بهذا العمل بمصاحبة القس الفرنسى دوفلو . ولم يكن هذا القس موضع ثقة الضباط المصريين من أمثال أحمد عرابى وزملائه . وفى حقيقة الامر فإن هذا الشك له ما يبرره ، فالمبشرون الفرنسيون كانوا يعملون فى صفوف الاحباش لتعبئة الشعور الحربى ضد مصر . كما أن موقف فرنسا من مصر لم يكن يخفى على أحد من المسؤولين المصريين ، وقد أوضحنا من قبل كيف أن نائب القنصل الفرنسى سارزاك Sarzac قد نجح فى نقل الأسلحة الفرنسية المرسلة إلى الحبشة عبر الخطوط الحربية المصرية خلال حملة أرندروب .

دلت التحريات التى قام بها أيرجنس على أن قوات يوحنا تقترب من المواقع المصرية ، وتتقدم فى جهة يتراوح طولها بين

ستين وسبعين كيلو مترا . عندئذ بدأت القيادة المصرية تشعر بخطورة الموقف وتقدر القوات الحبشية الزاحفة حق قدرها . وكلما زاد اقتراب العدو من موقع قرع ، كلما اشتدت رغبة الضباط الجراكمه في الانسحاب وتجنب الاصطدام .

وفي هذا الموقف الحرج ، كان لابد أن تتعاون هيئة أركان حرب الحملة مع قيادة الجيش لئدير الأمر ، ولتنفيذ خطة موحدة يزاء هذا الخطر الداهم . ولكن حدث العكس إذ نجد أن الجنرال لورنج رئيس هيئة أركان الحرب يحاول التنصل من المسئولية الخطيرة الملقاة على عاتقه بالاشتراك مع قيادة الجيش بعد أن فشل في اقناع راتب باشا بوجهة نظره ، وترك له وحده مهمة التصرف في الأمر بالطريقة التي يراها ، ليكون مسئولاً بمفرده دون سواء عن كل النتائج التي تترتب على ذلك .^(١)

وتفصيل ذلك أن الجنرال داي مساعد رئيس هيئة أركان حرب اقترح - في ذلك الوقت - على قائد الحملة إحداث بعض التغييرات في مواقع القوات المصرية ، فبدلاً من بقائها في سهل قباخور ، عليها أن تحتل قم الجبال المحيطة بهذا الموقع وإنشاء الاستحكامات اللازمة للدفاع عن ممر قباخور . على أن تصدر الأوامر إلى الحامية الموجودة بقلعة قرع بأن تكون على أهبة الاستعداد لصد أي هجوم مفاجئ . عليها ، وكذلك للحاق بالقوة المعتصمة فوق مرتفعات قباخور في

(١) المصدر السابق .

أى وقت من الأوقات . ولكن هذه المقترحات لم تنل موافقة راتب باشا (١) وبذلك أصبحت هناك ثغرة بين حامية قياخور وحامية قلعة قرع كان من الضروري على القيادة المصرية أن تسدها . وبعد مناقشات طويلة أمكن اقناع القائد العام بالعدول عن سحب حامية قياخور ، ولكنهم فشلوا فى حمله على ضم حامية قرع اليها .

ومن سوء حظ الحملة أن انعدم التعاون بين قائدها راتب باشا وبين رئيس هيئة أركان الحرب الجنرال لورنج ، فكان القائد العام لا يلجأ الى أخذ مشورة لورنج إلا فى المسائل الهامة جدا والتي يخشى البت فيها بمفرده حتى لا يتحمل مسئوليتها وحده . وفى نفس الوقت قلما كان يأخذ برأيه .

وقد أسفر عدم التعاون والانسجام بين القيادة من ناحية وهيئة أركان الحرب من ناحية أخرى الى اختلاف وجهتى نظرها بشأن المعركة . فبينما كانت القيادة تصر على بقاء القوات المصرية متفرقة كانت الهيئة تعمل جاهدة على تركيزها فى المواقع الأمامية لتغطية مرقياخور وللدخول فى معركة فاصلة مع قوات الملك يوحنا .

وصنف مبراهم المعركة (انظر خريطة رقم ٥)

يمتد سهل قرع الذى اختير ليكون ميدانا للمعركة من الشمال الى الجنوب مسافة تقرب من سبعة أميال ، ويتراوح عرضه بين

ميل وميلين وتغطيه أحراش كثيفة تساعد قوات المشاة على الاختباء خلفها، ولكنه متسع بحيث يسمح لقوات المشاة أن تتحرك في أى اتجاه . وتحيط بهذا السهل المرتفعات من كل جانب ولكنها لا تعوق عبور المشاة لكثرة ما بها من فتحات تصل السهل بالقرى المجاورة له . وفي جنوبه قامت القوات المصرية الرئيسية بحفر الخنادق وإنشاء المتاريس التى يحتمى خلفها ما يقرب من ٧٧٠٠ جندي، تضم بعض فصائل من الفرسان وعددا من مدافع كروب و صلب وأربع بطاريات نحاسية . بالإضافة الى ستة مدافع جبلية وسبعة صواريخ .

أما حامية قياخور فتقع على بعد ثلاث ساعات خلف القوات الرئيسية بقرع، وتحتل سهلا تكنتفه الكثير من المرتفعات، ويمكن الوصول إليه عن طريقين : أحدهما من شماله ويصله بسهل حواله ممر ضيق . والآخر فى جنوبه ويربطه بسهل قرع ممر متسع شديد الانحدار . وفى وسط سهل قياخور يوجد تل مرتفع اتخذته حاميتها بقيادة عثمان باشا مقرا لها . وتتكون الحامية من حوالى ٢٥٠٠ جندي من المشاة وثلاث فصائل من الفرسان وصاروخين وست قطع من المدافع الجبلية . ونتيجة لطبيعة الأرض المحيطة بهذا الموقع، أصبح فى عزلة عما يجاوره من قوات عسكرية، وفى نفس الوقت فلا تستطيع قسواته الانسحاب أو الهرب عند الحاجة .

وبهـذا التوزيع السيء للقوات العسكرية المصرية أصبحت القيادات الأربعة يبرزة وعدسة وقياخور وقرع في معزل تام عن بعضها . وكان في استطاعة الملك يوحنا أن يهددها جميعا ، وأن يقضى على كل واحدة منها على انفراد دون أن تتمكن القيادات الأخرى أن تخفف لنجدتها . ومن هنا كانت الخطورة في أن يركز يوحنا هجومه على قياخور ويقضى على قواتها ، ويقطع خط الرجعة على القوات الرئيسية بسهل قرع دون أن تستطیع المواقع الأخرى انقاذها . وهذا ما كان يقلق بال القيادة العامة للجيش ^(١) .

مكثت القوات المصرية بسهل قرع من ٢ - ٧ مارس سنة ١٨٧٦ ^(٢) وكانت تتلقى خلال تلك الفترة الأنباء اليومية عن تحركات الأحباش وقد راجت الشائعات بأن الملك يوحنا ينوى مهاجمة المصريين في يوم الثلاثاء ٧ مارس وذلك لتفاؤله بهذا اليوم ^(٣) .

ونظرا لتشتت القوات المصرية في مواقع منفصلة بعضها عن بعض ، كان يرى القائد العام للحملة أن تظل الجنود المصرية داخل استحكاماتها للدفاع عن نفسها ومقاومة الأحباش .^١ ولكن كلا من الجنرال لورنج رئيس هيئة أركان حرب الحملة ومساعدته الأميرالاي

(1) Dye ; Moslem Egypt. P. 338

(2) Bulletin d'Institut Egyptien. Von Thurneysen.

٣ - المحفوظات التاريخية بالقصر الجمهوري ، مخططة ٨ ، السودان سنة ١٢٩٢
« دفتر شامل عن الحرب الحبشية الثانية وضع رجب صديق المعاون » .

داى كان يعارض هذا رأى د ويصر على وجوب خروج جز.
من الجنود المعسكرين فى قلعة قرع للمحاربة^(١) ،

وأخيرا عندما بدت طلائع الأحباش تلوح للقوات المصرية
دق ناقوس الخطر واتخذ الجنود المصريون موقف الإستعداد .
وأشيع بأن الملك يوحنا يعتزم مهاجمة موقع قياخور بقوات كبيرة .
وفى صبيحة ٧ مارس قرر راتب باشا إنزال بعض القوات المصرية
إلى ميدان القتال . وغادرت تلك القوات التى تتكون من ثمانى
أورط وبلوكين ونصف من الفرسان و١٢ قطعة مدفعية جبلية
وأورطتين من المشاة كاحتياطى للمعركة ، استحكاماتها وتقدمت
للإنضمام إلى حامية قياخور تحت قيادة عثمان رفقى باشا^(٢) .

معركة قرع

عندما وصلت القوات المصرية إلى سهل قرع الذى سينخذ
ميدانا للمعركة والذى يبعد عن القلعة بنحو ثلاثة أميال ، شاهدت
على المرتفعات المقابلة لهذا السهل كتلا بشرية كثيفة تبدوا كالنمل
لكثرة عددها^(٣) . وما أن رأت القوات المصرية تتحرك إلا واندفعت

(١) المصدر السابق .

(2) Bulletin d'Institut Egyptien. Von Thurmeyesen.

٣ - المصدر السابق .

نحوها كالسيل من فوق المرتفعات وانتشرت في جنبات السهل للإحاطة بها . وعندئذ بدأ إطلاق النار على طول خط القتال وأخذت المدفعية المصرية تلعب دورا هاما في حصد تلك الجموع وفي تشتيت شملها . ويصف لنا تورنيزن المعركة بقوله : « لقد بدأ إطلاق النار على طول خط القتال واشتبكت البطارية وأورطة المشاة الموجودة بالجناح الايمن مع قوات العدو في قتال عنيف . فأرسلني رئيس هيئة أركان حرب لاستحضار نجدة من الجناح الايسر . فعدت ثانية وأنا مؤمن بالنصر ... وكانت دهشة شديدة عندما ما شاهدت فصائل كثيرة من قلب الجيش المصرى قد توقفت عن إطلاق النار دون صدور أمر اليه— بذلك . واتجهت تلك الفصائل نحو اليسار حاملة بنادقها على اكتافها ، وغادرت ميدان القتال بهدوء ، ناكسة على أعقابها ومتجهة صوب القلعة التى غادرناها منذ وقت قصير (١) » .

وقد انتقلت عدوى الانسحاب من أورطة الى أخرى ، ولم يستطع الضباط السيطرة على الموقف أو الحيلولة بين الجنود وبين تركهم ميدان القتال . ويرجع السبب فى هذه الحركة الى الخوف والذعر اللذين سيطرا على الجنود نتيجة لانسحاب القائد العام راتب بصحبة الأمير حسن خوفا على حياته بعد أن اشتد القتال . وكان من المرجح أن تنتصر القوات المصرية فى المعركة إذا ما واصلت القتال . ولكن هذه الحركة أتاحت للأجباش فرصة

الاتفاف حول الجناح الايمن للجيش المصرى والفصل بين القوات المصرية المحاربة وحامية قياخور .

وعندما اشتدت حركة الانسحاب واتخذت مظهر الهزيمة والفرار إندفع جنود الاحباش من فوق المرتفعات كالصخور الهاوية ، والتحموا مع القوات المصرية بالسلاح الابيض حتى أفنؤهم عن آخرهم ، إلا من استطاع الهرب أو الالتجاء إلى القلعة .

كانت خسارة المصريين فى تلك المعركة سبع أورط بأكملها وكذلك كل مدافع الميدان ، أما عن الخسائر التى منى بها العدو فى هذا اليوم فهى نحو ٣٥ ألف نفر تقريبا بين قتيل وجريح على أقل تقدير . كما أن ثمانية من وزرائه ذوى الشهرة الكبيرة قتلوا فى هذه الواقعة (١) .

ويبدو أن خسائر الاحباش كانت كبيرة ولكن بولغ فيها إلى حد كبير لسببين : —

أولا : أن من غير الميسور معرفة عدد قتلى الاحباش بالدقة نظرا لحرصهم على أخذ موتاهم قبل انسحابهم من ميدان المعركة .
ثانيا : أن الحديو اسماعيل قد طلب (٢) من قائد الحملة المبالغة

(١) المحفوظات التاريخية بالقصر الجمهورى محفظة رقم ٨ سودان سنة ١٢٩٢ (تقرير رجب صديق المعاون عن الحرب الحبشية الثانية) .

(٢) المحفوظات التاريخية بالقصر الجمهورى دفتر ٣٧ عابدين صادر تلغرافات شفرة عربى . وثيقه رقم ٥٣٨ س ٩٩ — فى ١٧ صفر سنة ١٢٩٣ .

في تقاريره التي يبعث بها الى مصر عن خسائر الجيش الحبشى كما حذّره أيضا على إعلان تلك الخسائر أمام الأجانب ليتفق ذلك مع ما ذكرته ^(١) الصحف المصرية عن خسائر العدو الفادحة التي منى بها ذرا للرماد ، وحتى لا يؤدى فشل الحملة المصرية في تحقيق أغراضها الى تدمير في صفوف المصريين ، وإلى إضعاف مركز الحديبو اسماعيل أمام الدول الأوروبية .

ويذكر احمد عرابي بك بأن ضباط هيئة أركان الحرب الأوربيين قد خلعوا طرايشهم أثناء المعركة ولبسوا القبعات ، وربطوا أعناقهم بمناديل بيضاء ، دلالة على أنهم مسيحيين فيأمنون على أنفسهم عند اشتباك الجيشين على حسب الإتفاق مع القسايس السابق ذكره (الأب دفلو ^(٢)) .

وهذا يدل - سواء صح هذا القول أو جانبه الصواب - على مدى الشك والريبة التي يكنها الضباط المصريون والأتراك لهؤلاء الضباط الأجانب . وبما يؤخذ على عثمان رفيق قائد حامية قياخور أنه لم يهب إلى نجدة زملائه أثناء المعركة وقد كانوا على مقربة منه . ويذكر احمد عرابي هذا الحادث بقوله ، « إنه لما يحمر له الوجه خجلا مرور الجيش الحبشى من أمام فرقة قياخور أثناء هجومه على

(١) المحفوظات التاريخية بالقصر الجمهورى دفتر ٢٨ عابدين (صادر تلغرافات)

شغرة تركى . وثيقة رقم ١٣ ص ٥٠٥ ملحق ٢ في ١٨ صفر سنة ١٢٩٣ .

(٢) كشف الستار « مخطوط » ص ٢٦ .

منطقة تصل اليها مقذوفات المدافع وتنكى بالعدو فكاية عظيمة ، وتمنعه عن التقدم ، ولم تطلق عليه مقذوفة واحدة ولم تخرج البيادة الى الميدان لتساعد اخوانهم وتنقذهم من الفناء المحقق بهم .^(١) ، وفي الحقيقة كان في إمكان تلك الحامية أن تؤدي خدمة هامة لجنود المعركة ، فكان في استطاعتها الهجوم في الوقت المناسب ومفاجأة العدو والانقضاض على ميسرته وتبديد شملها ؛ وحصر الأحباش بين (فكي كاشة) والقضاء عليهم . ولكن يبدو أن عثمان رفقى قائد حامية قياخور قد هاله كثرة عدد الأحباش ، فجن ورضى بالبقاء داخل استحكاماته تاركا زملاءه يلقون حتفهم مؤثرا السلامة على خوض معركة غير مأمونة النتائج .

وبانضمام الجنود الفارين من ميدان القتال الى الأورطتين السابق تركهما في القلعة أصبح مجموع ما بداخل القلعة من جنود يزيد قليلا عن ألفي جندي . وفي مساء ليلة ٨/٧ مارس حضر الى القلعة عدد من الجرحى يتراوح بين ١٢٠٠ و ١٥٠٠ في حالة يرثى لها . جميعهم - بلا استثناء - قد جردوا من ملابسهم وشوهوا وتشويها كبيرا . ونظرا لكثرة عدد الجنود الجرحى فقد تكبد بعض بعضهم فوق بعض ومات عدد كبير منهم لقلة العناية بهم ، ولعدم توافر الأطباء اللازمين ، اذ لم ينج منهم بعد المعركة غير ثلاثة أطباء فقط^(٢) . كما

(١) المصدر السابق .

(2) Bulletin d'Institut Egyptien.

لم يستطع الجنود في تلك الليلة الخروج لجلب المياه من الخور القريب منهم . وانقضت تلك الليلة في فزع ورعب شديدين ، وظل الجنود المصريون يطلقون نيران أسلحتهم بلا هدف معين . وفي اليوم الثاني (٨ مارس) أخذت قوات القلعة تدفع هجمات متتالية عليها .

وفي يوم ٩ مارس حاول الأحباش أن يعيدوا الكرة وأن يقوموا بمحاولاتهم الأخيرة لانتزاع القلعة والقضاء على ما تبقى من الحامية المصرية ، فبدأوا يتجمعون على المرتفعات المحيطة بسهل قرع وبدأوا ينصبون المدافع في مواجهة القلعة . ثم قاموا بهجوم منظم عليها ، وحشدوا لذلك أعدادا هائلة . ولكن لحسن حظ المصريين لم يكن الأحباش يعرفون استخدام المدافع ، ولذا لم تستطع قذائفهم أن تنال من القلعة . وفي ذلك الوقت قامت المدفعية المصرية الثقيلة بإسكات المدفعية الحبشية والقضاء عليها ، مما أهاج الأحباش ودفعهم الى الهجوم بتهور منقطع النظير في كتل بشرية ضخمة حتى وصلوا الى مسافة عشرة امتار من القلعة . ونظرا للخسائر الفادحة التي منوها بها فقد انسحبوا في حوالى الخامسة بعد ظهر ذلك اليوم .

وفي حقيقة الامر ، فقد أبلى جنود الأورطين من المشاة الذين لم يشتركوا في موقعة أول أمس وبقوا في الطاية ، بلاءً حسناً وأثبتوا اخلاصهم لدرجة تفوق الوصف ، فبذلوا مهجهم ولم يخشوا بأسا

من الرصاص الذى كان يطره العدو . وقد بلغت خسائرننا فى معركة اليوم من القتلى ، معاون بيادة واحد وثلاثة من الضباط و ١٢ جنديا ، وليس لدينا خسائر أخرى . ^(١)

ويذكر احمد عرابى بأن الاحباش كانوا يستخدمون المصريين الأسرى فى اطلاق المدافع التى اغتتموها من الجيش المصرى على اخوانهم بالقلعة ، ويقول بأن الاحباش قد هجموا فى ذلك اليوم على القلعة هجوما شديدا ، وتسلقوا على جدرانها بشجاعة عظيمة يدوسون قتلاهم وجرحاهم لا يبالون الموت ولا يظهرن عجزا ، الا أن عساكر الاورطة المستجدة وضباطهم وراتب باشا ومن معه من المعاوين أبلوا بلاء حسنا وردوا الاحباش على أعقابهم خاسئين مدحورين . ^(٢)

واذا ما قارنا بين نتيجة هذه المعركة ومعركة أول أمس ، نجد أن الجيش المصرى قد استطاع أن يعوض الخسائر التى منى بها فى الموقعة الأولى وأن يكبد الاحباش خسائر جسيمة . ويرجع الفضل فى ذلك الى اعتصام القوات المصرية باستحكاماتها وعدم التعرض للاحباش وجها لوجه . وهذا يدل على صواب الرأى الذى نادى به راتب باشا من قبل وعارضه لورنج رئيس هيئة أركان حرب الحملة .

(١) المخطوطات التاريخية بالقصر الجمهورى بحفظه رقم ٨ سودان سنة ١٢٩٢
(دفتى شامل حرب الحبشة الثانية وضع بمعرفة رجب صديق افندى معاون) .
(٢) أحمد عرابى : كشف الستار عن سر الأسرار « مخطوط » ص ٢٠ .

وعندما أيقن الملك يوحنا - بعد الخسائر التي لحقت به في المعركة الأخيرة - ألا قبل له على مقاومة القوات المصرية أو القضاء عليها ، وخصوصا بعد أن وصلت إلى قرع ثلاث أورط مصرية جديدة لتعزير حاميته^(١) . وسنتناول في الفصل التالي تفاصيل تلك المفاوضات وما أسفرت عنه من نتائج .

انتهت تلك الحرب الفاشلة بعد أن كلفت مصر خسائر كبيرة قدرها تورنيزن بما يقرب من ١٤ ألف مقاتل بين قتل وجريح بما في ذلك من لقوا حتفهم بعد عودتهم إلى مصر نتيجة ما ألم بهم من تعب ، وما حملوه معهم من جراثيم الأمراض من الفتاكة .

أما عن دواب الحمل فقد نفق منها ما لا يقل عن اثنتي عشرة ألف دابة حسب تقرير نظارة الجهادية^(٢) . ويذكر دى فرنسشيني Du Franceschini قنصل النمسا الجنرال بمصر أن تلك الحملة قد كلفت الخزانة المصرية ما لا يقل عن ١٨٠٠.٠٠٠ جنيه كنفقات للحرب وما لا يقل عن ١٥٠.٠٠٠ جنيه للعتاد الحربي والأسلحة الحربية .^(٣)

(1) Amer. Doc. vol. 12 Despt. No. 9 E. Farman to Hamelton Fish Cairo Juin 1st 1876.

(2) Bulletin d'Institut Egyptien.

(3) Alex.-Caire 1876, Fasc. XXXVIII/176 Rapport du Consul du Franceschini au Ministère de l'Extérieure Z. 25/pol. Alex. le 9 Juillet 1876.

أسباب فشل الحملة :

يرجع فشل الحملة في تحقيق أغراضها إلى أسباب متعددة ،
فبالإضافة إلى ما ذكرناه من قبل يمكننا أن نرجع السبب الرئيسي
في إخفاقها إلى عدم وجود قيادة موحدة للحملة من الناحية العملية ،
ففي حقيقة الأمر كان للحملة قيادتان متنافرتان : الأولى يمثلها القائد
العام راتب باشا ، والثانية يمثلها لورنج رئيس هيئة أركان الحرب ،
ومن سوء حظ مصر أن كلا من الرجلين يختلف عن الآخر في
أكثر من ناحية . ولم تكن المجالس الحربية التي تعقد لوضع الخطط
العسكرية وتفصيلات الهجوم على الحبشة - في واقع الأمر - بذات
سلطة حقيقية بجانب سلطة القائد العام للحملة . وما كانت تعقد
إلا لإشراك ضباط الحملة في المسؤولية فقط دون أن تكون
قرارتهم ملزمة للقائد العام . فالتعاون المفقود بين القيادة وهيئة
أركان الحرب كان من أهم النكبات التي منيت بها الحملة .

ومن الأسباب التي عملت على إضعاف الحملة أيضا وجود عدد
كبير من الضباط من مختلف الجنسيات . فالضباط الأتراك
والچراكسه كانوا يحتلون المراكز الرئيسية في الحملة بينما حرم منها
الضباط المصريون الذين كانوا يشعرون بعدم المساواة بينهم وبين
زملائهم الچراكسه . زد على ذلك الضباط الأجانب الذين كانوا
يتقاسمون السلطة مع الضباط الچراكسه . ومن هنا نشأ حقدهم
عليهم . ولما كان هؤلاء الضباط الأجانب من مختلف الجنسيات

فقد أدى هذا - بطبيعة الحال - إلى اختلافهم في الثقافة وخصوصا الثقافة العسكرية ، وكذلك إلى اختلافهم في الآراء والاتجاهات . ورغم أن معظم هؤلاء الضباط من الأمريكيين الذين دخلوا في خدمة الحكومة بعد انتهاء الحرب الأهلية الأمريكية ، إلا أن هذه ليست ميزة بالذمة للجيش المصري ، بل على العكس من ذلك ، فقد كانوا من أسباب ضعفه . فالحرب الأمريكية التي قسمت الشعب الأمريكي إلى فريقين متناحرين : أنصار الشمال وأنصار الجنوب ، وانتهاء تلك الحرب بانتصار الشماليين على الجنوبيين قد ترك أثرا سيئا في نفوس الفريقين المتناحرين . وهذا الأثر قد ظهر واضحا في عدم التعاون التام بين هؤلاء الضباط من الشماليين وجنوبيين أثناء خدمتهم بمصر .

ومن العبارات التي واجهت الحملة أيضا ، والتي لها دور هام في فشلها اجتماع هذا المتحف البشري من الضباط الأجانب في قيادة واحدة وللقيام بعمل واحد مع اختلاف اللغات التي يتكلم بها كل فريق منهم . فبعضهم لا يعرف سوى العربية والبعض الآخر لا يتكلم إلا التركية فحسب . وقليل منهم من يعرف الانجليزية أو الفرنسية إلى جانب لغته التي يتحدث بها . ومن الأمثلة على ذلك أن قائد الحملة راتب باشا كان يعرف التركية ويجيد الفرنسية ولكنه لا يفهم شيئا من اللغة الانجليزية . بينما كان رئيس هيئة أركان حرب الحملة وهو أمريكي الأصل لا يجيد سوى الانجليزية

ولا يعرف من اللغة الفرنسية إلا النذر اليسير . فكان التفاهم بينهما وخصوصا في المسائل العسكرية التي تتطلب السرية التامة يكاد يكون مستحيلا . وكذلك الشأن بالنسبة لبقية ضباط أركان الحرب الأجانب مع الضباط الأتراك . فتعدد اللغات في الحملة كان من النكبات التي منيت بها .

كذلك نجد أن الحديو إسماعيل إهم بحشد هذا العدد الضخم من الضباط المنتقلين إلى هيئة أركان الحرب في الحملة ، وذلك لإختيار نظام الهيئة الذي أدخل حديثا في الجيش المصرى بصفة عملية ، فهذا النظام الذى أخذت به معظم الجيوش الأوروبية في القرن التاسع عشر قد أخذ به أيضا في الجيش المصرى فى أواخر حكم إسماعيل . فالجيش الحباشية من هذه الناحية كانت التجربة الأولى لاستخدام هيئة أركان الحرب ، ولكنها جاءت فى ظروف غير مواتية ، فاضطربت الأمور وتضاربت وجهات النظر .

ليس ببعيد أن يكون راتب باشا القائد العام للحملة والذي لا يؤمن بنظام هيئة أركان الحرب والذي يقدر النظام الحربى القديم الذى ينفرد فيه القائد العام بكل شئ ، قد عمل على معارضة آراء الضباط الأجانب ، يختلف السبل لتفشل الحملة ، وليمكن بذلك من تقديم البرهان العملى على عدم صلاحية هذا النظام للمسؤولين فى القاهرة .

وهناك مسألة على جانب كبير من الدقة والحساسية ، وقد أشار

إليها أحمد عرابي وذكرناها في غير هذا الموضع ، وهي الناحية
الدينية التي كان لها اعتبار كبير وقتئذ . فصر دولة مسلمة تحارب
دولة مسيحية وتستخدم في نفس الوقت ضباطا أجاناب مسيحيين
لحربها . فهذا الموقف قد وضع الضباط الأجاناب موضع الشك من
قبل ضباط الحملة من المسلمين . ومن هؤلاء من اتهمهم بالتواطؤ
مع الأحياس سرا ضد الحملة . وعلى أي حال سواء صح هذا الاتهام أم
جانبه الصواب فالمسئولية لا تقع على أكتاف هؤلاء الضباط الأجاناب ،
ولأنما تقع أولا وقبل كل شيء على أكتاف إسماعيل فهو الذي سمح
باستخدامهم في هذه الحرب . وسنجد أن مجرد الشك في تصرفات
هؤلاء الضباط يضعف ثقة الجنود بضباطهم مما كان له
أسوأ العواقب .

كما أن اعتماد مصر على الضباط الأجاناب لم يؤد إلى تقويتها
كما كان يظن بل على العكس من ذلك فقد عملوا على إضعافها ،
بطريق مباشر أو غير مباشر ، وأدى هذا إلى اضمحلال النفوذ
المصري في ممتلكاتها الأفريقية .

وفي حقيقة الأمر فإن استخدام مصر للموظفين الأجاناب على
نطاق واسع في عهد إسماعيل كان تجربة قاسية لم تكن مصر من
ورائها سوى الكوارث التي حلت بها ، ثم وقوعها في قبضة
الاستعمار الإنجليزي ، ثم ضياع كل الجهود التي بذلتها في القارة
الأفريقية في نهاية الأمر .

وإذا انتقلنا إلى المحاربين المصريين في هذه الحملة نجد أن معظمهم من المجندين الذين لم يألفوا الحرب ولم يتعودوا القتال ، بل زج بهم في هذه الحرب بعد تدريب سريع تم في فترة قصيرة من الزمن . هذا بالإضافة إلى عدم تماسك وحدات الجيش بعضها ببعض ، وتفرقها في مناطق عديدة منعزلة لا تمكنها من الاتصال ببعضها وتكتلها في الوقت المناسب . فملا نرى أن القوات المصرية كانت مبعثرة على طول الطريق إلى موقع قرع في مواقع مكشوفة وبينها ثغرات ، أهمها الثغرة الموجودة عند أسمره وجندا والتي لم يعمل راتب باشا على سدها مما جعل القوات المصرية في فزع دائم من مباغنة الأحياء لها في أية لحظة ، وترتب على ذلك تأخير تركيز القوات المصرية في المواقع الأمامية في الوقت الملائم .

هذا بالإضافة إلى أن موقع قرع لم يكن مناسباً من الناحية الاستراتيجية ، وكان الأصلح أن تنشأ تلك القلعة في مكان آخر يسيطر على طريق المواصلات الرئيسية ، ويشرف على وجه الخصوص - على طريق أراتو وأمهور اللذين سلكهما الأحياء أثناء تقدمهم .^(١)

كما أن الاختصار على مد الخط التلغرافي - لعدم كفاية المهمات اللازمة لذلك - إلى موقع بعزز فقط دون تكملة إلى موقع قياخور

أو قرع أثره في تأخير وصول الإشارات التلغرافية ، وبالتالى سبب في عرقلة ورود الإمدادات الحربية فى الوقت المناسب .

ومن الأخطاء الحربية الخطيرة التى كان لها أكبر الأثر فى هزيمة القوات المصرية فى المعركة التى دارت يوم ٧ مارس تقاعس عثمان رفقى عن نجدة حامية قرع فى الوقت المناسب ، مع العلم بأن القوات الحبشية المهاجمة كانت على مرمى مدافعه . ولو قام عثمان رفقى بواجبه لمالت كفة الحرب فى صالح المصريين ولو وقعت القوات الحبشية بين شقى الرحى ، ولكنه آثر السلامة والاعتصام داخل استحكاماته فسبب بذلك فى حدوث تلك المذبحة التى ذهب ضحيتها الآلاف من المصريين الأبرياء .

وهناك سبب آخر لفشل الحملة على جانب كبير من الأهمية ألا وهو انسحاب راتب باشا بالقوات المحيطة به - بعد أن حمى وطيس الحرب - خوفا على حياة الأمير حسن بن اسماعيل المرافق له . فهذا الانسحاب المفاجئ من قلب المعركة قدفت فى عضد الجنود ، وجعلهم وهم فى حومة الوغى يتساءلون عن السر فى هذا الانقلاب فى الخطة العسكرية دون سابق انذار ولكنهم لا يجدون جوابا . ثم تنتقل عدوى الانسحاب من كتيبة الى أخرى كما سبق أن أوضحنا . وفى حقيقة الأمر لم يكن راتب باشا يفكر فى سلامة الجنود بقدر ما كان يهتم بالحفاظ على حياة الأمير حسن . بل إن راتب باشا كان يرى أن اندحار القوات المصرية وتدميرها عن آخرها أهون

ضرراً وأخف وطأة من موت الأمير حسن أو تعرضه للأسر ، وما قد يترتب عليه من غضب الخديو . ولهذا يمكننا القول بأن إلحاق الأمير حسن بالحملة كان من أهم أسباب ضعفها في البداية ، وعاملاً هاماً من عوامل فشلها في نهاية الأمر .

وأخيراً وليس آخراً ، فإن راتب باشا رغم علمه مقدماً أن الموقعة ستحدث يوم الثلاثاء ٧ مارس نظراً لتفاؤل يوحنا بالحرب في هذا اليوم من الأسبوع ، فإنه لم يحاول القيام بأية محاولة لضم قوة قرع إلى حامية قياخور . وذلك للوقوف صفاً واحداً لملاقاة الأحباش قبل الموعد المحدد . ويعمل راتب باشا هذا التصرف بأنه جاء نتيجة اعتقاده بأن يوحنا سيهاجم قلعة قرع ولن يتعرض لحامية قياخور . وهذا يدلنا على مدى تقصير القائد العام وسوء تقديره . فمن المعروف والمسلم به أن القائد العسكري لا يبني خطته العسكرية على احتمال واحد دون أن يعمل حساباً لسائر الاحتمالات الأخرى ، حتى لا يفاجأ إذا ما تغيرت خطة العدو .

الفصل العاشر

نتائج الحملة

ترتب على فشل الحملة في تحقيق أهدافها نتائج خطيرة فيما يختص بمصر. أولى تلك النتائج ان تلك الحملة قد ألقت عبئا ماليا جديدا على كاهل الميزانية المصرية ، في وقت لم تكن حالة البلاد الاقتصادية أو المالية تسمح بمثل هذا الاسراف الذي أدى اليه تهور الضباط الأجانب الذين وكل اليهم اسماعيل رعاية مصالح مصر على حدودها الجنوبية .

فهذه التبعات الحربية قد أسهمت الى حد بعيد في إقدام الخديو اسماعيل على أخطر عمل تعرضت له مصر ألا وهو بيع حصّة مصر من أسهم قناة السويس الى الحكومة الانجليزية بشمن بخس ، وذلك في عام ١٨٧٥ . ففتح بذلك باب التدخل المشروع أمام إنجلترا في شئون مصر الداخلية والخارجية على السواء . فشراء الحكومة الانجليزية لأسهم مصر في القناة قد منحها حجة قوية تستطيع التذرع بها ، للتدخل في شئون مصر تحت ستار المحافظة على مصالحها المشروعة في هذا الممر الحيوى .

وبذلك أصبح لإنجلترا منذ ذلك الوقت شبه وصاية على شئون البلاد . وساعدها على ذلك أيضا ارتباط مصر المالى وضعف

مركز الخديو اسماعيل أمام الدائنين ومحاولته الاستجداد بمشورة
انجلترا وخبرتها لاجراجه من المأزق الذى تردى فيه . وهذا
الموقف الضعيف من جانب اسماعيل ، و الذى شجعها على التدخل
لوضع حد للتوسع المصرى على سواحل البحر الاحمر والصومال .
وعرفنا كيف وقفت الحكومة الانجليزية أمام تقدم حملة ماكيلوب
من الساحل الشرقى لافريقيا الى منطقة البحيرات لاجداد طريق
مأمون للواصلات بين هذه المنطقة والساحل ، وكيف نجحت
الحكومة الانجليزية فى الضغط على الخديو اسماعيل لسحب
الحملة والخضوع لأوامرها .

ولم تكف إنجلترا بما أحرزته من نجاح فى القضاء على الحملة ،
بل لقد صممت على وضع حد للتوسع المصرى على الساحل الافريقى
الشرقى بصفة نهائية ، فأرغمت الخديو اسماعيل على توقيع معاهدة
الغاء تجارة الرقيق فى مصر والسودان فى ٤ أغسطس سنة ١٨٧٧ .
وعززت تلك الاتفاقية بإنشاء خدمة بوليسية فى سبتمبر من نفس
السنة لمراقبة السفن التى تنخرع بسبب البحر الاحمر والتسابعة
للحكومة المصرية أو الافراد المصريين ، وتفقيشها . ووضع هذا
الجهاز البوليسى تحت إشراف الضابط الانجليزى ملكولم .

وفى ٧ سبتمبر سنة ١٨٧٧ وقعت الحكومة الانجليزية مع
الخديو اسماعيل معاهدة ثانية اعترفت فيها بسيادة مصر على الساحل
الصومالى حتى رأس حافون . وإذا نظرنا إلى نصوص تلك
المعاهدة نجد :

أولا : أن الدافع الأساسي لعقدها هو المحافظة على المصالح
الانجليزية في تلك المناطق بشكل يضمن تفوق النفوذ الانجليزي
في البحر الأحمر وسواحل الصومال . واهتمام إنجلترا بالبحر الأحمر
بدأ يظهر بشكل واضح عندما تمكن محمد علي من بسط نفوذه على
شبه الجزيرة العربية وسواحل البحر الأحمر في العشرينات من
القرن التاسع عشر . ولما كان البحر الأحمر له أهمية خاصة بالنسبة
لإنجلترا باعتباره أقصر الطرق المؤدية إلى إمبراطوريتها في الهند
وجنوب شرق آسيا ، بدأت تنظر بعين القلق إلى تقدم النفوذ
المصري في هذه المناطق الساحلية ، ورأت من الضروري تدعيم
نفوذها في تلك المناطق لدفع خطر النفوذ المصري . ولهذا تقوم
في عام ١٨٣٨ بالاستيلاء على عدن المشرقة على مدخل البحر الأحمر
من الجنوب ، وكذلك تضع يدها على جزيرة موسى القرية منها
والتابعة للسلطان محمد والى تاجورة في ١٩ أغسطس سنة ١٨٤٠ .
وفي سبتمبر من نفس السنة أخذت جزيرة أرباط من حاكم زيلع .

وقد دفع هذا التدخل من قبل إنجلترا - كما سبق أن أوضحنا -
الحكومة الفرنسية على أن تحذو حذوها ، فتقدم في عام ١٨٦٢ على
شراء أبوك من شيخ رسيطة التابع للسيادة العثمانية . وكذلك فعل
الإيطاليون بعصب في عام ١٨٧٠ . فأنجلترا قد وجدت نفسها إذن
في منافسة إستعمارية مع كل من فرنسا وإيطاليا في تلك المنطقة ،
وأن من مصلحتها في هذه الحالة الاعتراف بالسيادة المصرية في ظل

التبعية العثمانية ، في نظير الحصول على إمتيازات واسعة تحقق لها ما تبغيه من سيطرة ونفوذ ، ولتبعد بذلك النفوذين الفرنسى والأيطالى عن تلك المناطق . فضعف مصر الحربى الذى ظهر فى الحرب الحبشية قد شجع هذه الدول على التطلع إلى الممتلكات المصرية .

ثانيا : أن الحكومة الانجليزية أرادت بعقدها تلك المعاهدة مع الحكومة المصرية أن تصيب هدفين بحجر واحد ، فى الوقت الذى تعترف فيه بسيادة مصر على ساحل الصومال حتى رأس حافون ، إنما تحدد بذلك مدى إمتداد النفوذ المصرى فى تلك المناطق ، بحيث لن تستطيع مصر بعد إبرام تلك الاتفاقية أن تبسط نفوذها إلى أبعد من هذا الحد المنصوص عليه . فالاتفاقية إذن تسلب بالشمال ما أعطته باليمن . بل أنها فى واقع الأمر قد حرمت مصر من مد حدود ممتلكاتها على كل الساحل الصومالى حتى ميناء قسمايو جنوب مصب نهر جوبا .

ثالثا : رأت الحكومة الانجليزية أن الاحتفاظ لمصر بسيادتها على تلك المناطق ، إنما يعتبر بمثابة إبعاد هذه البلاد عن أطماع الدولتين الفرنسية والإيطالية ، وصيانة لها ريثما تنهأ الفرس لانجلترا لاحتلال مصر وملحقاتها فى السودان . فالاعتراف بحقوق السيادة المصرية على تلك البقاع يعتبر تمهيدا لبسط إنجلترا سيطرتها عليها عندما يتم لها الاستيلاء على مصر فى السنوات القليلة القادمة .

وخصوصا وأن إنجلترا قد بدأت فعلا التفكير في إحتلال مصر بعد أن تخلت عن سياستها التقليدية في المحافظة على ممتلكات الدولة العثمانية ، بعد شرائها لأسهم مصر في شركة قناة السويس . وبعد ما وجدت ما عليه مصر من ضعف حربي .

رابعا : وتوكيدا لنوايا إنجلترا الاستعمارية إزاء مصر أنها قد اشترطت في تلك المعاهدة أن يتعهد الخديو إسماعيل عن نفسه وعن خلفائه من بعده بعدم منح أية دولة من الدول أية مساحة من الأرض الداخلة في حوزتها . كما اشترطت أيضا بأن اعترافها بسيادة مصر حتى رأس حافون مرهون يتعهد السلطان العثماني أيضا بعدم منحه أية قطعة من أرض مصر أو من ملحقاتها لاية دولة أجنبية . وقد أرادت إنجلترا بحرصها على إبعاد أى نفوذ أجنبي عن مصر . فيما عدا نفوذها بطبيعة الحال . أن تمهد السبيل للاستيلاء عليها وحدها دون أن يكون لها شريك فيها ، ودون أن يتعارض نفوذها مع نفوذ أية دولة أخرى .

خامسا : إن المعاهدة قد منحت الحكومة الانجليزية إمتيازات واسعة ، فجعلت لها مركزاً ممتازا في مصر وفي ممتلكاتها على ساحل البحر الأحمر والساحل الصومالي ، ومنحتها حق تعيين مأموري قنصليات في جميع سواحل الصومال ، وأن يكون لهم مركز ممتاز في تلك الجهات . وكذلك أرغمت الخديو إسماعيل على منع تجارة

الرقيق من مصر وملحقاتها إلى السودان وأن تقوم السفن الانجليزية بمعاونة الحكومة المصرية في هذا الشأن ، وأن يكون لها صفة الضبط حتى على السفن التجارية المصرية .

هذا بالإضافة إلى تحديد الرسوم الجمركية على السلع الواردة إلى موانئ زيلج وتاجورة وسائر موانئ البحر الأحمر ، فيما عدا بلهار وبربرة اللتين أصبحتا من الموانئ الحرة .

سادسا : أن هذه المعاهدة رغم اعترافها بالسيادة المصرية على الساحل الصومالي حتى رأس حافون ، كانت مجحفة بحق مصر ، فهي من الناحية العملية لم تمنح مصر شيئا أكثر مما كان في حوزتها ، فهذا الساحل الصومالي كان في قبضة مصر من الناحية العملية ، ولم يزد إعراف إنجلترا بالسيادة المصرية على التسليم بأمر واقع ملموس ، بل إن إنجلترا رفضت بشدة أن تعترف بحق مصر في السيادة على أراضيها كاملة حتى مصب نهر جوبا ، وذلك لوجود أطماع لها في تلك المنطقة .

وزيادة على ذلك فإن تحديد الرسوم الجمركية الضئيلة على البضائع الواردة إلى تلك المناطق واعفاء الامدادات إلى مينائي بلهار وبربرة كلية من الرسوم الجمركية قد أضرب بمصر أبلغ الضرر ، وذلك بإعتراف الجازال غوردون نفسه ، فخسرت الحكومة المصرية الرسوم التي كانت تؤخذ على ما كان يصدر من هذين المينائين من أغنام وأبقار يقدر عددها سنويا بما يزيد عن ٧٠ ألف

رأس . بالإضافة الى ما تدفعه من جزية سنوية للباب العالي في نظير احتفاظها بهذين المينائين ، وما أنفقته فعلا في انشاء منسارة وحوض للسفن وبعض المنشآت العامة .

سابعاً : أن ازدياد نفوذ إنجلترا في ممتلكات مصر المجاورة للحبشة قد شجع الاحباش على عدم تسوية مشكلة الحدود بينهم وبين مصر ، بحيث ظلت هذه المسألة مثار مفاوضات بين الطرفين فترة طويلة من الزمن ، الى أن احتلت إنجلترا مصر ، فأمكنها بذلك من أن تسوى مشكلة الحدود بين البلدين في صالح الحبشة .

بذور الثورة العربية

لم تكن الثورة العربية وليدة عصر توفيق فحسب ، بل ان جذورها تمتد في الماضي الى العهود التي سبقته . فهي ثمرة أخطاء وراسب القرن التاسع عشر بأكمله . ولكل ثورة أسباب مباشرة وأخرى غير مباشرة . فمن الأسباب غير المباشرة فشل الحملة الحبشية ، وما صاحب ذلك من الشعور بالمرارة ومن ازدياد موجة السخط التي عمت المصريين على إثر مشاهدتهم لتلك المهزلة التي مثلها اسماعيل وكبار قواد جيشه من الأتراك والچراكسة . فبدلاً من أن يحاكم هؤلاء القادة عن أخطائهم وعن تهاونهم ، استقبلهم الحديو اسماعيل استقبال الأبطال الفاتحين ، وأنعم عليهم بالرتب والأوسمة والنياشين . بل لقد ذهب في هذه المهزلة الى أبعد الحدود فكافأ عثمان رفقي (الذي سيصبح ناظراً للجهادية بعد ذلك) على

تخاذله وخيائته التي سببت كارثة قرع بأن رقاها الى درجة أعلى . وبهذه المناسبة يذكر الأمير الای دای (مساعد رئيس هيئة اركان حرب الحملة) بأن ما ارتكبه عثمان رفقي في يوم ٧ مارس لكاف لتقديره الى المحاكمة واعدامه رميا بالرصاص ، لوحدث هذا في أية دولة متحضرة .^(١)

وإذا أمعنا النظر في هذا التصرف الذي أقدم عليه اسماعيل ، نجد أن الدافع اليه أحد أمرين أو كلاهما معا الأول : أن الخديو اسماعيل رغم ادراكه للأخطاء التي ارتكبها ضباطه من الأتراك والچرا كسة ، فقد خشي من محاکمتهم إلقاء حدوث ثورة ضده قد تعصف به وبحكمه . هذا من جهة ، ومن جهة أخرى فهو يعلم أكثر غيره مدى حاجته الى حمايتهم من غضب المصريين وسخطهم . والدافع الثاني ، أن إسماعيل كان متعصبا لتركته . ولهذا أثر طبقة الأتراك والچرا كسة بالوظائف الرئيسية في مصر ، سواء كانت مدنية أم عسكرية . فليس من المعقول إذن والحالة هذه أن يتهم هؤلاء بالخطأ والتقصير فيقوئى - بطريق غير مباشر - فريق الضباط الوطنيين الساخطين والمتطلعين إلى المساواة في المعاملة بزملائهم السابقين فمن الخير لإسماعيل أن يتستر على أخطاء قواده إرضاء لتعصبه من ناحية ، وحتى لا يخرج الأمر من يده من ناحية أخرى ، وخصوصا وأن العنصر الچركسى كان يمثل جبهة متحدة لها قوتها

ونفوذها ، وليس من السهولة بمكان القضاء عليها أو النيل منها .
فهذه المسرحية الهزلية التي مثلت أمام سمع المصريين وبصرهم
قد أثارت فيهم الحقد ضد العنصر الإيركسى وضد تسلطه وغطرسته .
فالفلاحون قد وجدوا أن أبناءهم الذين حشدوا في هذه الحرب ،
قد ذهبوا ضحية جبن وخيانة بعض هؤلاء القمّاء الإيراكسة .
وبما زاد في حنقهم أن هؤلاء الخونة قد نالوا ثمرة خيانتهم أو سمة
وترقيات . وهذا الشعور بالمرارة والحقد ضد العنصر الإيركسى قد
وجد صدهاء لدى الزعيم الوطنى أحمد عرابى وزملائه ممن اشتركوا
في تلك الحرب ولمسوا أخطأها . وقد نوء عنه في أكثر من موضع
في كتابه (كشف الستار عن الأسرار) . وبمرور الأيام ، وتكاثر
الخطأ . أخذ هذا الرصيد من المرارة ، والحقد يزداد في نفوس
المصريين قوة وعنفاً إلى أن ظهر في صورة ثورة عارمة ، ألا وهى
الثورة العرابية .

وبما ساعد على بلوغ هذه الغاية فى هذه الفترة القصيرة نجاح
طبقة الإيراكسة - وهى التى أطلق عليها الأيرالاي داي فى
كتابه اسم obstructionists أى الرجعيين أو المعارضين لحركة
التقدم - فى أن تدفع بعثمان رفقى إلى منصب ناظر الجهادية . فبين عشية
وضحاها وجد الضباط المصريون أنفسهم تحت رحمة (وزير) رجل
قد أثبتت الأيام فشله وتخاذله ، ولكنه وضع على رأس الجهاز الحربى
للسلاد وأعطى من الصلاحيات الواسعة ما يمكنه من التنكيل
بمعارضيه من الضباط الوطنيين من أمثال أحمد عرابى وزملائه .

فلا عجب اذا ما فقد هذا الرجل احترام الضباط المصريين له ، وسخريتهم منه ، فاضطر الى التستر خلف ستار زائف من التعسف والبطش ، فادى هذا الى زيادة ثورة الضباط الوطنيين اشتعالا ، والى تطور الثورة العراقية على النحو الذى اتخذته .

فالحرب الحبشية اذن كانت سبباً فى كشف جهل العنصر الجركسى ، وفى اثبات ضعفه وتخاذله الى الحد الذى أفقده ما كان له من مكانة أيام محمد على وخلفه عباس . فشجع هذا على قيام الثورة .

ما أسبغه الله بالبارمة

اذا ما نظرنا الى الحرب الحبشية من حيث الظروف التى أدت الى قيامها وتطورها والنتائج التى ترتبت عليها بصفة عامة ، نجد أن هناك تشابها كبيرا بينها وبين حرب فلسطين سنة ١٩٤٨ . فكلا الحريين قد أدت الى قيام ثورة ، فالأولى كانت السبب فى قيام الثورة العراقية ، والحرب الثانية كان من نتائجها قيام ثورتنا المجيدة فى ٢٣ يوليو ١٩٥٢ . كما أن كلا الثورتين قد نشأت بعد فشل حربى لعبت فيه الخيانة والإرتجال دورا هاما .

كذلك نجد أن كلا الحريين كان من صنع الأسرة الحاكمة السابقة وبتشجيع من رجال الحاشية ورجال الحكومة دون تروى .

ومن أوجه التشابه أيضا اشتراك زعيمى الثورتين فيهما .

ففي الحرب الأولى اشترك البطل احمد عرابي وبعض زملائه الأحرار من أمثال علي الروبي وغيرهم وشاهدوا بأنفسهم ما ارتكب فيها من أخطاء وخيانات . وفي الثانية أسهم الزعيم البطل جمال عبد الناصر وزملاؤه بنصيب كبير . وكانت تلك الحرب بالنسبة للزعيم البطل جمال تجربة قاسية ، وامتحانا عسيرا ، عرف فيه الكثير من الحقائق التي خفيت على معظم المصريين ، كما رسم فيه أيضا معالم الطريق الذي يجب عليه أن يسلكه . وكما دون احمد عرابي في مرارة آراءه عن الحرب الحبشية في كتاب (كشف الستار عن سر الأسرار) ، كتب أيضا الزعيم جمال عبد الناصر ذكرياته عن الحرب الفلسطينية في كتاب (فلسفة الثورة) .

كذلك نجد أن فشل الحملة الحبشية قد دفع أحمد عرابي وزملاءه إلى أن يكونوا دعاة ثورة لبث روح التمدد في نفوس الجنود والضباط ضد الأوضاع الخاطئة التي يعيشون في ظلها . وقد نجحوا في ذلك وقامت الثورة .

فاذا ما انتقلنا إلى حرب فلسطين نجد نفس الشيء ، فشمل هذه الحرب قد جعل من جمال عبد الناصر وزملائه رسل ثورة ، ولكنها ثورة بناء لا ثورة تقوم على الهدم . فتكونت جمعيات الضباط الأحرار ، ونجحت في القيام بثورتنا المجيدة وفي تحقيق الرسالة التي عجزت عن تحقيقها الثورة الأولى .

وأخيرا وليس آخر فهناك شبه آخر بين هاتين الحربين ، وهو أن الجهود التي بذلت عقب فشلها لإخفاء الحقيقة المأمة عن الشعب ، والحيلولة بينه وبين معرفة حقائق الأمور قد أخفقت تماما . وكان أثر أخفائها عن الشعب أشد عليه وقعا مما لو أذيعت عليه في حينها . وترتب على هذا حدوث رد فعل قوى لديه عجل بقيام الثورتين . وإذا نظرنا إلى نتائج الحملة فيما يختص بالحبشة نجد العكس ، فالرغم من أن الحملة قد زعزعت مركز إسماعيل وجعلته في موقف حرج في الداخل والخارج ، فإنها قد قوّت من مركز يوحنا إلى حد بعيد ؛ فنجاحه في صد الهجوم المصري وإيقافه قد رفع من شأنه لدى الشعب الحبشي من ناحية ، وقضى على المعارضة الداخلية من ناحية أخرى . فأصبح في نظر الشعب الأثيوبي المنقذ له من الغزو المصري فرد بذلك للشعب ثقته بنفسه . تلك الثقة التي فقدتها بإنهزامه أمام الحملة الانجليزية في عام ١٨٦٨ .

زد على ذلك أن بانهاء تلك الحرب أصبحت مصر تواجه قوة متحدة على حدودها الجنوبية الشرقية ، فإذا كانت مصر قد عجزت عن صد هجمات الأحباش المستمرة على حدود السودان في وقت لم تكن كلمة الأحباش مجمعة على الملك يوحنا ، فإن الأمر سيصبح على جانب كبير من الصعوبة بعد تفوق سلطة يوحنا وبسط نفوذه على كل أجزاء بلاده .

كما أن ظهور ضعف مصر الحربي بعد موقعة قرع قد أفقدها

ولاء بعض الرؤوس والحكام الاحباش الذين انضموا إلى جانبها بغية تحقيق بعض المطامع الشخصية أو للانتقام من يوحنا . فبعد أن اتضح لهم الموقف خرج هؤلاء عن طاعة الحكومة المصرية وتنكروا لها ، وقدموا فروض الطاعة والولاء للملك يوحنا . ولم يكتفوا بهذا بل أخذوا في مهاجمة مصر ومحاولة النيل منها .

أما عن صدى تلك الهزيمة في السودان فكان أشد أثرا وأعق جذورا ، فبدان القتال لم يكن بعيدا عن حدود السودان ، خصوصا وأن القوات المصرية بالسودان لم تكن على درجة من الكفاية العددية نظرا لاتساع رقعة الأراضي السودانية التي دخلت تحت الحكم المصرى نتيجة لسياسة التوسع في الفتح والاستكشاف ، بحيث أصبح من العسير على الحكومة المصرية إدارة هذه الاقاليم الشاسعة والمحافظة عليها . لاسيما وأن إدارة شئون السودان لم تكن تابعة لجهة واحدة . فن الناحية المالية كان تابعا لديوان المالية بمصر ، ومن الناحية الحربية لديوان الجهادية ، وفي الشئون الداخلية لديوان الداخلية .

ومما ساعد على زيادة التذمر في السودان عقب فشل الحملة الحبشية قلة عدد الجنود المصريين عن زملائهم السودانيين في الجيش المصرى بالسودان ، بحيث أصبح الجنود المصريون أقلية إذا ما قورنوا بعدد الجنود السودانيين . وهذه الظاهرة قدلفت نظر غوردون عندما عين مديرا لمديرية خط الاستواء خلفا لسامويل بيكر ،

فكتب في ذلك الوقت إلى نوبار باشا ناظر الخارجية عند وصوله إلى غندكرو في ١٧ أبريل سنة ١٨٧٤ يقول :

« ولا أرى من المستحسن والصواب أن يكون لدينا عدد قليل من الجنود المصريين كالعدد الموجود الآن يقابله عدد كبير من الجنود السودانيين ^(١) . وكان تخوف الجنرال غوردون من كثرة الجنود السودانيين له ما يبرره فقد ثارت من قبل الحامية السودانية باستحكامات مدينة كسلا وكان يبلغ عددها أربعة آلاف جندي سوداني ^(٢) في عهد اراهيم بك أدهم مدير كسلا في سنة ١٨٦٥ . واستمرت الثورة عدة شهور فشلت خلالها محاولات عديدة قامت بها قوات الباشوزق ^(٣) (غير النظامية) لإخضاعها . وأخيراً أرسلت الحكومة المصرية قوات كبيرة العدد تحت قيادة أدهم بك تمكنت من إخماد الفتنه بعد معركة حامية أسفرت عن قتل ١٦٣٧ جندياً والقبض على ٧٥٩ آخرين ^(٤) . فقلة عدد الجنود المصريين

(1) Publications of the Egyptian General Staff. Province of the Equator. Summary of letters 4 reports of H. E. The Governor General. Part 1 Year 1874. P. 4.

وتاريخ مديرية خط الإستواء ج ١ ص ١٢٥ .

(٢) نعيم شعير : تاريخ السودان القديم والحديث وجغرافيته ج ٣ ص ٤٠

(٣) المحفوظات التاريخية بالقصر الجمهوري محفظة ٣٤ « معية تركي » وثيقة رقم ١٧٢ من عمر فخرى بك وكيل حاكم السودان إلى المعية في ربيع ثاني سنة ١٢٨٢ « سنة ١٨٦٥ م »

(٤) المحفوظات التاريخية بالقصر الجمهوري محفظة ٣٥ « معية تركي » وثيقة رقم ٢٥ من عمر فخرى وكيل حاكم السودان إلى المعية في ٥ جمادى الأولى سنة ١٢٨٢ « سنة ١٨٦٥ » .

بالسودان قد أغرى هذه الحماية على الثورة . وهذا ما حدث
بالسودان عقب فشل الحملة الحبشية .

ومن العوامل التي أسهمت في تهيئة الظروف في السودان
لقيام الثورة المهدية أن مصر لم تكن قد انتهت بعد من أعمالها الحربية
ضد الحبشة حتى ووجهت بانتشار الثورة في الصرب ضد الحكم
العثماني ، ومطالبة الباب العالي لها بالمساهمة في إخمادها ، فرضت
مصر للأمر واضطرت الى سحب جزء كبير من قواتها بالسودان
لارسالها الى جبهة القتال في الميدان الأوربي . فقل بذلك عدد
القوات المصرية بالسودان بشكل ملموس ، الى حد خلو بعض
جبهاته منها خلوا تاما ، مما ساعد على قيام الثورة في دارفور^(١) .
وكان ذلك خلال حكمدارية غوردون للسودان في عام ١٨٧٧ .

فتمخضت الحماية المصرية في السودان كان له أكبر الأثر
بالنسبة لمصر وخصوصاً في الوقت الذي كانت تنتهج فيه الحكومة
المصرية سياسة العنف والقوة في القضاء على تجارة الرقيق . فهذه
السياسة أغضبت تجار الرقيق وأتباعهم من ذوى السلطان والجاء
في السودان فأخذوا يؤلبون الأهالي على الحكومة . وقوى عزيمتهم
فشل الحملة الحبشية وضياع هبة مصر العسكرية ، وقلة عدد القوات
المصرية . فكل هذه العوامل مجتمعة قد مهدت السبيل لظهور المهدي
واستفحال خطره . فن سوء حظ مصر أن تفشل حملاتها على

(١) اسماعيل سرهنك : حقائق الأخبار في دول البحار ج ٢ من ٣٣٣ .

الحبشة في تلك الظروف العصيبة التي تمر بها من سياسية واقتصادية ومالية .

ولم يقف تخفيض عدد القوات المصرية عند هذا الحد ، فالأزمة المالية التي مرت بها مصر في أواخر حكم اسماعيل جعلت تدخل الدول الأوروبية وخصوصاً إنجلترا وفرنسا أمراً محتوماً ، حماية لمصالح رعاياها قبل الحكومة المصرية . وكان من نتيجة هذا التدخل أن قامت نظارة نوبار باشا في سنة ١٨٧٩ بإحالة ٢٥٠٠ ضابط إلى الاستيداع . وكذلك استغنت عن عدد كبير من الجنود بناء على توصية لجنة التحقيق التي رأت تخفيض عدد قوات الجيش المصري إلى ما يقرب من ٢٦ ألف جندي . على أن تخفض بعد ذلك حتى يصير عدد جنوده ١٨ ألف جندي كما نص بذلك فرمان يونيه سنة ١٨٤١ . وبخلع اسماعيل يقوم الحديو توفيق بعد توليته مباشرة في منتصف سنة ١٨٧٩ بتخفيض عدد قوات الجيش المصري بحيث لا تزيد عن ١٢ ألف مقاتل .

من هذا العرض الموجز لتطور قوة مصر العسكرية عقب فشل الحملة الحبشية ، يدلنا على أن مصر ، سواء رضيت أو لم ترض ، ستحاول ما استطاعت إلى ذلك سبيلاً أن تحل مشكلة الحدود بينها وبين الحبشة بالطرق الودية دون الالتجاء إلى القوة أو التفكير في استخدام القوة نظراً لأن حالتها العسكرية لا تسمح لها بأى حال من الأحوال القيام بمثل تلك المخاطرة . ولهذا كان سيديل مصر في حل النزاع مع الحبشة هو التمسك بالمفاوضات والتشبيث بأهدافها للوصول إلى اتفاق وسط يقبله الطرفان مهما طال الأمد .

الفصل الحادى عشر

المفاوضات

أشرنا فى الفصل السابق إلى ميل يوحنا ملك الحبشة إلى حل النزاع بينه وبين مصر عن طريق المفاوضات ، وذلك بعد الخسائر الفادحة التى أصيبت بها قواته فى محاولتها الثانية لإقتحام قلعة قرع . ولم يكن الخديو إسماعيل أقل رغبة منه فى ذلك . فحالة مصر المالية لا تمكنه بأى حال من الأحوال من الدخول فى مغامرة أخرى مع الحبشة ، أو مجرد الاحتفاظ بعدد كبير من قواته داخل حدودها .

هذا بالإضافة إلى ضغط الدول الأوربية الدائنة على مصر ومحاولاتها التدخل فى شئونها المالية حماية لمصلحة رعاياها من الدائنين ، ولإلحاح الجنب العالى من ناحية أخرى نبلى الخديو إسماعيل فى ضرورة تقديم المساعدات الحربية اللازمة للدولة العثمانية فى حربها ضد العرب .

كان إذن كل ما يطمع فيه وإلى مصر أن يسحب قواته من الحبشة بأقل خسارة ممكنة بعد الوصول إلى حل وسط يقبله الطرفان . وقد استغل فرصة الطلب الذى تقدم به يوحنا للدخول

في مفاوضات ورحب به ترحيبا شديدا مظهرا حسن نيته ورغبته
الأكيدة في الوصول إلى حل سلمي للخلاف .

بدأت تلك المفاوضات برسالة من ملك الحبشة إلى السردار
راتب باشا يطلب فيها حل ما بينهما من خلاف عن طريق
المفاوضات . فوافق السردار على وجهة نظر الملك ، وطلب منه أن
يرسل مندوبا من قبله لوضع شروط الصلح .^(١)

وقد أبلغ القائد العام للحملة الخديو إسماعيل بهذا الأمر .
فرحب به أيما ترحيب ، وطلب من قائده الإستمرار في المفاوضات
وأن يوضح للملك نوايا مصر الطيبة إزاء الحبشة ، وأنها لم تلجأ إلى
الحرب إلا مضطرة بعد أن رفض حل المشاكل بالطرق الودية . وطلب
منه أيضا أن يؤكد له « رغبته في تصفية الجوبين الدولتين » .^(٢)

الرغبة في الصلح

أعربت مصر في ذلك الوقت للملك يوحنا عن رغبتها^(٣) في أن
يسمح لقواتها بتسلم جر حاهها ، حتى تتمكن من معالجتهم بمسئسفياتها

(١) المحفوظات التاريخية بالقصر الجمهوري . دفتر ٣٧ عابدين (وارد تلغرافات)
شغرة عربي ، وثيقة رقم ٤٥٨ ص ٩٤ في ١٥ صفر ١٢٩٣ (مارس ١٨٧٦)

(٢) المحفوظات التاريخية بالقصر الجمهوري . دفتر ٢٨ عابدين «صادر تلغرافات»
شغرة تركي . وثيقة رقم ١ ص ٥٠٢ ملحق ٢ في ١٧ صفر سنة ١٢٩٣ «مارس
سنة ١٨٧٦» .

(٣) المحفوظات التاريخية بالقصر الجمهوري . دفتر ٢٨ عابدين «صادر تلغرافات»
شغرة تركي . وثيقة رقم ٢ ص ٥٠٣ ملحق ٢ في ١٧ صفر سنة ١٢٩٣ «مارس
سنة ١٨٧٦» .

حيث تتوافر لديها الإمكانيات اللازمة من أدوية وأطباء . بل لقد أبدت استعدادها التام لمعالجة الجرحى من الأحباش أيضا ، وذلك لإظهارها لحسن نيتها ولرغبتها الصادقة في تجنب المنازعات . وفى ختام كتابها طلبت فى شيء من الرجاء أن يحسن الأحباش معاملة الأسرى ، وأن يغيروا من أساليبهم القديمة فى هذا السبيل

ويبدو أن ما أحرزه يوحنا من نصر قد قوى من عزيمته وخصوصا بعد أن انضم إليه رؤوس الأحباش الخارجين عليه ، وهذا ما دفعه إلى التشدد فى موقفه من مصر . فبعد أن طلب فى أول الأمر من القائد المصرى الدخول فى مفاوضات دون قيد أو شرط ، عاد مرة ثانية يردد فى إصرار عزمه على رفض فتح باب المفاوضات ، إلا بعد جلاء القوات المصرية عن أراضيه . ولم يكن فى وسع مصر - فى ذلك الوقت - أن تنسحب من الأراضى الحبشية قبل أن تصل إلى اتفاق بشأن المنطقة المتنازع عليها ، كى تضع حداً للمناوشات الحبشية فى المستقبل .^(١)

عودة الأمير عسمة :

ونظرا لما بدا من عدم رغبة يوحنا فى حسم النزاع فى وقت قريب ، ونظرا لتجمد الموقف الحربى عند هذا الحد ، أبدى الأمير

(١) المحفوظات التاريخية بالقصر الجمهورى . دفتر ٣٧ عابدين «وارد تليفونات» من السردار راتب باشا إلى ناظر الجهادية . شفرة عربى ص ٩٨ فى ١٧ صفر سنة ١٢٩٣ • مارس سنة ١٨٧٦ •

حسن رغبته في العود إلى مصر . ولكي يبرر هذا الطلب أوضح لوالده (الخديو إسماعيل) بأن قوات الحبشة قد أصبحت عاجزة عن مواصلة القتال بعد أن فقدت ما بين أربعين وخمسين ألف مقاتل هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى فانسحاب يوحنا بفلول قواته إلى عدوة يثبت عدم رغبته في الحرب . كما لا تستطيع القوات المصرية بما لديها من إمكانيات ضئيلة أن تتبعه في مقر إقامته بـعدوة . ولذا أصبح وجوده في تلك الظروف لا مبرر له .^(١)

وجد الخديو إسماعيل في رغبة ابنه حسن في العودة إلى مصر دليلا جديدا لإثبات حسن نواياه للملك الحبشة ، فموافقته على عودة ابنه إلى أرض الوطن معناه أن مصر لا تنوى القيام بأى عمل حربي جديد ضد الحبشة . ولذا بدأ الخديو يمد هذه العودة و لانسحاب القوات المصرية في أعداد متتالية من الوقائع المصرية ، فيما نشر في أحد أعداد الجريدة المذكورة^(٢) بهذا الخصوص : « إلحاقا لما نشر بالعدد ٦٥١ نفيد أنه جار المداولة في الصلح فاذا لم يتم يصير انشاء استحكامات بعدة مواضع من الإيالة التي فتحت ويترك بها عدد من العساكر فأصبح في الحالين لا لزوم لإبقاء كل الجنود

(١) المحفوظات التاريخية بالقصر الجمهوري . محفظة رقم ١٦٠ عابدين ، من الأمير حسن باشا إلى المعية السنية . وثيقة تركية ص ٥٠٦ ملحق في ٢١ صفر سنة ١٢٩٣ « مارس سنة ١٨٧٦ » .

(٢) الوقائع المصرية . العدد رقم ٦٥٣ المؤرخ ١٣ ربيع الأول سنة ١٢٩٣ « ١٨ أبريل سنة ١٨٧٦ » .

الموجودين الآن في تلك الجهات سيما وأن الحركات العسكرية تضعف في موسم الأمطار - ولهذا الأسباب أصبح لضرورة لبقاء دولتلو (حسن باشا) هناك فتعين وابور المحروسة للقيام الى جهة مصوع لاحتضاره - فقام من السويس في الحادى عشر من هذا الشهر - وعلم أن يوحنا ملك الحبشة يظهر غاية الندم لتسببه فى قطع علاقة المودة بين البلدين وأن تصرفه هذا سبب هيجان بعض رؤوس الحبشة عليهم وسعيهم فى اقصاده عن العرش الذى اغتصبه ولذلك هو يسعى جهده فى تجديد المودة بينه وبين الحكومة المصرية .

التقرير لفرنسوا :

ونشرنا فى عدد آخر ^(١) « ان سردار الجيش المصرى أخطر بأن المسكان الذى كانت تعسكر فيه الجنود المصرية هو (قورع) أضحى مجتمعاً للسيول ولا يوافق لإقامتهم . فأنتخب، وقع (قياخور) البعيد عن نزول السيول ، وأنشئت فيه الإستحكامات لإقامة العساكر ونقل اليه البعض على أو يعود الباقون لمصر فتوجهت وابورات البوسنة الخديوية من السويس إلى مصوع لاحتضار من لاحتاجة لهم هناك . »

كما تقدم ترى أن نزوح القوات المصرية عن مواقعها الأمامية وسحب بعضها من الأراضى الحبشية إنما يعد رضوخاً - ولو بشكل

(١) الوقائع المصرية . العدد رقم ٦٥٥ فى ٢٨ ربيع الأول سنة ١٢٩٣
« ٢٣ أبريل سنة ١٨٧٦ » .

جزئى - لرغبة يوحنا التى أعلمها من قبل والتى أصر فيها على عدم الدخول فى مفاوضات مع الجانب المصرى ما لم تنسحب قواته من المناطق التى احتلتها .

ويبدو لنا أنه كلما سلمت مصر ببعض المطالب للجانب الحبشى، كلما قل اهتمام يوحنا فى الوصول الى اتفاق معها . فالموقف السياسى والحربى لم يعد فى صالح مصر . فهى لن تستطيع فى ظروفها الحالية أن تقدم على مغامرة أخرى غير مأمونة العواقب . وفى نفس الوقت فهو يعلم تمام العلم أن مصر لن تستطيع الإحتفاظ بموقفها هذا فترة طويلة . فستضطرها الأحوال المالية المضطربة وضغط الدول الأوروبية الى سحب قواتها كلفة من الأراضى الحبشية فى وقت قريب . ولذا فمن الحكمة التريث والاستئوف والإبتعاد عن الدخول فى مفاوضات حاسمة . ويظهر هذا بشكل واضح فى الخطابات العديدة التى تبودلت بين الملك يوحنا وراتب باشا بخصوص الصلح . فنجد يوحنا مرة يتعلل بأن السبب فى عدم إرسال مندوب من لدنه للمفاوضات ، هو رغبته فى أن يتفاوض بنفسه مع الأمير حسن بن إسماعيل . وفى مرات أخرى يعتذر عن إرسال مندوبين من قبله لعدم وجود من يثق فيهم ، وأنه ستولى بنفسه المفاوضات ، وعلى مصر أن تبعث بمندوبها اليه فى عدوة .

ثم عاد وأرسل من قبله بمندوبين وهما (ليسكاموكاس) و (وزكى) لمعرفة وجهة نظر راتب باشا بشأن المسائل المتعلقة بين

الطرفين، وتتخلص في رد الأسلحة المصرية وعودة الأسرى وتبادل التجارة بين البلدين كما كان الحال قبل نشوب الحرب .
وفي خلال المفاوضات قام يوحنا برد عدد كبير من الأسرى المصريين ووعد برد الباقي حينما يصلون اليه .

برء المفاوضات :

وبعد أن أحاط المندوبان الحبشيان بوجهة نظر مصر في الصلح عادا إلى ديارهما بعد أن زودهما القائد العام للحملة (راتب باشا) ببعض الهدايا للملك يوحنا . وفي تلك الفترة تمكن السردار من الاتصال سراً بمحمد بك رفعت رئيس القلم التركي بديوان الجهادية وأحد الأسرى المصريين الموجودين بعدوة ، لمعرفة نوايا الحقيقية للملك ، وعما إذا كان جادا في طلب الصلح أم أن له أهدافا أخرى يسعى لتحقيقها . وفور دمنه أفادت أن إحداها يذكر فيها أن الملك يوحنا صافي القلب ، ويريد الصلح وتأسف على ما وقع أولا ، ثانياً من سفك الدماء وأحب ما عليه إتصال المودة ما بين ولي النعم الخديو الأعظم ، وبتفويضنا في هذه المسألة أكون واسطة ما بين الخديو الأعظم والملك يوحنا في قطع هذه المسألة ، وحلها على أحسن حال .^(١)

(١) المحفوظات التاريخية بالقصر الجمهوري . دفتر ٣٨ عابدين «وارد تفرافات»
عربي الشفرة ص ٣٣ في ٢٨ صفر سنة ١٢٩٣ «أواخر مارس سنة ١٨٧٦» .

وقد وافقت الحكومة المصرية على إرسال البكباشي على الروبي (أحد زعماء الثورة العرابية) إلى عدوة لينضم إلى محمد بك رفعت ليشلا مصر في هيئة المفاوضات ؛ على أن تناول محادثتهما موضوع رد الأسلحة والإفراج عن الأسرى وفتح باب التجارة بين البلدين . ^(١) فأوفد يوحنا من قبله ليكاسموكاس وزكى لاستقبال على الروبي ومصاحبته إلى عدوة . ^(٢)

وأخيرا تمكن الطرفان المصري والجيشي الوصول إلى إتفاق « يضمن تنظيم التجارة بين البلدين . واتصال البريد بينهما » ^(٣) . ولكن بما يقلل من شأن هذا الإتفاق أنه لم يدون في وثيقة رسمية تلزم الطرفين المتعاقدين على إحترامه . واكتفى يوحنا بأن يتم بصفة شفوية . وبمقتضى هذا الاتفاق أخذت القوات المصرية في الانسحاب التدريجي من الأراضي الجبشية . ففي ١٩ إبريل سنة ١٨٧٦ كان قد تم انسحاب الجنود المصريين من قلعة قرع والانضمام إلى زملائهم بموقع قياخور .

وقد انتهز الخديو إسماعيل فرصة نشوب الثورة في الصرب ضد الدولة العثمانية ، وطلب الباب العالي معونة مصر الحربية .

(١) المصدر السابق .

(٢) المحفوظات التاريخية بالقصر الجمهوري محفظة ١٩ بحر برا تركي رقم ١٤٨ في ٣ جادى الثانية سنة ١٢٩٣ « أواخر يونيه سنة ١٩٧٦ » .

(٣) المحفوظات التاريخية بالقصر الجمهوري محفظة ١٩ بحر برا ، تركي رقم ١٥٢ في ٩ ربيع الثانى سنة ١٢٩٤ « أبريل سنة ١٨٧٧ » .

واستدعى قواته من الأراضى الحبشية فيأعدا أربعة آلاف جندى ظلوا باستحكاماتهم بقياخور إلى أن تم تسليم جميع الأسرى المصريين . وفى شهر أغسطس سنة ١٨٧٦ تم إنسحابهم إلى مصوع . ولكنهم لم يلبثوا فيها إلا وقتا قصيرا وعادوا إلى مصر ، حيث فرضت عليهم رقابة شديدة حتى لا ييوحون بشئ . من أخبار الحملة المشيرة إلى أصدقائهم وذوى قرابهم . ^(١) وبهذا تفتهى الحملة المصرية على الحبشة بعد أن استمرت عشرة شهور تقريبا . تمتد من ديسمبر سنة ١٨٧٥ إلى أغسطس سنة ١٨٧٦ .

بعد أن تم جلاء القوات المصرية عن الأراضى الحبشية بعث يوحنا بخطاب شخصى إلى الملكة فيكتوريا يعرب فيه عن شكره على ما أبدته نحوه من عطف وما حبتته من عناية . ثم يتطرق إلى الحديث عن الأعمال العدوانية التى قام بها الحديو إسماعيل ضد بلاده وكيف انتصر عليه . ولكنه يبدى تخوفه من أن يعيد إسماعيل الكرة مرة ثانية للانتقام منه .

ولهذا يأمل من جلالتها أن تعمل على فصل ممتلكات كل منهما عن الآخر ^(٢) . ولا ندرى بالدقة ما يعنيه يوحنا بعبارة فصل أراضى كل منهما عن الآخر . فهل يعنى ذلك الحصول من إنجلترا

(1) Amer. Doc. vol. 12 P. 32 Despt. No. 9 Farman to Hamelton Fish. June 1, 1876.

(2) F.O. inclosure of Despt. No. 51 C. Vision to The Earl of Derby. Cairo May 2nd 1877.

على وعد بضمان سلامة الاراضى الحبشية ضد إعتداءات مصر التى قد تحدث مستقبلا . أم أنه يطلب تأييدها فيما يدعى ملكيته من المنطقة المتنازع عليها ، أو كلاهما معا ؟

وفى حقيقة الأمر ، فإن يوحنا كان فى حاجة إلى تعضيد إنجلترا وإلى مساندتها عند تسوية المش-كلة بصفة نهائية . فالصلح الذى تم بينه وبين مصر لم يدون كتابة واكتفاء بما قيل شفويا عن انتهاء الخصومة ولن تبقى هناك عداوة بين الطرفين ، ^(١) فلم يلتزم يوحنا إذن بشروط صلح محددة قبل مصر فالصلح الذى تم بين الجانبين فى نظره مجرد هدنة مؤقتة ريثما تسنح له الظروف المواتية بتحقيق ما يصبو اليه .

على هذا النحو ظلت العلاقات المصرية الحبشية طوال الفترة الباقية من حكم إسماعيل ، إلى منتصف عام ١٨٧٩ .

التدخل الانجليزى الفرنسى وأثره

كان لتدخل الدول الأوروبية فى شئون مصر فى أواخر عهد إسماعيل - تحت ستار المحافظة على مصالح رعاياها من الدائمين ، وإزىاد ضغطها على الدولة العثمانية - وخصوصا من قبل إنجلترا وفرنسا - لتغيير الوضع القائم فى مصر ، أن رضع الباب العالى

(١) المحفوظات التاريخية بالقصر الجمهورى دفتر ٢٩ « صادر عابدين » تركى وثيقة رقم ٣٩ من الخديو توفيق لى القيوكتخدبا باستانبول فى ١٠ المحرم سنة ١٢٩٧ « أواخر ديسمبر سنة ١٨٧٩ »

للدولتين الكبيرتين ، فعزل الخديو إسماعيل ، وولى مكانه ابنه الخديو توفيق .

ولم يكن عزل الولاية أو تعيينهم بذى خطر بالنسبة لمصر . فظالمنا استغل سلاطين العثمانيين سلطاتهم فى ممارسة هذا الحق دون أن يترتب على ذلك أى تغيير فى الأوضاع الداخلية بمصر . كما لم يكن الشعب المصرى يهتم كثيرا - طوال الحكم العثمانى - بمجىء وال أو ذهاب آخر ، فجميعهم غرباء عنه ، وكلهم يعملون لمصلحتهم أولا وقبل كل شئ . دون نظر لمصلحة البلد الذى يتولون حكمه .

أما بالنسبة لعزل إسماعيل وتولية توفيق فأمر مختلف ، فالسلطان العثمانى لم يقدم على هذا العمل بمحض إرادته كما كان من قبل ، وإنما قام به تحت الضغط الإنجليزى الفرنسى المتزايد . هذا جهة ، ومن جهة أخرى فيعتبر عزل إسماعيل لطمة قوية وجهت للحركة القومية فى البلاد نظرا لأن الخديو بدأ يتستر فى أواخر حكمه وراء القوى الوطنية ليواجه بها التدخل الأوروبى والضغط الأجنبى ، بعد أن تخلت عن مساندته الدولة العثمانية ، وكذلك الدولتان الكبيرتان إنجلترا وفرنسا . فوالى مصر الجديد (توفيق) - كما يذكر استاذى الدكتور محمد مصطفى صفوت - قد جاء إلى الحكم بناء تدخل إنجلترا وفرنسا وتأييد ألمانيا لهما وهى أقوى الدول الأوروبية ، ولم يكن توفيق بالرجل الذى يستطيع الإضطلاع بأمور الحكم

في مثل هذه الظروف الشاذة العصية ، الظروف الدولية التي تكالبت فيها الدولتان الاستعماريتان على النفوذ والسلطة في مصر والشرق الأدنى ، وظروف مصر السيئة التي شملت فيها المفوضى الإدارة والجيش وكل مرافق البلاد . علم توفيق أن مصيره معلق أولا وقبل كل شيء بهوى الدول الأوروبية الكبرى ، ولذا أوحى اليه مصالحه أن يسير وفق سياسة هذه الدول ويعمل على رضاها قبل كل شيء. ^(١) فالخديو توفيق لم يكن يستطيع البت في أمر من أمور مصر ما لم يتفق هذا مع مصلحة الدول الأوروبية وعلى وجه الخصوص مصلحة إنجلترا وفرنسا . أو على الأقل لا يتعارض هذا الأمر مع سياسة الدولتين . فعلى هدى تلك السياسة إلى أمليت، على وإلى مصر الجديد ، أخذ يتلبس طريقة وسط التيارات المختلفة من وطنية وعثمانية وإنجليزية وفرنسية .

ولم يؤثر ضعف الوالى الجديد وتحاذله على الشئون الداخلية فحسب ، وإنما امتد هذا الأثر إلى ممتلكات مصر في القارة الأفريقية ، وإلى علاقة مصر ببحرانا ، وخصوصا علاقتها بالحبشة . فمن المرجح لاثارة النزاع من جديد . ولاعتقد بأن أية تسوية قد تتم بين الطرفين سيكون لإنجلترا أثرى الأول فيها . كما أنها لن تكون في غير صالح الحبشة .

(١) دكتور محمد مصطفى صفوت : مصر المعاصرة وقيام الجمهورية العربية

وهناك سبب آخر على جانب كبير من الأهمية ، ففرمان ولاية
الحدود توفيق الصادر في ١٩ شعبان سنة ١٢٩٦ (أغسطس سنة
١٨٧٩) قد نص صراحة على ألا تتجاوز القوات المصرية ١٨
ألف جندي في وقت السلم . بل أن الأمر لم يقف عند هذا الحد ، فقد
أصدر الوالي الجديد بعد تعيينه مباشرة قراراً .. بناء على مشورة
وزرائه . بصرف عشرة آلاف جندي من الجيش العامل ، وبذلك
أصبح الجيش المصري يتألف من ١٢.٠٠٠ جندي فقط .^(١)
فخفض عدد قوات مصر إلى هذا الحد قد شجع يوحنا على
مهاجمة الحدود المصرية والنيل منها .

ولذلك أخذ الأحباش يتجرشون بالآهالى الخاضعين لحكم
مصر والمقيمين بالقرب من الحدود الحبشية ، وفي نفس الوقت
بدأت الصحف الأوربية في التعرض لهذا الموضوع والمبالغة فيه .
وخشى توفيق من أن تصل تلك المعلومات المشوة عن حوادث
الحدود إلى المستوامين بالآستانة وأن نجد لديهم آذاناً صاغية ، فبعث
بتقرير^(٢) مفصل إلى وكيله (القبوكتخدا) بالآستانة يوضح له
الأمر على حقيقته ، جاء فيه : « ولكن في الوقت الحاضر أخذ ملك
الجبشة يرسل قوات عسكرية إلى الحدود ويطالب العربان والأهلين

(١) فيليب جلال : قاموس الإدارة والقضاء ج ٤ ص ٦٨٩ ، ٦٩٠

(٢) المحفوظات التاريخية بالقصر الجمهورى . دفتر ٢٩ « صادر عابدين »
ترك من الجانب الحدودى إلى القبوكتخدا باستانبول . وثيقة رقم ٣٩ في ١٠ المحرم
سنة ١٢٩٧ (أواخر ديسمبر سنة ١٨٧٩) .

التابعين للحكومة المصرية بهزرائب ، ويعاقب من لا يدفعها بالأسر والسجن وغيرها من أعمال الظلم والعدوان .

ولما كان توفيق لا يرغب في مقابلة القوة بمثلها ، ويحرص على فض النزاع مع الحبشة بالطرق الودية ، فقد أوفد الجنرال غوردون حاكم عام السودان ، مزوداً بتعليمات ليعمل على وقف هذه الإعتداءات ويعقد صلحاً نهائياً^(١) . وكان يوحنا - في ذلك الوقت - يصر على ضرورة ضم ميناء مصوع وإقليم بوغوص إلى الحبشة . ولكن الحكومتين الإنجليزية والفرنسية نصحتاه بالإعتدال وعدم التمسك بمصوع ، وأوضحتا له بأنها سيؤيدانه تأييداً تاماً في موقفه من إقليم بوغوص^(٢) .

وبالرغم مما قدمته الدولتان من نصح ، فقد اشتط يوحنا في مطالبه أثناء المفاوضات ، وطلب من غوردون أن تنازل مصر عن منطقة القلابات والقاش ، وأن تدفع تعويضاً مالياً لا يقل عن مليون جنيه ثمناً لتنازله عن مصوع ، ومنحه ستة شهور للتدبر في الأمر والإجابة على هذه المطالب^(٣)

وقد عزز يوحنا مطالبه هذه بشن هجمات متكررة على حدود

(١) المصدر السابق .

(2) Amr. Doc. vol. 16 Despt. No. 336 N.D. Comanos to C. Evarts Sept. 6, 1879.

(٣) المحفوظات التاريخية بالقصر الجمهوري . دفتر ٥٤ عابدين «وارد تلغرافات» عربي الشفرة رقم ٧١٧ في ٢٩ ذى القعدة ١٢٩٦ « ١٨ نوفمبر ١٨٧٩ » .

مصر ، وذلك للضغط عليها وإرغامها على التسليم . ولما كانت تلك الرغبات لا يمكن تحقيقها ، وفي نفس الوقت لم تكن حالة مصر المالية أو العسكرية تسمح لها بالدخول في حرب جديدة ، فقد آثرت مصر الوقوف موقف الدفاع وأن تقوم برد كل اعتداء ، حتى يصل الطرفان إلى تسوية عادلة ^(١) .

وقد ساعد مصر على التمسك بموقفها وعدم الرضوخ لتهديد يوحنا باستخدام القوة ، إن الحبشة نظراً لحالتها الراهنة ، وبناء على عدم انتظام جيشها ليست في موقف يسمح لها باختراق الحدود المصرية والاستيلاء على مناطق فيها ، ولكنها مع الأسف الشديد قادرة على أن تأتي بأعمال من شأنها أن تقلق راحة السكان القاطنين بحدود الحدود وتجشم الحكومة مصاريف مختلفة ، ومع ذلك لا تقوم الحكومة المصرية بأعمال هجومية ، وإنما تعمل على حماية الحدود وأرواح السكان ودفع اعتداءات الأحمش ^(٢) .

فشملت المفاوضات إذن نتيجة مغالاة يوحنا وعدم رغبته في الوصول إلى حل وسط ، ولذا نجد غوردون يقترح على الحكومة

(١) المحفوظات التاريخية بالقصر الجمهوري . دفتر ٣٨ عابدين «صادر تفرقات» تفرقات رقم ٣٦٣ ، ٣٦٤ ، ٣٧٩ (لراة سنية إلى حسن حامي باشا بالخرطوم ومدير التاكه في ٦ ، ٩ ديسمبر سنة ١٨٧٩) .

(٢) المحفوظات التاريخية بالقصر الجمهوري . دفتر ٢٩ (صادر عابدين) تركي وثيقة رقم ٣٩ من الجناوب الخديو إلى القهوك تخدا باستانبول في ١٠ المحرم سنة ١٢٩٧ «ديسمبر سنة ١٨٧٩» .

المصرية كحل جزئى لهذا النزاع ، أو بمعنى أصح لتخفيف الضغط الواقع على حدود مصر ، أن تمنح إيطاليا قطعة أرض بالقرب من مصوع ؛ كي تواجه الحبشة بذلك عدواً جديداً تجد فيه ما يشغلها عن مناوأة مصر^(١) ؛ وكانت هذه السياسة تتفق مع سياسة إنجلترا فى ذلك الوقت تلك السياسة القائمة على الاعتراف ببعض المصالح لإيطاليا فى تلك المنطقة حتى لا يمتد إليها نفوذ فرنسا .

(١) المحفوظات التاريخية بالقصر الجمهورى دفتر ٥٥ عابدين (وارد تليفونات)
تلفراف عربى الشفرة رقم ٩٣٠ من غوردون إلى خيرى باشا فى ١٤ ديسمبر
سنة ١٨٧٩ .

الفصل الثاني عشر

التسوية النهائية

انتهت حكمدارية غوردون للسودان دون أن يصل الى اتفاق مع الحبشة بشأن الحدود . وقد حرصت مصر على أن تزود محمد رؤوف باشا الذي خلف غوردون على حكمدارية السودان في مارس سنة ١٨٨٠ بتعليمات صريحة بما يجب أن تكون عليه العلاقة مع الحبشة . فجاء بالذكريتو (كتاب التولية) الصادر اليه بشأن مهمته كحاكم عام للسودان ما يلي : « من المهم عند وصولكم الى مركز الحكمدارية أن توجهوا أنظاركم والتفاتاتكم الى تنظيم واصلاح الحالة العسكرية حسبما يقتضيه احتياج تلك البلاد لتوطيد الأمن والنظام العام بكافة أنحاء المملكة ، خصوصا تقوية حدود الحبشة والمحافظة عليها في الحالة الراهنة مع ما يترتب عليه الأمن والإطمئنان للوقاية من وقوع أدنى مهاجمة على هذه الحدود لأنكم عارفون جيدا بأفكارنا وأفكار أعضاء حكومتنا في هذه المسئلة وهي أننا لا نقصد أى تجاوز كان على جيراننا ولا نريد أى فتوح جديد إنما جل قصدنا المدافعة بغاية البسالة اذا وقع أدنى تعد على حدودنا فمن هذه الأفكار هي التي تكون أسس اعمالكم في ترتيب وتنظيم عسكرية السودان » ^(١)

(١) اسماعيل سرهنك : حقائق الاخبار عن دول البحار ج ٢ حاشية ص ٦٤٢

فسياسة مصر في ذلك الوقت كانت ترمى الى المحافظة على حدودها الجنوبية مع الحبشة ، وذلك بالعمل على تقويتها ورد أى عدوان يقع عليها . وفي نفس الوقت فقد أوضحت للحكمدار الجديد للسودان - بما لا يدع مجالا للشك - بأنه يجب ألا يغرب عن باله أنها لا تعنى بهذا القول تشجيع العدوان على الحبشة أو التطلع الى الاستيلاء على أراضيها بأى حال من الأحوال .

كان هذا هو موقف مصر إزاء الحبشة في السنتين السابقتين للاحتلال الانجليزى ، فالحالة المالية والسياسية لا تسمح لها القيام بمغامرات حربية جديدة . وفي نفس الوقت فهي لا تستطيع أن تقف مكتوفة اليدين أمام اعتداءات الحبشة المتكررة على حدودها .

الثورة العربية والاحتلال الانجليزى

لم تكن شخصية الخديو توفيق أو طريقته في الحكم بما يساعد على التغلب على المشاكل التى واجهته في بداية عهده بالحكم ، فلم يكن بطبيعته يميل الى النظم الدستورية أو الحكم النيابى . واذا كان هذا الميل قد صادف هوى فى نفوس الدول الكبرى وعلى رأسها انجلترا وفرنسا ، إلا أنه لم يحز قبول الرأى العام المصرى بصفة عامة ورجال الجيش بصفة خاصة ، فقامت ثورة مصر القومية الأولى متأثرة بنمو حركة الجامعة الاسلامية والوعى الوطنى وإزدياد تغلغل النفوذ الأوروبى .

تطورت الأمور سريعا في مصر ، فالحكومة القائمة وقتذاك (سنة ١٨٨٠) وهى حكومة رياض باشا لم تعمل على تهدئة حالة التذمر فى الجيش ، وأدى اسرافها فى الاعتماد على طبقة الضباط الأتراك والجراكسة والتكبل بالضباط الوطنيين الأحرار الى تفاقم الحالة والى قيام الثورة .

وفى عام ١٨٨١ حدث تطور فى ميزان القوى الدولية فى البحر الأبيض المتوسط ، وذلك باستيلاء فرنسا على تونس وارغامها على قبول معاهدة باردو أو معاهدة قصر السعيد فى ١٢ مايو سنة ١٨٨١ . وكان هذا التطور فى غير صالح مصر ، فقد اعتبرت انجلترا أن احتلال الفرنسيين لتونس قد أدخل بالتوازن الأوروبى فى البحر الأبيض المتوسط ، ومنح فرنسا نفوذا متفوقا على النفوذ الانجليزى ، وأن هذا التوازن لن يعود الى حالته الطبيعية إلا باحتلالها مصر - فعلى انجلترا أذن أن تستغل الأوضاع غير المستقرة فى مصر لتحقيق أهدافها متعلقة فى سبيل ذلك بمختلف المعاذير .

وقد اجتمع مؤتمر من الدول الأوربية المعنية بالأمر فى الآستانة فى ٢٣ يونية سنة ١٨٨٢ للنظر فى المسألة المصرية وإيجاد الحل اللازمة لها بما يضمن المصالح الأوربية أولا وحقوق الساب العالمى ثانيا . وقد طالت المناقشات داخل أروقة المؤتمر وقاعاته ، واخيرا قرر المؤتمر تكليف الباب العالمى بأن يقوم بمفرده بإعادة الاستقرار والنظام الى مصر بصفته صاحب الحق الشرعى .

ولكن المناقشات تعثرت عندما حاول الأعضاء وضع شروط محددة لهذا التدخل .

وفي خلال ذلك تمكنت انجلترا من ضرب الاسكندرية وانزال قواتها بمنطقة القناة ، ووضع مؤتمر الأستانة أمام الأمر الواقع ؛ هذا المؤتمر الذي لم يسلم لاية دولة من الدول بأن تتدخل بمفردها لإخماد الثورة في مصر . ولكن انجلترا قامت منفردة بهذا العمل ، اعتقاداً منها بان الدول الأوروبية لن تقوم ضدها بأى عمل ايجابي ، ففرنسا لن تعترض على ذلك لأنها دعيت الى التدخل ، ولكن حكومتها رفضت ذلك لمعارضة البرلمان . أما عن ألمانيا فرغم معارضتها للتدخل الفردى فإنها كانت تحض انجلترا على احتلال مصر منذ عام ١٨٧٥ . وأما امبراطورية النمسا والمجر فقد أبدت ارتياحها لهذا العمل ، واعتبرته حلاً لا بد منه لإقرار الأوضاع في مصر .

أما روسيا فلم تسكن لها مصالح حقيقية في مصر ، ولهذا اكتفت بالتأسف على قيام انجلترا بهذا العمل . وأما وقف إيطاليا فكان مشوباً بالمرارة وخيبة الأمل لإنفراد انجلترا وحدها باحتلال مصر دون أن يكون لها نصيب في ذلك بحكم موقعها الجغرافي كدولة كبرى من دول البحر الأبيض المتوسط .

الثورة المهرية :

لثورة المهديّة أسباب متعددة ، بعضها يتعلق بالموقف الدولي بصفة عامة وبعضها يرجع إلى ظروف مصر السياسية والاقتصادية

في أواخر عهد اسماعيل وأوائل عهد توفيق . والبعض الآخر يرجع إلى الظروف المتعلقة بالسودان نفسه .

فاذا تناولنا الموقف الدولي في السبعينات من القرن التاسع عشر وما يليها نجد أن الحكومة الانجليزية - بصفة خاصة - قد أخذت تهتم بشئون السودان ، وبما يحدث فيه . فقد أشارت على الخديو اسماعيل باستخدام السير سامويل بيكر للقضاء على تجار الرقيق استجابة لضغط جمعية مكافحة الرق Anti-Slavery Society . وبعد أن انتهى من مهمته نصحته مرة أخرى باستخدام غوردون لإتمام ما بدأه سلفه من قبل . وبناء على تلك النصيحة عين غوردون حاكماً لمديرية خط الاستواء . ثم لم يلبث أن قفز إلى منصب الحاكم العام للسودان ليتولى تنفيذ اتفاقية إلغاء الرق التي أبرمتها الحكومة الانجليزية مع الخديو اسماعيل في سنة ١٨٧٧ .

وسنجد أن تدخل إنجلترا في شئون السودان قد أرغم إلى مصر على اتباع سياسة معينة لم تكن في صالح مصر أو السودان ، بل أساءت إلى شطرى الوادى أيما اساءة . وكان من نتيجتها أن غادر الجنرال غوردون السودان في منتصف عام ١٨٧٩ بعد عزل اسماعيل وهو على وشك الانفجار .

وخلاصة القول فإن الثورة العرابية في مصر قد أدت إلى إشعال الثورة في السودان ، فكلتا الثورتين العرابية والمهدية قد تأثرت بحركة الجامعة الإسلامية . وكل من مصر والسودان قد تعرض

في السنوات التي سبقت الثورة لظروف واحدة من الضغط والتدخل الأجنبي .

هذا بالإضافة إلى السياسة التعسفية التي سلكها غوردون في السودان لإخراج اتفاقية الغاء الرق إلى حيز الوجود ، وما ترتب على تلك السياسة من القضاء على اقتصاديات السودان وازدياد السخط على الحكومة .

كانت ظروف الحكمدار الجديد محمد رؤوف سيئة للغاية ، فالأحوال في السودان كانت تنذر بشر مستطير رغم الهدوء الظاهري الذي بدا في أول الأمر . ولم يكن لديه من القوات ما يمكنه من اقرار الأوضاع في السودان . فعالية جنود السودان من الباشبوزق (جنود غير نظاميين) المبعثرين في انحائه المترامية . زيادة على ذلك فالأمور الداخلية في مصر قد اضطربت نتيجة قيام الثورة العراقية ، وتهديد الدول الآورية وعلى رأسها إنجلترا بالتدخل لاحتدادها .

وجد محمد رؤوف انه لا يستطيع الاعتماد على القاهرة في ذلك الوقت ، فالثورة العراقية كانت مشغولة بنفسها وبالخطر المحدق بها . ولم يكن لديها من الوقت ما يسمح لها بالتفرغ لشئون السودان . ولذا فقد اعتمد على نفسه وعلى ماتحت يديه من امكانيات ضئيلة ، وحاول قدر طاقته أن يتصرف في حدودها .

استغلت الحبشة فرصة هذا الاضطراب السياسي الذي شمل

مصر والسودان وأخذت تهاجم حدود السودان . ولكن خطر مهاجمة الأحباش يتضاءل أمام خطر الثورة المهدية التي أخذت تهدد الحكم المصري بالسودان تهديد خطيرا . فلا عجب اذا ما انصرف محمد رؤوف عن مشا كل الحدود المصرية الحبشية الى ما هو أهم وأجدي .

وحينما وجدت حكومة الثورة في مصر أنها لا تستطيع تقديم المساعدات الحربية الى السودان لشدأزر محمد رؤوف ، وأنه قد أصبح في نظرها عاجز عن اخماد الثورة في السودان ، قامت بعزله وتعيين عبد القادر حلمي خلفا له . ووجه الحكمدار الجديد بالموقف على حقيقته وأخفقت جهوده أيضا في القضاء على الثورة نظرا لافتقاره الى الرجال والسلاح ولم تكن حكومة الثورة في ذلك الوقت - أي في بداية عام ١٨٨٢ - بقادرة على ارسال أية امدادات الى السودان .

وحتى بعد أن وقعت مصر في قبضة الاحتلال الانجليزي في عام ١٨٨٢ ، لم تبد سلطات الاحتلال أى اهتمام بشئون السودان ، بل كانت جهودها مركزة في الغاء جيش الثورة ومحاكمة العرايين . وبعد أن فرغت من مهمتها هذه بدأت في يناير سنة ١٨٨٣ في تكوين الجيش المصري الجديد تحت إشراف السردار العام الانجليزي ايقلن وود Evelyn wood . حدث كل هذا والاحول في السودان تزداد سوءا يوما بعد يوم ، والمعتمد البريطاني في مصر مشغول بتصفية المشاكل التي خلقتها الثورة وتعويض

الاجانب عما لحق بممتلكاتها من اضرار نتيجة الحريق الذى شب
فى الاسكندرية أثناء الثورة .

سياسة انجلترازاء السودان

كانت وجهة نظر الحكومة الانجليزية فى الشهور القلائل
التي أعقبت الاحتلال تتلخص فى عدم التورط فى أعمال حرية
بالسودان ، والاكتفاء بما تقوم به الادارة المحلية السودانية من
جهود فى هذا الشأن . ولم يكن لدى الحكومة الانجليزية ما يمنع
من أن تتخلى مصر عن بعض أجزاء السودان وأن وأن تركز
اهتمامها فى المحافظة على الخرطوم .

فانجلترا اذن لم تكن تريد التورط فى شئون السودان ، فإذا
كان احتلالها لمصر لم ترسخ أقدامه بعد ، فعلى الأقل يجب عليها أن
تعف من شئون السودان موقف التريث وعدم الاندفاع ، خصوصا
وأن رجال السياسة الانجليز من أمثال جلاستون رئيس
الوزارة الانجليزية وجرائل وزير خارجيته والسير افلن بيرنج
المعتمد البريطانى فى مصر ، كانوا يرون فى الممتلكات المصرية فى
السودان عبئا ماليا واداريا كبيرا .

وفى أواخر سنة ١٨٨٢ أرسلت الحكومة الانجليزية مندوبا
من قبلها يدعى الكولونيل استيوارت لدراسة أحوال السودان
وتقديم تقرير عنها . وقد انتهى من مهمته هذه فى ٩ فبراير عام ١٨٨٣

فبعث الى حكومته بتقرير مفصل عن الأحوال في الخرطوم بصفة خاصة والأوضاع السائدة في السودان بصفة عامة . ثم أعقبه بتقرير آخر أرسله من مصوع في ٨ ابريل من نفس السنة . وقد أحيطت حكومة شريف علما بهذين التقريرين . وحاوات سلطات الاحتلال في مصر أن تسير على هدى هذين التقريرين ، بالإضافة الى التقرير الثالث الذى وضعه اللورد دوفرين Dufferin سفير إنجلترا بالاستانة بشأن تنظيم أمور مصر السياسية والاقتصادية عقب القضاء على الثورة العراقية .

وقد أجمعت هذه التقارير الثلاثة فيما يتعلق بالسودان على عدم تأييد فكرة الانسحاب واخلاء السودان كلية لما في ذلك من الاضرار بمصالح مصر والسودان في نفس الوقت . وقد أوضحت هذه التقارير بأنه اذا ما تعذر على مصر السيطرة على جميع الاقاليم السودانية ، فعليها ان تبذل جهودها في الاحتفاظ بما تحت يديها من اقاليم وخصوصا مديرتى الخرطوم وسنار . كما أشارت التقارير ايضا بضرورة تقديم المساعدات الحربية اللازمة للسودان حتى لا يخرج الأمر كلية من يدى مصر . وكان هذا من دوافع ارسال الحكومة المصرية للحلة هكس Hicks . وقائد الحملة من الضباط البريطانيين المتقاعدين ، وقد استخدمته الحكومة المصرية بصفته الشخصية دون أن تتحمل الحكومة الانجليزية مسؤولية تعيينه في هذا المنصب ، أو مسؤولية الحملة بصفة عامة .

ونظرا للإهمال الشديد الذى لقيته الحملة من المسؤولين فى مصر وبريطانيا على السواء ، وجعل القائمين على أمرها بطبيعة أرض السودان ، وعدم اختيار المكان المناسب للدخول فى حرب مع المهدي . كل هذا كان له أكبر الأثر فيما لقيته الحملة من هزيمة ساحقة على أيدي الدراويش .

تطورت الأمور فى السودان تطورا خطيرا بعد هزيمة الحملة ، ووجد شريف باشا رئيس الوزارة المصرية أن من الضرورى الاستعانة بالإنجلترا فى القضاء على الثورة ، وأوضح للبعيد البريطانى السير افلن بيرنج انه اذا لم تقدم إنجلترا جنود انجليزية أو هندية لمعونة مصر ، فانها ستضطر الى طلب مساعدة الباب العالى ، على ان إنجلترا وان كانت تخشى مثل هذه المحاولة الا انها بينت لسير افلن حين استفتاها بأن يعلم شريفا بأن مساعدة إنجلترا غير ممكنة وأنه ليس من مصلحة مصر استدعاء جنود تركية . وان الحل الوحيد هو اخلاء السودان الى اسوان أو وادى حلفا ، وكان لسياسة كرومر فى هذه المسألة قصر نظر لا مثيل له .^(١)

لم يكن شريف باشا يفكر مطلقا فى التخلي عن السودان كحل للمشكلة السودانية ، ولهذا لم يعر تلك النصيحة اهتماما كبيرا . ولكن

(١) — د. محمد مصطفى صفوت : الاحتلال الانجليزى لمصر وموقف الدول الاوربية ازاءه . ص ٢٥٥

ولكن الحكومة البريطانية أصرت على وجوب احترام الحكومة المصرية لما يسدى إليها من نصح . وهددت باستخدام كل السبل لتنفيذ أوامرها . وقد بدا هذا واضحا من البرقية التي بعث بها اللورد جرانفيل وزير الخارجية الانجليزية الى اللورد كرومر في ٤ يناير سنة ١٨٨٤ وهذا نصها : « لا أرى حاجة الى أن أوضح لكم أنه من الواجب ، مادام الاحتلال البريطاني المؤقت قائما في مصر ، أن تتأكد حكومة جلالة الملكة من ضرورة اتباع النصائح التي ترى اسدها للخديو في المسائل الهامة التي تستهدف فيها ادارة مصر وسلامتها للخطر . ويجب على الوزراء والمديرين المصريين أن يكونوا على بينة من أن المسئولية الملقاة الآن على عاتق الحكومة البريطانية تضطرها الى ان تهر على اتباع السياسة التي تراها . ومن الضروري أن يتخلى عن منصبه كل وزير أو مدير لا يسير وفقا لهذه السياسة . وأن حكومة جلالة الملكة لواقفة من أنه اذا اقتضت الحال استبدال أحد الوزراء ، فهناك من المصريين ، سواء من شغلوا منصب الوزارة أو شغلوا مناصب أقل درجة ، من هم على استعداد لتنفيذ الأوامر التي قد يصدرها اليهم الخديو بناء على نصائح حكومة جلالة الملكة » ^(١)

(١) - الكتاب الأخضر « السودان من ١٣ فبراير عام ١٨٤١ الى ١٢ فبراير عام ١٩٥٣ » رئاسة مجلس الوزراء . القاهرة ١٩٥٣

أمام هذا الضغط الانجليزى لم يجد شريف باشا بدا من تقديم استقالته احتجاجا على التدخل السافر الضار بمصر . وحاولت انجلترا أن تجد فى رياض باشا بديلا ، ولكنه رفض ايضا . فلجأوا الى نوبار باشا فقبل تأليف وزارة جديدة على اساس قبول نصيحة انجلترا باخلاء السودان .

معااهدة عروة

بعد أن تم لانجلترا ما أرادت بموافقة الوزارة المصرية على اخلاء السودان فى ٨ يناير سنة ١٨٨٤ ، بدأت تفكر فى طريقة تنفيذ هذا الاخلاء . وكان الموقف فى السودان خطير جدا ، وخصوصا فى شرق السودان حيث أطبقت قوات المهدي ورجال القبائل على حاميات كسلا وأميديت وسنيت وقطعت عنها كل اتصال بالخرطوم .

وقد وجدت الحكومة الانجليزية أن أفضل السبل لانقاذ القوات المصرية فى شرق السودان هو الاتفاق مع يوحنا ابراطور الحبشة على تقديم العون العسكرى والتسهيلات اللازمة لانسحاب تلك القوات عن طريق الحبشة . فى مقابل الاعتراف له بكل المطالب الاقليمية التى كانت مشار نزاع بينه وبين خديو مصر . أى أن بريطانيا قد ضغطت على حكومة مصر لقبول التنازل عن بعض ممتلكاتها للحبشة نظير مساعداتها للقوات المصرية بشرق السودان

على الانسحاب . وكما نجحت بريطانيا في ارغام مصر على قبول الجلاء عن السودان ، نجحت أيضا في اقتطاع أجزاء من ممتلكاتها في السودان الشرق ومنحها للحبشة .

وفي ٣ يونية سنة ١٨٨٤ تمكنت الأطراف الثلاثة المعنية بالامر وهي مصر والحبشة وانجلترا من عقد معاهدة عدوة . وقد وقعها عن الجانب الانجليزى الاميرال السيد ويليام هيوت قائد الأسطول الانجليزى فى الشرق الأوسط الهند ، وعن الفريق المصرى مازون بك محافظ مصوع وعن الجانب الحبشى الامبراطور يوحننا نفسه . وفيما يلى أهم مواد تلك المعاهدة : (١)

المادة الأولى : وتنص على السماح للحبشة بعد توقيع تلك الاتفاقية على مباشرة عملياتها التجارية عن طريق ميناء مصوع عبر الاراضى المصرية بما فى ذلك الاسلحة والذخائر .

المادة الثانية : ابتداء من أول سبتمبر سنة ١٨٨٤ ترد إلى ملك الحبشة بلاد بوغوص (٢) ، وعند جلاء القوات المصرية عن تحصينات كسلا وأميديب وسنيت تؤول ملكيتها بما فيها من منشآت ومبان مصرية ، وبما تشتمل عليه من مهمات وذخائر إلى ملك الحبشة .

(١) فيليب جلال : قاموس الادارة والقضاء ج ١ ص ٦٧٦

(٢) رد هذا الاقليم الى الحبشة فى ١٢ سبتمبر عام ١٨٨٤ .

المادة الثالثة : يتعهد ملك الحبشة بتقديم كافة التسهيلات الممكنة للقوات المصرية في انسحابها من كسلا وامديب وسمنيت عبر الحدود الحبشية إلى مصوع .

المادة الرابعة : يتعهد خديو مصر من جانبه كذلك بأن يمنح ملك الحبشة كافة التسهيلات اللازمة فيما يخص بتعيين رجال الدين (القسس) في الحبشة .

المادة الخامسة : وتنص على تعهد الطرفين المصرى والحبشى على تبادل المجرمين الفارين من العدالة .

المادة السادسة : في حالة حدوث خلاف بين خديو مصر وملك الحبشة بعد التصديق (١) على هذه المعاهدة ، يقبل الطرفان تحكيم ملكة انجلترا في تسويته .

وقد قام امبراطور الحبشة بما تعهد به ، ويذكر اسماعيل سرهنك أنه « بعد عقد المعاهدة المذكورة مع ملك الحبشة أرسل الملك حناكاسه جيشا بقيادة الرأس دهنشوم فأنقذ حامية القلابات في ٢٨ فبراير سنة ١٨٨٥ وأرسل جيشا آخر بعد ذلك إلى الجيرة فأنقذ حاميتها أيضا (بوليه ١٨٨٥) وأنزل عساكرها إلى مصوع عن طريق بلاده ، (٢) .

(١) صدقت جلالة ملكة بريطانيا على هذه المعاهد في ٤ بوليه عام ١٨٨٤ ، وصدق عليها خديو مصر في ١٥ سبتمبر عام ١٨٨٤ .
(٢) اسماعيل سرهنك : حقائق الاخبار ج٢ ص ٤٨٨

على هذا النحو تنتهى المنازعات بين الخديو ويوحنا فى ظروف غير مواتية بالنسبة لمصر . وعلى أى حال فتنازل مصر عن بعض ممتلكاتها للحبشة - وإن كان يعد خسارة أرغمت على قبولها - ففى لا تقارن إذا قيسست بخسارتها فى الجلاء عن السودان بأكمله .

المطامع الدولية فى ستملكات مصر بأعلى النيل وشرق أفريقيا
بعد أن وافقت الحكومة المصرية مضطرة على إخلاء السودان استجابة لنصيحة إنجلترا ، استقر رأى الحكومة الانجليزية على ارسال غوردون الى الخرطوم لتصفية الممتلكات المصرية وتأمين سلامة القوات المصرية والأجانب بالسودان . ولم يكن اختيار غوردون - فى حقيقة الأمر - لإنجاز هذه المهمة موفقا . فسياسة القوة والبطش التى سار عليها أثناء حكمه دارته للسودان مازالت ماثلة فى الأذهان . كما لم يكن ارسال غوردون وهو أجنبي أوربي مسيحي ليوقف خطر المهديين فى أكبر أوقات انتصهارهم ، وفى أعظم درجات حماسهم الدينية التى أخذت تكتسح كل شئ فى طريقها ، لم يكن ارساله خطة حكيمة ، ولذا لم يكن غريبا أن يفشل غوردون فى محاولته . ^(١)

بأمت جميع الخطط التى وضعها غوردون لانفاذ الموقف فى السودان بالفشل ، كما أخفقت أيضا كل الحملات التى ارسلت لتجديده وترتب على ذلك سيطرة المهديين على معظم أجزاء السودان ،

(١) د. محمد مصطفى صفوت : الاحتلال الإنجليزي لمصر وموقف الدول الأوربية
لإزائه ص ٢٥٦

وانقطاع المواصلات بينها وبين مصر. وقد زادت خطورة المهديين باستيلائهم على أم درمان في يناير عام ١٨٨٥، وتهديدهم الخرطوم تهديدا مباشرا.

وقد شجع سقوط أم درمان المهديون على مواصلة حصارهم للخرطوم والتشديد عليها قبل أن تتمكن الحكومة المصرية من نجدها وتم لأنصار المهدي الاستيلاء على العاصمة في يناير عام ١٨٨٥ وقتل غوردون والتناكيل به. ومنذ ذلك الوقت أصبح المهدي سيد السودان دون منازع، ثم انتقلت السلطة من بعده إلى خليفة عبد الله التعايشي.

مات المهدي بعد سقوط الخرطوم مباشرة وترك لخليفة تركه مشتتة بالأعباء فالدولة الجديدة قامت على أكتاف الدراويش بمن لا خبرة لهم بالسياسة أو شئون الحكم، زد على ذلك أن موت المهدي المفاجيء دون أن يتمكن من تثبيت دعائم الحكم المهدي في السودان على أسس وطيدة من النظام، قد جعل من هذه الدولة الكبيرة بناء لا أساس له، ولا يستطيع الصمود أمام العواصف، وما كان أشدها وأكثرها.

كان من أهم الواجبات - في نظر التعايشي - هو المحافظة على كيان هذه الدولة الكبيرة المترامية الأطراف من أطماع الدول الأجنبية، وكذلك الدفاع عن حدود السودان الشمالية من انتقام إنجلترا.

ورغم قيام الحكم المهدى فى السودان كحقيقة واقعة ، فإن
الدول الأوربية . قد أغفلت هذه الحقيقة واعتبرت السودان أرضا
ليست ملكا لأحد *res nullius* . وبناء على هذه النظرية أو هذا
التفسير أصبح من حقها أن تقتطع من أجزائه ما تشاء .

ولهذا فتاريخ القرن التاسع من الثمانينات حتى نهايته يمثل صفحة
من الصراع الاستعماري ، السياسي والحربي لتقسيم أفريقيا بصفة
عامة ، ومنطقة أعالي النيل بصفة خاصة . فما أن بدغ فجر القرن
الحالى إلا وكانت أغلبية القارة الأفريقية قد قسمت فيما بين
الدول الأوربية .

لم تنظر الحكومة الانجليزية بعين الارتياح إلى محاولة بعض
الدول الأوروبية التسلل فى شرق أفريقيا والتقدم صوب منطقة
أهالى النيل ، وخصوصا على حساب الممتلكات المصرية السابقة
فى السودان . لأنها كانت تعتبر أن إخلاء مصر للسودان إنما
يعتبر عملا مؤقتا ربما تستطيع مصر تكوين جيش قوى لاستعادته من
جديد . وفى نفس الوقت فإن التمسك بهذه النظرية يفيد إنجلترا ،
فاحتلالها لمصر يمنحها نوعا من الوصاية عليها وعلى ممتلكاتها . فإذا
ما رغبت إنجلترا فى وضع يدها على السودان ، فستقوم بهذا العمل

باسم مصر ولحسابها من الناحية الرسمية .

هذا من جهة ، ومن جهة أخرى فإن منطقة أعلى النيل على درجة كبيرة من الأهمية بالنسبة لمشروعات انجلترا التوسعية في أفريقيا ، فهي تحلم بخلق امبراطوريتها الافريقية التي تمتد من سواحل البحر الأبيض المتوسط شمالا إلى مدينة الكاب جنوبا ، وتشطر القارة الافريقية إلى شطرين . وستكون منطقة أعلى النيل بطبيعة الحال مركز الدائرة لهذه الامبراطورية ، وحلقة الاتصال في سكة حديد القاهرة الكاب .

وسيكون الموقف الدولي بصفة عامة ، وموقف فرنسا بصفة خاصة الاعتبار الأول في تشكيل سياسة انجلترا إزاء تلك المناطق ففرنسا كانت الدولة الوحيدة التي عارضت الاحتلال الانجليزي لمصر معارضة جديّة ، ووقفت له بالمرصاد منذ أن وطأت أقدامه أرضها .

فانجلترا إذ أن كانت تخشى من أن تؤدي معارضة فرنسا لبقاء احتلالها لمصر إلى اقدامها على مهاجمة منطقة أعلى النيل لارغام انجلترا على الدخول في مفاوضات معها لحل المسألة المصرية . ولهذا فقد حرصت على منع فرنسا من الوصول إلى هذه المنطقة بأي حال من الأحوال . وفي نفس الوقت كان عليها أن تحول بين إيطاليا والحبشة وألمانيا وبين الوصول إلى أعلى النيل ، لما بدا من تلك

الدول من رغبة أكيدة في السيطرة عليه .

بدأت إنجلترا تعمل على استرضاء إيطاليا التي ساء لها احتلال إنجلترا مصر دون أن يكون لها نصيب في الغنيمة ، حتى لا تنضم إلى عدوتها فرنسا . ولما كانت إيطاليا قد أخذت تبدى اهتماما كبيرا ببناء عصب بعد أن اشترته من الشركة الإيطالية في سنة ١٨٨٢ ، وأرادت أن تتخذ منه نقطة ارتكاز لعملياتها التوسعية على ساحل البحر الأحمر الغربي ، فقد وجدت إنجلترا أن من الحكمة تشجيع إيطاليا على هذا العمل وفتح مجال لتوسعها في تلك المناطق بالقدر الذي تحدده لها . وبهذا تتمكن إنجلترا من إرضاء إيطاليا وفي نفس الوقت الحيلولة بين هذه المناطق وبين أن تقع في يد عدوتها فرنسا .

وبناء على ذلك نجد أن إنجلترا تعقد مع إيطاليا في سنة ١٨٨٥ اتفاقا يخول لها الحق في احتلال مصوع ، ولم يكن مواد معاهدة عدوة التي عقدها معه في ٣ يونيو سنة ١٨٨٤ والتي تعهدت فيها بالسماح للأسلحة والمهمات الواردة إلى الحبشة أن تصل إليها عن طريق مصوع . بل إن الأمر لم يقف عند هذا الحد . فباستيلاء إيطاليا على مصوع أوقفت مرور الأسلحة إلى يوحنا امبراطور الحبشة ، وسمحت بارسالها لعدوه منليك ملك شوا . وبهذا العمل تنقض إنجلترا اليوم ما عقده بالأمس . والسبب في ذلك هو مصلحة إنجلترا أولا وقبل كل شيء . فمصلحتها بالأمس كانت في التعاون

مع يوحنا لتسهيل انسحاب القوات المصرية في شرق السودان والعمل على تخليصها من الحصار المطبق حولها . أما اليوم فكان على بريطانيا أن تميز في هذه الظروف بين حليفين الحبشة أو إيطاليا . ولما كانت مطامع إيطاليا لا يمكن أن تحقق إلا على حساب الحليف الآخر وهو الحبشة ، فلم يجد الانجليز بدا من التضحية بالأمبراطور^(١) .

ثم أخذ الايطاليون يسيطرون سيطرتهم على يبلول في شمال عصب وأعلنوا ضم ميناء زولا إلى ممتلكاتهم في سنة ١٨٨٨ . وبذلك أصبحت الممتلكات الإيطالية على ساحل البحر الأحمر الغربي تمتد من رأس قنار (جنوب ميناء سواكن) إلى أوبوك على الساحل . وفي مارس سنة ١٨٩٠ أعلنت الحكومة الإيطالية تسمية هذه الأقاليم باسم مستعمرة إريتريا . ثم كل هذا بتشجيع إنجلترا وطبقا لسياسه التي رسمتها من قبل .

كذلك وافقت إنجلترا على احتلال إيطاليا لإقليم كسلا ، وتوجيه نشاطها العلمي والتجاري لإقليم هرر . وكانت الحبشة قد احتلتها بعد إخلائه من القوات المصرية مباشرة ، وتوطد نفوذ إيطاليا في هذه المناطق باتفاقها مع إنجلترا في عامي ١٨٩١ ، ١٨٩٤ .

(١) د. علي إبراهيم عبده : المنافسة الدولية في أعالي النيل ص ١١٢

واعتراف انجلترا بادخال الحبشه بجمعها فى دائرة النفوذ الا يطالى
وبحيث لا تتجاوز هذا النطاق إلى منطقة أعالى النيل بأى حال من
الأحوال .

وبهذه الطريقة عاجلت انجلترا مسألة تسرب النفوذ الفرنسى
إلى منطقة أعالى النيل عن طريق شرق أفريقيا ، وحالت بين
التوسع الفرنسى على الساحل الشرقى لافريقيا وبين الامتداد إلى
أعالى النيل بحيث نجد أن نفوذ فرنسا على هذا الساحل قد امتد من
ميناء أبوك إلى منطقة تقرب من زيلع . وبعد ضم ميناء جيبوتى
اليها فى سنة ١٨٨٨ ، أعلنت الحكومة الفرنسية فى مايو سنة ١٨٩٦
توحيد جميع تلك المناطق التى تشمل أبوك وتاجورة والساحل
الصومالى فى إدارة واحدة ، أطلقت عليها اسم الصومال الفرنسى .
وإذا كانت انجلترا قد تمكنت من اتخاذ الاجراءات الكفيلة
بمنع فرنسا من الوصول إلى منطقة أعالى النيل عن طريق شرق
أفريقيا ، فإنها لم تستطع إقامة هذا السياج فى غرب السودان رغم
ما بذلته من محاولات .

ولما كانت ممتلكات المانيا وبلجيكا تتجاوز الحدود السودانية من ناحية
الغرب ، فقد لجأت انجلترا إلى الدخول فى مفاوضات
مع ألمانيا أولا ، القصد منها اغلاق هذه المناطق فى وجه فرنسا ،

وذلك عن طريق مد حدود الممتلكات الألمانية في السكرون بحيث تمتد شرقا حتى حدود السكغو وشمالا حتى بحيرة تشاد، وبذلك تفصل منطقة أعالي النيل عن الممتلكات الفرنسية في غرب أفريقيا، وتم لها ذلك بمقتضى المعاهدة التى عقدت بين الطرفين الانجليزى والالماني فى نوفمبر عام ١٨٩٣ .

ولكن هذا السياج الذى أقامته إنجلترا فى وجه التقدم الفرنسى من ناحية الغرب قد تصدع نتيجة للاتفاق الذى تم بين المانيا وفرنسا فى مارس عام ١٨٩٤ والذى تنازلت فيه فرنسا لألمانيا عن هذا الامتياز الذى منحة اياها إنجلترا، بحيث أصبح من حق فرنسا أن تمتد حدود ممتلكاتها فى افريقيا الغربية حتى بحيرة تشاد شمالا، وشرقا الى أى مدى تشاء .

هال إنجلترا تصدع هذه الجبهة التى أنشأتها بالاتفاق مع المانيا وأرادت أن تصلح ما أفسده الاتفاق الفرنسى الالماني . فممت وجهها شطر بلجيكا وعقدت مع ملكها ليوبولد اتفاقا فى مايو عام ١٨٩٤ ينص على منح إنجلترا شريطا ضيقا يمتد من بحيرة تنجانيقا الى بحيرة ألبرت ادوارد فى مقابل تأجير منطقة بحر الغزال الى ملك بلجيكا ، وذلك لنحوّل بين فرنسا وبين التقدم فى اعالي النيل وتهديد مركز إنجلترا فى مصر . فثارت المانيا وفرنسا لهذا الاتفاق واحتجتا لدى إنجلترا وأعلنتا بطلانه . وبهذا تفشل إنجلترا فى عرقلة التقدم الفرنسى جهة غرب السودان .

أما عن موقف الحبشة في ذلك الوقت فقد عرفنا كيف استغلت فرصة اعتزام مصر اخلاء السودان وضغط الحكومة الانجليزية عليها ، في أن تعقد اتفاقاً ثلاثياً بينها وبين مصر وانجلترا استولت بمقتضاه على منطقة كسلا واميديب وسنهيث وبوغوص . كما منحت تسهيلات كبيرة في مرور بضائعها وأسلحتها عن طريق مصر . وكانت الحبشة تطمع فيما هو أبعد من ذلك ، ألا وهو الوصول الى نهر النيل نفسه . وقد شجعها على ذلك عجز حكومة التعايشي عن الدفاع عن حدود السودان المترامية ونجاح بعض الدول الأوروبية في اقتطاع أجزاء منه .

وقد خيبت انجلترا آمال الحبشة ، فعاودة عدوة في ٣ يونيه عام ١٨٨٤ لم تحقق لها شيئاً . فصوع قد وقعت في يد ايطاليا ، كذلك استطاعت تكوين مستعمرة اريتريا وأن تحتل كسلا وأن تدس أنفها في اقليم هرر . كما استطاعت ايطاليا أيضا عقد معاهدة أوتشالي مع ملك الحبشة في ٢ مايو عام ١٨٨٩ والتي منحتها الحق في بسط حمايتها على الحبشة ، وجعلها منطقة نفوذ ايطالية .

لم تنقيد ايطاليا بالمناطق الحبشية التي نص عليها الاتفاق ، بل تجاوزتها واحتلت عدوة في عام ١٨٩٠ . وقد أساء هذا العمل الى ملك الحبشة أيما إساءة ولكنه سرها في نفسه ، لأن الوقت غير مناسب للدخول في حرب معها . وقد واثت الفرصة حينما تمكن من انزال هزيمة منكرة بالقوات الايطالية في موقعة عدوة في أول مايو

عام ١٨٩٦ . وأرغمت إيطاليا على توقيع معاهدة أديس أبابا مع منليك في ٢٦ أكتوبر من نفس السنة ، اعترفت فيها إيطاليا باستقلال الحبشة وتحديد الحدود بين اريتريا والحبشة .

استعادة فتح السودان

كان لإنهزام إيطاليا في موقعة عدوة أسوأ الأثر في نفوس الانجليز ، وجعلتهم يفكرون جديا في استرجاع السودان قبل أن تصل اليه فرنسا ، خصوصا وقد أخذت فرنسا تتقرب من الحبشة وتحاول استغلالها للتوسع في أعالي النيل واجباط المشروعات الانجليزية . وقد وجد هذا التقارب صدى لدى الاحباش ففضل معونة فرنسا وأسلحتها استطاعت أن تتغلب على الايطاليين . كما أن فرنسا على استعداد للاعتراف بالمطالب الحبشية على الضفة اليمنى من أعالي النيل .

وفي مارس عام ١٨٩٧ أرسلت الحكومة الفرنسية حاكم الصومال الفرنسى المسيو لاجارد M. Lagarde الى اديس أبابا في مهمة خاصة تملخص في اغراء الحبشة على قبول ارسال حملتين عن طريقها الى منطقة أعالي النيل لمعاونة بعثة أو حملة مارشان الآتية من الغرب عن طريق الكونغو . وقد وافقت الحبشة على ذلك بشرط أن تكون الضفة اليمنى من النيل فيما بين خطى عرض ٥ ، ١٤ شمالا من نصيبها .

قامت الحملتان تعززهما ثالثة في اتجاه النيل غربا ، ولكن نظرا لسوء الأحوال الجوية وتفشي الأمراض لم تستطع مواصلة التقدم ومع ذلك فان مجموعة منهم تبلغ نحو ٨٠ رجل ، متضمنة الأوربيين ، جاهدوا حتى وصلوا الى النيل في ٢٢ يونيه عام ١٨٩٨ قبل أن يصل مارشان الى فاشودة بثلاثة اسابيع ^(١) . وقد استاء هؤلاء من البقاء طويلا فقرروا العودة قبل وصول مارشان . وبهذا تفشل محاولات فرنسا من ناحية الحبشة .

وفي خلال تلك الفترة نجحت فرنسا في تشجيع الأحماس على ارسال أربع حملات الى أعالي النيل . ولو انها لم تحرز نجاحا يذكر إلا انها على أى حال قد أظهرت أطماع الحبشة في الضفة اليمنى من النيل .

وجدت إنجلترا نفسها مضطرة بأن تبذل نشاطا مضادا لنشاط فرنسا في اديس أبابا ، خصوصا وأن العلاقات بينها وبين الحبشة لم تكن مرضية نظرا لمساعدة إنجلترا ايطاليا في حربها ضد الحبشة سنة ١٨٩٦ ، هذا بالإضافة إلى أن أى اتفاق بين فرنسا والحبشة سيكون له خطورته على القوة المصرية الزاحفة على السودان . كما أن إنجلترا كانت تخشى من وجود اتفاق بين الحبشة والدرأويش في

السودان . لهذا أرسلت في أوائل سنة ١٨٩٧ بعثة انجليزية يرأسها المستر رنل رود Rennell Rodd إلى أديس أبابا .

وقد نجحت البعثة في الحصول على اعتراف من منليك بألا يقدم للدراويش أية مساعدة وألا يسمح لاسلحتهم من الوصول إلى السودان عبر أراضيه .

وفي مقابل ذلك سويت مشكلة الحدود بين الحبشة والصومال بمقتضى اتفاقية عقدت هذا الخصوص في ١٤ مايو سنة ١٨٩٧ . ولكنهما لم تنجح في تسوية الحدود الجنوبية والغربية للحبشة نظرا لإصرار منليك على مطالبه . ولهذا أرجأت الحكومة الانجليزية البت في مسألة الحدود السودانية الحبشية إلى وقت آخر ، ربما تتمكن القوات المصرية من دخول الخرطوم .

دفعت الأحوال السائدة في السودان واعتزام فرنسا احتلال أعالي النيل لارغام إنجلترا على تسوية المسألة المصرية ، إلى تجميع حملة عسكرية تحت قيادة كستشنر لاسترجاع السودان من أيدي الدراويش . وكانت كل من إنجلترا وفرنسا في سباق من الزمن . أيهما سيكون له الغلبة وأيها سيصل قبل الآخر . وكما ذكرت كانت فرنسا قد أعدت ثلاث حملات من ناحية الحبشة لمساعدة بعثة مارشان في تقدمها في أعالي النيل . وفي يولييه سنة ١٨٩٨ وصل

مارشان الى قرية فاشودة بصحبة عدد من الضباط الاوربيين وما يزيد عن المئة من الجنود السنغاليين ، ورفع العلم الفرنسي فوق هذه القرية . وكانت تشد من أزره قوة بلجيكية أرسلها الملك ليوبولد لحماية مارشان من قوات الدراويش .

تقدمت القوات المصرية بقيادة كيتشنر بعد دخولها الخرطوم صوب الجنوب ، ووصلت فاشودة في ١٩ سبتمبر سنة ١٨٩٨ . وفي ذلك الوقت تقدم كيتشنر بانذار الى مارشان محتجا على استيلاء فرنسا على قرية كانت خاضعة لمصر رفضه مارشان وتخرج الموقف وكاد يؤدي إلى نشوب حرب بين الدولتين الكبيرتين ، ولكن فرنسا اضطرت الى الانسحاب في النهاية بعد أن وجدت أن اعتمادها على حليفها روسيا لم يفدها شيئا . وفي اتفاقية ٢١ مارس سنة ١٨٩٩ التي وقعت بين الدولتين وضع حد نهائى لمطامع فرنسا في في وادي النيل .

الاتفاق بين بريطانيا والحبشة في ١٥ مايو سنة ١٩٠٢ بشأن الحدود

ظلت مشكلة الحدود بين ممتلكات مصر والحبشة التي عجزت مصر عن حلها في عهد اسماعيل قائمة دون حل . وكان على انجلترا أن تجد لها حلا بعد فشل محاولتها في سنة ١٨٩٧ . وقد واثت الفرصة في ١٩٠٢ نتيجة خطأ وقعت فيه فرنسا واستغلته انجلترا لمصلحتها .

وتفسير ذلك أن امبراطور الحبشة كان قد منح في سنة ١٨٩٤ أحد السويسريين حق امتياز مد خط حديد الحبشة . وتكونت لهذا الغرض شركة فرنسية ، أخذت على عاتقها تنفيذ هذا الخط . وحدث أن الشركة الفرنسية عجزت عن القيام بالتزاماتها واحتاجت إلى زيادة رأس مالها . فوجدت الشركات الانجليزية أن الفرصة سانحة للاشتراك في زيادة رأس المال ، ليتمكن بذلك النفوذ الانجليزي من أن يجد له مكانا بالحبشة إلى جانب النفوذ الفرنسي .

وحدث في ذلك الوقت أن الحكومة الفرنسية تدخلت لدى الشركة الفرنسية ومنحتها إعانة سنوية تقدر بنصف مليون فرنك لمدة خمسين عاما ، وذلك لزيادة رأس المال ، وإصدار أسهم بقيمتها تكون من نصيب المكتسبين الفرنسيين . وبهذا العمل استطاعت الحكومة الفرنسية أن تهيمن على الشركة دون استشارة منليك ملك الحبشة أو أخذ رأيه في هذا الموضوع بصفته صاحب الحق الأول في منح الامتياز .

استغلت إنجلترا هذا الخطأ الذي ارتكبه فرنسا وأخذت مبعوثها في أدريس أبابا السير جون هارنجتون يوغر صدر منليك ضدها ، ويوضح له النوايا الخفية من وراء هذه المحاولة من قبل فرنسا . فترتب على ذلك زيادة التقارب بين إنجلترا والحبشة ، هذا التقارب

الذى أدى إلى توقيع الاتفاق بينهما فى ١٥ مايو سنة ١٩٠٢ بشأن الحدود السودانية الحبشية . وفيما يلى أهم النقاط التى اشتملت عليها الاتفاقية ^(١) :

أولاً : اتفق الطرفان المتعاقدان على أن خط الحدود بين السودان وأثيوبيا يسير من أم حجر إلى القلابات فالنيل الأزرق ففهر بارو ففهر ييبور ففهر أكوبو إلى مليلة ، ومنها إلى نقطة تقاطع خط عرض ٦ شمالاً مع خط طول ٣٥ شرق جرينتش . (وقد رسم خط الحدود بالمداد الأحمر على الخريطتين الملحقين بالاتفاقية) .

ثانياً : يتعهد جلالة الامبراطور منليك الثانى قبل حكومة صاحب الجلالة البريطانية بعدم تشييد أو السماح بتشيد أى عمل على النيل الأزرق وبحيرة تسانا أو نهر السوبات يكون من شأنه منع جريان المياه إلى النيل إلا بالاتفاق مع حكومة جلالة الملك البريطانية وحكومة السودان .

ثالثاً : يتعهد جلالة الملك الامبراطور منليك ملك ملوك اثيوبيا ، بأن يسمح لحكومة جلالة الملك البريطانية فى السودان

1- E. Hertslet : The Map of Africa by Treaty, vol. 2, No.100
p. 430

باختيار قطعة أرض بجوار ايتانج على نهر بارو لا تزيد طولها عن
ألني متر ولا تزيد مساحتها عن ٤٠ هكتارا (الهكتار ١٠.٠٠٠
متر مربع) لاحتلالها وإدارتها كمحطة تجارية ، طالما خضع السودان
للحكم المصري الانجليزي ، وقد اتفق الطرفان المتعاقدان على أن
الأرض المؤجرة لن تستخدم في الأغراض السياسية أو الحرية .

رابعا : يمنح صاحب الجلالة الامبراطور منليك ، ملك ملوك
أثيوبيا ، حكومة صاحب الجلالة ملك بريطانيا وحكومة السودان
الحق في إنشاء خط حديدى عبر الأراضى الحبشية لربط
السودان بأوغندا .

بهذه المعاهدة تنتهى مشكلة الحدود بين السودان والحبشة
تلك المشكلة التى ثارت فى أواخر عهد اسماعيل والتى حاولت مصر
وضع حد لها ، ولكنها أخفقت لمغالاة الأحباش فى مطالبهم . وقد
نجحت إنجلترا الى حد ما فى حل هذه المشكلة فى اتفاقية عدوة فى
٣ يونيه عام ١٨٨٤ . ولكن اطماع ايطاليا وفرنسا والحبشة قد
أطاحت بتلك الاتفاقية .

وظلت المشكلة دون حل ، نتيجة تطلع الأحباش الى وادى
النيل ورغبتهم فى السيطرة على الضفة اليمنى للنيل جنوبى الخرطوم .
ولكن إنجلترا ما كانت تسمح بمثل هذا التوسع على حساب السودان .

إلى أن أتاح الظروف للطرفين الانجليزى والحبشى عقد اتفاقية عام ١٩٠٢ .

وفي نفس الوقت أى فى ١٥ مايو عام ١٩٠٢ تم لانجلترا عقد معاهدة اخرى بينها وبين ايطاليا والحبشة بشأن تحديد الحدود بين ارتيريا والحبشة . وبهذا تستقر الامور على حدود الحبشة بفضل هاتين الاتفاقتين واتفاقى عام ~~١٩٠٦~~ ١٩٠٧ ، الاولى بين بريطانيا وفرنسا وايطاليا والحبشة ، والثانية بين بريطانيا والحبشة .

وإذا القينا نظرة عامة على العلاقات بين مصر والحبشة فى القرن التاسع عشر ، نجد أن هذه العلاقات قد تميزت فى الفترة الاولى منها ، والى سبقت الاحتلال الانجليزى ، بأثر مصر الواضح فى توجيه تلك العلاقات الوجهة التى تريدها على قدر ما تسمح به الظروف رغم التدخل الأرونى فى شئون مصر فى أخريات أيام اسماعيل وبداية عهد توفيق . ولكن منذ أن وقعت مصر فريسة الاحتلال ، لم يصبح مصيرها فى أيديها ، بل انتقلت الى أيد غير أمينه ، كانت ترعى مصالحها أولا وقبل كل شىء .

ولهذا أرغمت مصر على قبول معاهدة عدوة فى ٣ يونية عام ١٨٨٤ رغم الاحجاف البين بحقوقها . ومن ثم أخذت انجلترا تنصرف فى شئون مصر وفى ممتلكاتها

طبقا لمشيئتها هي ، دون نظر لمصلحة مصر ، فكانت تسترضى بعض الدول على حساب الممتلكات المصرية ، وتقف في وجه البعض الآخر - لا حرصا منها على أراضي مصر - وإنما لاختلافه معها حول تقسيم بعض مناطق النفوذ . وهكذا أصبحت إنجلترا منذ عقدها الوفاق الثنائي مع مصر ، والخاص بالحكم المشترك في السودان في عام ١٨٩٩ تتصرف في شؤنه كيف تشاء من غير رقيب ولا حسيب .

المراجع

أولا - المراجع العربية والتركية :

(١) وثائق لم يسبق نشرها

(٢) مراجع عربية .

(٣) دوريات .

(٤) خرائط

ثانيا - المراجع الأوروبية :

(١) وثائق لم يسبق نشرها

(٢) مراجع عامة .

(٣) دوريات

أولاً : المراجع العربية والتركية نقلاً عن دار المحفوظات التاريخية بالقصر الجمهوري (عابدين سابقاً) .

(١) وثائق لم يسبق نشرها

دفاتر أوامر - وعددها ٢٨ دفترًا تشمل السنوات من عام ١٢٧١ هـ إلى ١٢٩٧ هـ (عام ١٨٥٤ - عام ١٨٨٠ م) ، وتضم الأوامر الصادرة من وإلى مصر إلى ديوان الجهادية في كل ما يتعلق بشئون القوات المصرية ، وخصوصاً ما يتصل منها بسياسة اسماعيل الحرية . وهذه الدفاتر غير متسلسلة ، ولكنها توجد مع مجموعة دفاتر الأوامر التي تبدأ برقم ٥٣٠ وتنتهي عند رقم ٢٩٥٤ .

٢ - دفاتر أوامر عربي - وتشتمل على المراسلات المتبادلة بين الخديو اسماعيل ويوحنا ملك الحبشة ، ومنليك ملك شوا ، وبعض رؤوس الاحباش بشأن العلاقات بين مصر واثيوبيا . وتعتبر هذه الوثائق على درجة كبيرة من الأهمية ، لأنها تبين بجملاء ووضوح سياسة الخديو اسماعيل بإزاء الحبشة .

٣ - دفاتر صادر الجهادية - من رقم ١ إلى رقم ٥١٢٧ غير متسلسلة وتشمل السنوات من ١٢٦٠ - ١٢٩٠ هـ (١٨٤٤ - ١٨٧٣) وتشتمل على جميع المكاتبات الصادرة من ديوان الجهادية إلى الأورط والآليات المختلفة .

٤ - دفاتر صادر تلغرافات بمحافظة مصوع - وتشتمل على المراسلات المتبادلة بين حكمدار عام السودان، بشأن التوسع المصرى فى السودان والساحل الشرقى لأفريقيا . وهذه المجموعة تضم أخبار الحملات المصرية على الحبشة ، وتوضح بشئ كثير من الأسباب تحركات القوات المصرية فى تقدمها داخل الأراضى الحبشية يوما بيوم ، ولهذا تعتبر على درجة كبيرة من الأهمية بالنسبة لموضوع البحث .

٥ - دفاتر قيد الأوامر الكريمة الواردة لديوان الجهادية - وتشتمل على مجموعة ضخمة من الوثائق التى تضم الأوامر التى أصدرها اسماعيل إلى ديوان الجهادية فيما يتعلق بالشئون الحربية .

٦ - دفاتر قيد التلغرافات الواردة لديوان الجهادية - وتحمل الأرقام من ٢٨٥٦ إلى ٢٩٩٤ وهى غير متسلسلة ، وعددها ٢٥ دفترًا وتشتمل على التلغرافات الواردة لديوان الجهادية من مختلف وحدات الجيش المصرى طلبا للأسلحة والمؤن والكساوى والمرتباض . وتكشف لنا تلك البرقيات عن جانب مظلم ، حالك السواد فى تاريخ الجيش المصرى ، فتبين الحالة السيئة التى وصلت إليها قواتنا الحربية فى أواخر عصر اسماعيل ، عندما اشتدت الأزيمة المالية ، واضطربت شئون البلاد فقد انعكست هذه الحالة

التعسة على الجيش ، فعم السخط جنوده وضباطه وزاد التدميرين صفوفه ، وكان ذلك باعثا على قيام الثورة العراقية القومية .

٧ - دفاتر عابدين - وتضم مجموعة تقرب من الخمسين دفترا وتشتمل على المكاتبات المتبادلة بين الخديو اسماعيل والباب العالي عن طريق ممثله (القبوكتخدا) في الآستانة . ولهذه الدفاتر أهمية كبيرة نظرا لما تلقيه من ضوء على علاقة الخديو بالباب العالي في مختلف الشؤون ، من حرية وسياسية وإدارية . وتوضح الأهداف الخفية في سياسة اسماعيل وقد ضمت مجموعة من الوثائق السرية (غير الرسمية) المتبادلة بين اسماعيل وممثله في الآستانة ، وتبين وجهة نظر والى مصر في علاقته بالدولة العثمانية ومدى تلك العلاقة .

٨ - دفاتر معية تركى - من رقم ٥٢٧ إلى ٥٨٥ بالاضافة إلى ١٨ دفترا بدون رقم . ودونت بهذه الدفاتر المكاتبات التركية المتبادلة بين المعية السنية ومختلف دواوين الحكومة ، ومنها ديوان الجهادية فيما يتعلق بالشؤون الحربية .

٩ - دفاتر وارد الجهادية - من رقم ٥ إلى ٦٣٨ غير مسلسلة وتشمل المدة من سنة ١٢٦٠ إلى سنة ١٢٩٠ هـ (١٨٤٤ - ١٨٧٣ م) وعددها ٧٥١ دفترا ، وتضم المكاتبات المختلفة الواردة لديوان الجهادية من مختلف وحدات الجيش .

١٠ - دوسيه ٣/٥ كتابات واردة من يوحنا إلى الخديو توفيق -

ويشتمل على المكاتبات المتبادلة بين الخديو توفيق والملك يوحنا بشأن تسوية مشكلة الحدود التي ظلت قائمة منذ الحملة الحبشية الأولى .
ولهذه الوثائق أهميتها الخاصة في تتبع المشكلة والخطوات التي اتخذت في سبيل الوصول إلى تسوية مرضية .

١١ - محافظ بحر برا - وتضم المراسلات المتبادلة بين حاكم دار

السودان ومهد دار الخديو بشأن حملة السير ساميويل بيكر والتوسع في أعالي النيل . وتوضح تلك المكاتبات سياسة مصر بوضوح وجلاء في مسألة ضم مناطق أعالي النيل إلى مصر والسياسة التي اعتمدتها الحكومة المصرية تنفيذها في تلك الأقاليم .

١٢ - محافظ الجهادية - من رقم ٧ إلى ١٢ وقد اشتملت على

الأوامر الصادرة من الخديو إلى ديوان الجهادية بشأن العمليات الحربية والشئون العسكرية ، ومعظم تلك المراسلات باللغة التركية والبعض الآخر باللغة العربية .

١٣ - محفظه سودان رقم ١/٥ (أوراق تتعلق بحوادث

بلاد الحبشة ومكاتبات من ملك زنجبار) - وتشتمل هذه الوثائق على أخبار حملة أرندروب على الحبشة وسياسة مصر بإزاء التوسع على ساحل أفريقيا الشرقي ، وعلاقتها بزنجبار .

١٤ - محفوظة ٨ سودان - وتضم تقارير وافية عن الحملة الحبشية الثانية أى حملة راتب باشا ، وعن تحركات القوات المصرية يوما بيوم وساعة بساعة وهى عظمة الأهمية ، وخصوصا فيما يتعلق بعمليات مصر الحربية فى الحبشة .

(٢) مراجع عربية أساسية

احمد عرابى باشا - كشف الستار عن سر الأسرار فى النهضة المصرية المشهورة بالثورة العرابية . (مخطوط) بدار الكتب المصرية . سنة ٨١ - ١٨٨٢ .

ومؤلف هذا الكتاب غنى عن التعريف فهو زعيم الثور المصرية الأولى ، وأهمية الكتاب ترجع إلى أن احمد عرابى قد اشترك فى حملة راتب باشا على الحبشة كضابط مسئول عن تموين الحملة . وقد ذكر فى صراحة ووضوح تفاصيل كثيرة عن الحملة بصفة خاصة وعن حالة القوات المصرية والمصريين بصفة عامة .

اسماعيل سرهنك باشا - حقائق الأخبار عن دول البحار .
جزءان (والثالث غير كامل) القاهرة ١٣١٣ - ١٣١٦ هـ

للكتاب قيمة علمية كبيرة ، فؤلفه كان من ضباط البحرية المصرية الممتازين . بدأت خدمته فى عصر اسماعيل ، وكان أبوه

سرهنك بك ما زال فى خدمة البحرية المصرية حتى ذلك الوقت .
وقد تدرج اسماعيل سرهنك فى عدة مناصب حربية إلى أن وصل
فى سبتمبر سنة ١٨٩٣ إلى منصب ناظر المدرسة الحربية خلفا
للضابط الفرنسى لارمى . من هذا العرض الموجز لتاريخ حياة
المؤلف ، نرى أنه قد نشأ فى بيئة حربية وعمل هو ووالده فى خدمة
البحرية المصرية فى عصر اسماعيل ، فأتاح له ظروفه وما وصل إليه
من مركز رفيع الإلمام التام بحالة الجيش المصرى وما خاضه من
حروب .

أمين سامى باشا - التعليم فى مصر . القاهرة ١٩١٧

» » » - تقويم النيل وعصر عباس وسعيد الجزء

الثالث (المجلد الأول) القاهرة ١٩٣٦

» » » - تقويم النيل وعصر اسماعيل . (المجلد

الثالث) القاهرة ١٩٣٦

للمراجع السابقة أهمية خاصة من وجهة نظر المؤرخ ، وذلك
لإعتمادها على المصادر الرسمية المعاصرة ، كجريدة الوقائع المصرية .
هذا فضلا عن الوثائق المختلفة التى استطاع الاطلاع عليها بدار
المحفوظات التاريخية بالقصر الجمهورى ، والتى جمع منها الشئ الكثير .
وفى نفس الوقت فقد شغل المؤلف عدة مناصب حكومية رئيسية

مكنته القيام بهذا العمل الضخم ، وحشد هذا العدد الكبير من الوثائق الهامة في تلك المؤلفات .

عمر طوسون (الأمير) - تاريخ مديرية خط الاستوائية المصرية من فتحها إلى ضياعها من سنة ١٨٦٩ إلى ١٨٨٩ . ويتناول الكتاب تاريخ الحكم المصرى لهذه المديرية من حكمدارية السير ساميويل بيكر إلى حكمدارية غوردون وأخيرا حكمدارية أمين باشا حتى عام ١٨٩٩ - ويعتمد المؤلف في جمعه للمعلومات التي وردت بهذا الكتاب على ما كتبه السير ساميويل بيكر في كتابه (بحيرة البرت نيانزا) و (الاسماعيلية) . وكذلك ما كتبه غوردون في كتابه (خطابات الجزال غوردون إلى شقيقته) وما كتبه چيسى في كتابه (سبع سنوات في السودان) ، وكذلك اعتمد على ما دونه الدكتور آبات في كتابه (السودان في ظل حكم اسماعيل) . ولهذا يمكننا القول بأن الكتاب قد اعتمد في استيفاء معلوماته على شخصيات معاصرة لها أهميتها في تاريخ مصر .

الدكتور محمد مصطفى صفوت - الاحتلال الانجليزى لمصر وموقف الدول الأوروبية أزاءه ١٩٥٢ . لهذا الكتاب قيمة علمية كبيرة ، وخصوصا فيما يتعلق بموقف الدول الأوروبية أزاء احتلال انجلترا مصر ؛ والوضع في السودان بعد خضوع مصر للحكم

الانجليزى . وأهمية هذا الكتاب ترجع إلى الاعتماد اعتمادا أساسيا على الوثائق التاريخية لمختلف الدول الأوروبية الكبرى .

المراجع الأخرى

احمد شفيق باشا : مذكراتى فى نصف قرن . الجزء الأول ١٩٣٤

الأميرالاي ابراهيم فوزى : السودان بين يدى غوردون وكتشنر . جزءان . القاهرة ١٩٣٩ هـ

سليم خليل نقاش : مصر للبصريين . الأجزاء من ٤ - ٩ الإسكندرية سنة ١٨٨٤

عبد الرحمن الرافعى : عصر اسماعيل . جزءان القاهرة ١٩٣٢

د . د . : الثورة العراقية والإحتلال البريطانى . القاهرة سنة ١٩٣٧ .

د . د . : مصر والسودان فى أوائل عهد الاحتلال ، الطبعة الثانية ١٩٤٨ مطبعة الفكرة بمصر

فيليب جلاذ : قاموس الإدارة والقضاء - سبعة أجزاء . اسكندرية من ١٨٩٠ إلى ١٨٩٦ .

محمد احمد الجابرى : فى شأن الله . أو تاريخ السودان كما يرويه
أهله . القاهرة سنة ١٩٤٧ .

الدكتور محمد صبرى : مصر فى أفريقيا الشرقية . القاهرة
سنة ١٩٤٨

، ، ، : الامبراطورية السودانية فى القرن
التاسع عشر . القاهرة سنة ١٩٤٨

الدكتور محمد فؤاد شكرى : الحكم المصرى فى السودان
(١٨٢٠-١٨٩٩) القاهرة ١٩٥٧

اللواء محمد مختار (باشا) : التوفيقات الالهامية فى مقارنة
التورينج الهجرية بالسنيين
الافرنكية والقبطية . بولاق
سنة ١٣١١ هـ .

نعوم شقير (بك) : تاريخ السودان القديم والحديث
وجغرافيته . ثلاثة أجزاء . القاهرة
سنة ١٩٠٣ .

(٣) دوريات

الوقائع المصرية : وهى سجل حافل لاهم الاحداث التى وقعت
فى عصر اسماعيل . ويستطيع الباحث أن

يجد بها من المعلومات الشيء الكثير . وقد
اعتمد عليها أمين سامى باشا اعتمادا كبيرا فى
تدوين مؤلفه (تقويم النيل) .

الجريدة العسكرية المصرية : وهى صحيفة شهرية قصرية ،
بدأ صدورها فى غرة جمادى
الآخرة سنة ١٢٨٢ هـ (١٨٦٥ م)
وقد اهتمت اهتماما خاصا بأخبار
الجيش المصرى وبنظمه وتعاليمه .

مجلة أركان حرب الجيش المصرى : عاصرت هذه المجلة
الجريدة السابقة . وصدرت لأول
مرة فى سنة ١٢٩٠ هـ (١٠ يوليه سنة
١٨٧٣) . وقد عنيت بنشر أخبار
الحروب والمعارك التى خاضها الجيش
المصرى ، والنشاط الذى ساهمت فيه
يتركز حول حركة الكشف
الجغرافية ورسم الخرائط المختلفة
لأنحاء السودان بما فى ذلك الحبشة .

(٤) الخرائط

خرائط الحبشة : وهذه الخرائط محفوظة بالقصر الجمهورى
(عابدين سابقا) . وقام بوضعها ضباط
أركان حرب الجيش المصرى .
وتشتمل على خرائط عديدة توضح خط
سير حملات ارنديروب ومنسنجر وراتب
باشا . وكذلك خريطة تفصيلية لمعركة
قرع . وقد نقلت بعض هذه الخرائط
بشكل مصغر وضمنتها هذا الكتاب .

المراجع الأوربية

(١) وثائق لم يسبق نشرها

(أ) الوثائق الانجليزية المنقولة عن وزارة الخارجية الانجليزية .

British Foreign Office Correspondance, Public Record Office, London.

وقد رمزنا اليها في هذا الكتاب بالحرفين F. O. ، وتضم الوثائق التي تبودلت بين قناصل إنجلترا الجنرالات بمصر في فترة حكم اسماعيل ، ووزارة الخارجية الانجليزية ، والتي تتعلق بشئون مصر من سياسية وادارية وحربية . وكذلك المكاتبات المتبادلة بين سفير إنجلترا بالاستانة ووزارة الخارجية الانجليزية فيما يخص بشئون مصر . وتشتمل أيضا على المراسلات المتبادلة بين سفراء إنجلترا بالدول الأوربية المختلفة ووزراء الخارجية الانجليزية الخاصة بمصر . وتلقى هذه الوثائق ضوءا كبيرا على سياسة اسماعيل ازاء إنجلترا ، وموقف الحكومة الانجليزية منه طوال فترة حكمه إلى احتلالها لمصر سنة ١٨٨٨ .

وقد رتببت تلك الوثائق على النحو التالي :

Dossier No.	24	1862-63
" "	25	1864

Dossier No.	26	1865
" "	27	1866-1869
" "	28	1867-1870
" "	29	1875-1879
" "	30	1876
" "	31	1877
" "	32	1878
" "	33	1879
" "	34	1882

(ب) الوثائق الفرنسية المنقولة عن وزارة الخارجية

الفرنسية

Ministère des Affaires Etrangères.

وتشتمل هذه الوثائق على جميع المراسلات المتبادلة بين وزارة الخارجية الفرنسية وقناصل فرنسا الجزائر بمصر أو سفرائها بالدول الأوروبية بشأن المسائل المصرية . وهي توضح سياسة فرنسا إزاء مصر خلال النصف الثاني من القرن التاسع عشر .

وقد رتبت الوثائق على النحو الآتي :

Doss.	No.	46	1863
"	"	47	1864
"	"	48	1865
"	"	49	1866-1868
"	"	50	1869
"	"	51	1870-1872

Doss.	No.	52	1873-1875
"	"	53	1876
"	"	54	1875-1876
"	"	55	1877
"	"	56	1878
"	"	57	1879
"	"	58	1879
"	"	59	1880

(ج) الوثائق النمساوية المنقولة عن وزارة الخارجية النمساوية

Austrian Foreign Office Correspondance; Wiener
Staataarchiv. Embassy and Consular Correspond-
ence 1862-79

وتتضمن هذه الوثائق المراسلات والتقارير المتبادلة بين وزارة
الخارجية النمساوية وقناصل النمسا الجنرالات بمصر وسفرائها
بالدول الأوربية الخاصة بمصر. وتلقى ضوءاً على سياسة النمسا
أزاء الدولة العثمانية بصفة عامة ومصر بصفة خاصة. وتشتمل
الفترة من سنة ١٨٦٢ إلى سنة ١٨٨٢ على ٤٢ ملفاً.

(د) الوثائق الأمريكية

1 — Egyptian Despatches from the Consulate
General of the United States of America in Egypt to
the Department of State, Washington in 16 volumes,
covering the years 1849-1879 inclusive.

2 — Instructions to the Consuls of the United States in Egypt for the Department of State found in vol. XIV Department of State, Washington, U. S. A. (1848-1868).

3 — Instructions to the Consulate General of the United States at Alexandria, Egypt for the Department of State found in vol. XV (1868-1875).

Printed Documentary Sources :

وهي مجموعة الوثائق الانجليزية التي صدرت على شكل كراسات متتابعة خلال النصف الثاني من القرن التاسع ، وتضمن المراسلات التي تبودلت بين وزارة الخارجية الانجليزية وحكومات الدول الاوربية الأخرى بشأن المسألة المصرية وهي على درجة كبيرة من الأهمية لبيان وجهة نظر الحكومة الانجليزية فيما يتعلق بشئون مصر .

Documents Diplomatiques Français (1871-1914).

قامت بنشر هذه المجموعة الضخمة من الوثائق الحكومة الفرنسية بعد الحرب العالمية الأولى ، وهي تضم المراسلات الرسمية التي تبودلت بين الحكومة الفرنسية وحكومات الدول الأخرى ، أو بين وزارة الخارجية الفرنسية وممثليها الدبلوماسيين لدى تلك الدول . وهذه الوثائق تلقى ضوءا كبيرا على موقف الحكومة الفرنسية من المسائل المصرية ، وتصارع النفوذ بينها

وبين انجلترا في مصر .

Livres Jaune Français.

وهي شبيهة بالكراسات الزرقاء التي أصدرتها الحكومة
الانجليزية ، ولكن معظم ما جاء بتلك الكراسات من وثائق قد
تضمنتها مجموعة الوثائق الفرنسية السابقة التي نشرت بعد الحرب
العالمية الأولى .

(٢) مراجع أوريه أساسيه

Baker, Sir S. W; Ismailia, London 1895.

لهذا الكتاب قيمة كبيرة فؤلفه هو السير سامويل بيكر الذى قام بحملته الشهيرة إلى أعلى النيل وشغل منصب حاكم دار مديرية خط الاستواء من سنة ١٨٦٩ إلى سنة ١٨٧٣ . والكتاب يوضح فى شئ كثير من التفاصيل ما قام به مؤلفه فى حملته السابقة من أعمال ، وبين فى نفس الوقت نزعته الاستعمارية ومحاولته تدعيم النفوذ الانجليزى فى تلك المناطق دون نظر لمصلحة مصر .

Chaillé-Long; My life in four Continents. London 1912.

" " ; L'Egypte et ses provinces perdues. Paris 1892.

" " ; Les Trois Prophets. Le Mahdi Gordon, Arabi. Paris 1886.

للكتب الثلاثة قيمة علمية لا تنسركر ، نظرا لما ورد بها من معلومات كثيرة تتعلق بمتلكات مصر فى السودان والقارة الأفريقية وتعرض فى كتابه الأخير على وجه الخصوص لشخصيات ثلاثة كان لها أكبر الأثر فى تاريخ مصر وهم ، المهدي وغوردون وعرابي . والمؤلف من الضباط الأمريكيين الذين استخدموا فى هيئة أركان حرب الجيش المصرى منذ ٣ مارس سنة ١٨٧٠ إلى نهاية حكم اسماعيل . وقد بزغ نجمه بعد نجاحه فى مأموريته إلى ملك أوغنده

في سنة ١٨٧٤ وطوافه فوق بحيرة فيكتوريا وقيادته لتجريدة
مكرাকা (نيام نيام) سنة ١٨٧٥ . وقد أنعم عليه في ٧ ديسمبر
سنة ١٨٧٤ برتبة الأميرالاي وبالنيشان المجيدى من الدرجة
الثالثة مكافأة له على خدماته . فنظرا لخدمته بشئون مصر ،
وخصوصا مايتعلق منها بالممتلكات الأفريقية ، كانت لكتاباته
قيمة كبيرة .

Douin; Histoire de Règne du Khedive Ismail.
Le Caire 1933-1939.

Tome 1er — Les premières Années du règne
(1863 - 1867)

" 2 — L'apogées (1867-1873)

" 3 — L'Empire Africain :

1er partie (1863-1869)

2 " (1869-1873)

3 " (1874-1876)

ولهذا الكتاب أهمية كبيرة لاعتماده اعتمادا يكاد يكون تاما على
الوثائق التاريخية المحفوظة بالقصر الجمهورى (عابدين سابقا) . وقد
تعرض فى هذا الكتاب للإمبراطورية الأفريقية والتوسع المصرى
فى السودان بالتفصيل .

Dye. W. Mc E., Moslem Egypt and Christian
Abyssinia, or Military Science under the Khedive in

his provinces beyond the borders as experienced by the American Staff, New York, 1880

من أهم الكتب التي كتبت عن الحروب الحبشية المصرية بكل تفصيل . وهو يضم معلومات قيمة عن حملات مصر على الحبشة وخصوصا حملة راتب باشا . وأهمية الكتاب ترجع إلى أن مؤلفه وهو الجنرال داي كان من الضباط الأمريكيين الذين التحقوا في خدمة الجيش المصري منذ عام ١٨٧٠ . وقد اشترك اشتراكا فعليا في حملة راتب باشا كمساعد للجنرال لورنج رئيس هيئة أركان حرب الحملة . ولهذا فكتاباتة عنها تعتبر كتابة الخبير بيوطن الأمور ، والعليم بكل دقائق الحملة . وقد اعتمدنا عليه اعتمادا كبيرا في هذا الموضوع

Loring, W. W.; A Confederate Soldier in Egypt.
New York 1882

وهذا الكتاب أيضا من الكتب القيمة فكتابه هو الجنرال لورنج أحد الضباط الأمريكيين في الجيش المصري . وقد دخل في خدمة الحكومة المصرية في ١٧ ديسمبر سنة ١٨٦٩ ، واستندت اليه مهمة تحصين السواحل المصرية ، ثم عين رئيسا لهيئة أركان حرب حملة راتب باشا . فكتاباتة عن تلك الحرب ، كتابة مستفيضة ولكنه قد حمل في بعضها على راتب باشا ، وحاول الدفاع عن موقفه في المواضع التي شعر فيها بضعف مركزه أو بخطائه .

Hertslet E.; the Map of Africa by Treaty, 3 vols.
third Edition. London 1909.

لهذا الكتاب أهمية كبيرة وخصوصا فيما يتعلق بالتقسيمات
التي تمت بين الدول الأوروبية بشأن تقسيم المستعمرات ومناطق
النفوذ . وهو سجل حافل بالمعاهدات الرسمية التي تمت بين الدول
الأوروبية بعضها ببعض ؛ أو بينها وبين الدول الأفريقية . والكتاب
مزود بعدد كبير من الخرائط الملحمة بهذه المعاهدات . وعلى
العموم فالكتاب لا غنى عنه لأي باحث في تاريخ أفريقيا
الحديث

مراجع أوروبية أخرى

- Abbat Dr., Le Soudan sous le règne du Khedive
Ismail.
- Allen, Bernard M.; Gordon and the Sudan, London,
1931.
- Crabités P. ; Americans in the Egyptian Army.
London 1938.
- Cromer (Earl); Modern Egypt. 2 vols. 1908
- Darcy, Jean ; France et Angleterre. Cent Années de
Rivalité Coloniale. Paris, 1909.
- De Leon (Edwine) ; The Khedive's Egypt. London
1877.
- De Leon (Edwine) ; Egypt under its Khedives.
London 1882.
- Dicey ; The History of the Khedivate. London. 1902
- Farman E. E. ; Egypt & its Betrayal. New York. 1809.
- Gordon : Letters of General Gordon to his Sister.
London 1888.
- Mekki Shibeika ; British Policy in the Sudan (1882-1902)
- Sabry M. ; L'Empire Egyptienne sous Ismail et

'l'Ingerence Anglo-Française' Paris 1939.

Shukry M. ; *The Khedive Ismail & Slavery in Sudan.*
(1863-1879) Caire 1938.

General Books

The Combridge Modern History. vol XII *Egypt & the
Egyptian Sudan (1841-1907)* by F. M Sandwith

Histoire Général. vol. XII ch. XII "La politique Euro-
péene jusqu'au Traité de Berlin 1871-1878 par
M. A. Malet."

Publications of the Egyptian General Staff

*The Egyptian Campaign in Abyssinia from notes of
a Staff-Officer.*

Periodicals

Bulletin d' l' Institut Egyphtien. T. V Année 1911 *L'Expe-
dition de l'Egypte contre l'Abyssinie (1875-1876)*
par le General F. Von Thurneysen Pacha.

Sudan Notes and Records

Revue d'Egypte III P. 640 "L'Expedition de Ratib
Pach Juillet 1877" par Dr. Suzzara.